1482T

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة وهران

كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية
قسم الحضارة الإسلامية

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية:

الحياة الاجتماعية بإقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين (18-19م)

إعداد الطالبة:
بهية بن عبد المومن

بإشراف:
د. محمد بن معمر

السنة الجامعية:
1426 - 1427هـ / 2005 - 2006 م

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة شكر وتقدير

أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من كانت له يد في إخراج هذا العمل إلى النور؛ وعلى رأسهم الأستاذ المشرف الدكتور محمد بن معمر الذي أشرف على إنجاز هذا العمل، ولم يبخل علي بتقديم التوجيهات والنصائح وبعض المراجع التي استعنت بها .

كما أشكر الدكتور بن نعمية عبد المجيد الذي فتح لنا مجال البحث، وسخر لنا كل وسائل العمل في مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، والذي استفدت منه الكثير .

دون أن أنسى الأستاذ أحمد الحمدي الذي منحني من وقته الكثير وصبر معي، وساعدني كثيرا خاصة في شرح بعض المصطلحات التي تعذر علي فهمها .

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ بن عيسى على مراجعته لهذا البحث من الناحية اللغوية.

قائمة المختصرات:

أ) باللـــغة العـــربية:

ج: جزء

هـــ : هجري.

و: ورقة.

ط: الطبعة.

م: ميلادي.

مج: مجلد

س: سنة

ع: عدد.

ص: صفحة.

ب) باللـــغة الفـــرنسية:

Ibid : المرجع نفسه

Op.Cit : المرجع السابق

P : Page

المقدمة

يعدّ الجنوب الجزائري الكبير منطقة غنية بتراثها العلمي والدّيني، فقد اشتهر بعلمائه ومؤلفيه وزواياه ومدارسه ومكتباته الّتي تحتوي على العديد من المخطوطات القيّمة. وعرفت بعض المناطق من الصّحراء برواج التجارة فيها كمتليلي وغرداية والمنيعة وسوف. وكانت شهرة عين ماضي وتماسين والقنادسة والهامل وطولقة والبيض في الدّين والتصوف. أمّا إقليم توات محور هذه الدراسة فقد جمع أغلب هذه الصفات، حيث اشتهر بالعلم والكتب، وأنجب علماء أجلاء من فقهاء ومحدثين وشعراء، وقام أبناء هذه المنطقة بنشر الإسلام عقيدة وشريعة ولغة وآدابا في مناطق كثيرة من غرب إفريقيا وشمالها، هذا فضلا عن أهميته التجارية والاقتصادية.

فهو يتميز بموقعه الوسط داخل صحراء المغرب، الّذي جعل منه منطقة عبور للقوافل التجارية والمسافرين القادمين من كافة الاتجاهات. وتكمن أهمية الإقليم من خلال احتوائه على الماء والكلأ للدواب ومؤن المسافرين، فيستطيع المار بالإقليم أن يواصل سفره دون أن يسأل شيئا، وعرفت هذه المنطقة بكرم وسخاء أهلها، وهي قيم نابعة من أصول إسلامية صافية.

وقد أدرك الأجانب، سيما الفرنسيين منهم أهمية الجنوب الكبير ومعه إقليم توات خلال القرن التاسع عشر، فانكبّوا على دراسة جوانبه المختلفة، السياسية منها والاقتصادية والطبيعية والبشرية والاجتماعية. كما اهتموا بدراسة المسالك والطرق التجارية عبر الصّحراء باعتبارها مفتاح هذه الأقاليم الشاسعة. فكتب إدوار بلان (Edward Blanc) عنها دراسة هامة ووضع لها خريطة جامعة، وحدّدها بعشرة مسالك رئيسة. منها طريق مراكش تمبكتو، الّذي يمر على تارودانت وتافراوت وتندوف ويخترق رمال ايقيدي وعرق شاش ويتجه إلى تاودني ويخترق الجوف شرقا مارا بأونان وصولا إلى تمبكتو. واهتم دبورتر (Deporter) أيضا بالمسالك وحدّدها بخمسة طرق رئيسة. وأهم المسالك هو مسلك

توات فجيج تافيلالت تلمسان، وهي عبارة عن الواحات المتصلة من زاوية الرّكاني وحتى قصر إكلي عند ملتقى واد زوزفانة بواد كير.

هذا وقد استقطب الإقليم خلال فترات متعاقبة العديد من القبائل البربرية والعربية والزنجية، ممّا جعل المجتمع فيه يقوم على التمايز الطبقي، فتأتي طبقة الأشراف ورؤساء القبائل والمقاطعات في الدرجة الأولى، ثم تليها طبقة الأحرار من العامة، فطبقة الحراثين والعبيد. والمجتمع التواتي متجانس وموّحد في العادات والتقاليد والأعراف. وقد كان الإقليم عرضة لمطامع قطاع الطرق، فشهد بذلك عدّة غارات وغزوات، أسفرت عن تخريب القصور والجنانات والفقارات، ممّا تسبّب في إحداث الكوارث والمآسي.

وشدّني الاهتمام إلى ضرورة دراسة كل ما يتعلق بالحياة الاجتماعية بإقليم توات، والّتي لم تأخذ حظها من الدراسة والبحث. ومن الأسباب التي دفعت بي إلى اختيار هذا الموضوع هو عدم وجود دراسة متكاملة ومستقلة عن تاريخ توات الاجتماعي، ولا ننكر هنا وجود بعض الدراسات الشاملة والعامة التي تناولت الموضوع بشكل جزئي.

ويطرح هذا البحث مجموعة من التساؤلات، منها إشكالية أصل كلمة توات الّتي اشتملت على تفسيرات مختلفة، وتحديد المنطقة جغرافيا، وكذالك تبعية الإقليم سياسيا. ومن التساؤلات التي يطرحها البحث أيضا العلاقات الخارجية لإقليم توات والطابع الذي تميزت به، فهل كان سلميا أم عدائيا، أم الاثنين معا؟. وكيف استطاع التواتيون التأقلم مع بيئتهم؟. ثم ماذا عن العلاقات الأسرية والدور الّذي قامت به المرأة ؟. وماذا عن المستوى المعيشي لسكان الإقليم من مأكل وملبس ومسكن؟.

وقد واجهتني في إنجاز هذا البحث مشكلة شح المادة التاريخية ونقص المصادر الّتي تناولت الحياة الاجتماعية بنوع من التفصيل، وأقصد بذلك تحديدا المصادر المطبوعة، لأنّه ليس بخاف على أحد وجود العديد من المخطوطات في خزائن إقليم توات الّتي من شأنها تقديم الجديد في الموضوع لو تم الوصول إليها، وهو ما لم نتمكن منه لأسباب قاهرة.

أما من حيث المنهج المتبع في الدراسة فهو المنهج التحليلي التاريخي، الّذي يقوم أساسا على التحليل والتعليل والترجيح والاستنتاج. فحاولنا تفسير الأحداث ومناقشتها وفق رؤية علمية منهجية، وذلك بالتعامل المباشر مع النصوص التاريخية من مصادرها الأصلية، محاولين بذلك استقراءها وتحليلها وتوضيفها قدر الإمكان، من خلال استنباط كل ما له علاقة بالحياة الاجتماعية. كما وظفنا النوازل الفقهية الّتي أمدتنا ببعض المظاهر الاجتماعية، بحيث استنتجنا من بعضها العديد من الظواهر الاجتماعية والاقتصادية.

واستعنا في هذا البحث بمجموعة من المصادر المخطوطة والمطبوعة والمراجع المكملة، نظرا لانعدام دراسة متخصصة حول الحياة الاجتماعية في توات. ومن أهمها نذكر المخطوطات:

غنية المقتصد السائل فيما وقع في توات من القضايا والمسائل لجامعه محمد بن عبد الرحمن البلبالي المتوفى عام 1244هـ/1828م، وابنه عبد العزيز البلبالي المتوفى عام 1261هـ/1845م. والغنية عبارة عن مجموعة من القضايا والفتاوى والمسائل المنقولة من سجلات القاضي عبد الحق بن عبد الكريم الّذي شكل مجلس الشورى من أربعة فقهاء لمشاورتهم في القضايا الّتي كانت تستشكل عليه. وجمع عبد العزيز أحكام السجل الّتي قيدها والده وسماها بغنية المقتصد السائل، وقام بنسخه وإخراجه من مسودته وترتيبه على أسلوب المختصر خليل. والكتاب مقسم إلى عدّة مسائل، ابتدأه بجامع في القول والاعتقادات ونبد من طريق الحكايات، ومسائل الطهارة، والصلاة، والعبادات، والزكاة، والصيام، والنكاح، والطلاق، ... إلخ.

ويقع المخطوط في 778 ورقة، سليمة واضحة القراءة، تناولت قضايا مختلفة. وأفادنا باب النكاح وما تعلق به في إبراز الحياة الأسرية، وتبيان علاقة الرجل بالمرأة، فمن خلاله عرفنا كيف تتم الخطبة والزواج والطلاق. كما استنتجنا من بعض النوزال بعض العادات والتقاليد والأعراف الّتي كانت سائدة بالإقليم.

واستنتجنا من باب الغصب وسائر العدى والحبس وسائر العطايا، وباب القضاء الخصومات والنزاعات التي كانت تنشأ بين الأفراد والقبائل، كما استخلصنا من كل باب بعض مظاهر الحياة الاجتماعية، ولا يسعنا أن نذكر جميع هذه الأبواب لكثرتها.

نوزال الزجلاوي لمؤلفه الإمام محمد بن العالم الزجلاوي المتوفى عام 1212هـ/1797م. ويقع المخطوط في 32 ورقة، مقسم إلى أربعة مباحث وهي: مبحث النكاح، والطلاق، والذكاة، والبيوع. واشتمل كل مبحث على مجموعة من القضايا والمسائل. واستخلصنا من كل باب بعض مميزات الحياة الأسرية. وأفادنا خاصة مبحث النكاح والطلاق كثيرا، إذ استقينا منه الأسباب التي كانت تؤدي إلى وقوع الطلاق.

رحلة من الجزائر إلى توات لعبد الرحمن بن إدريس التواتي التنلاني. ويقع المخطوط في 6 ورقات، استفدنا منه في التعريف بقبيلة الشّعانبة التي كانت تغير على القصور التواتية باستمرار.

أمّا بالنسبة للمصادر المطبوعة فمنها:

القول البسيط في أخبار تمنطيط لمؤلفه محمد الطيب بن عبد الرحيم التمنطيطي المتوفى في القرن 13هـ/19م. وهو كتاب محقق من قبل الأستاذ فرج محمود فرج. يقع في 33 صفحة، ومن خلال عنوانه يتضح أنّه جد مختصر. وتوجد نسخة مصورة من المخطوط في خزانة مخبر كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية بجامعة وهران. واعتمد مؤلفه على بعض التقاييّد وعلى ما سمعه من الناس وما عايشه، ويقع الكتاب في أربعة فصول.

تعرض في الفصل الأول إلى أول من نزل بتمنطيط وأسس قصورها. وأمّا الثاني، فيقع في صفحة واحدة خصّصه للتعريف بقبيلة أولاد يحي ومن نزل بأرضهم بعد انقراضهم وزوال قبيلتهم، في حين اشتمل الفصل الثالث على التعريف بقبيلتي أولاد علي بن موسى وأولاد يحي. والفصل الرابع والأخير فكان

في ذكر علماء مدينة تمنطيط، وهو غير كامل لأنّ المؤلف توفي قبل الانتهاء منه. وأفادنا الكتاب في معرفة سكان مدينة تمنطيط، وسبب الصراع الّذي نشأ بين مختلف القبائل. كما أفادنا الفصل الرابع في ترجمة بعض الأعيان الّذين قصدوا توات، أمثال أبا يحي المنياري، والتدلسي. كما تعرض إلى ذكر قضية يهود توات باختصار شديد نقلا عن الونشريسي صاحب المعيار.

وما لاحظناه على هذا الكتاب أنّ المؤلف يقع في بعض الأخطاء، فهو يخلط بين دولة الموحدين والعبيديين، كما أنّه يورد بعض الأساطير والخرافات وهو يؤمن بها. ويبقى الكتاب جد مهم رغم بساطته وصغر حجمه، فهو الوحيد الّذي أمدنا بمعلومات قيّمة عن أسماء القبائل وصراعاتها حول السلطة.

قطف الزهرات من أخبار علماء توات لعبد العزيز سيدي عمر المتوفى خلال القرن 14هـ/20م. والكتاب جد مختصر وموجز، تطرق صاحبه إلى ترجمة أعلام المنطقة، واقتصر فيهم على جملة معدودة منهم، ومع أنّ الدراسة كانت تقليدية وتفتقر إلى آليات البحث العلمي والأكاديمي، إلاّ أنّ الكتاب يبقى مهم، إذ من خلاله تم التعرف على بعض الأعيان وأهم مخلفاتهم. ولمسنا في المؤلف أنّ صاحبه يؤمن بالكرمات والخوارق، وختم كتابه بذكر نبذة من فضيلة الصالحين ومحبتهم وزيارتهم وحكمها من الدين.

تقييد ما اشتمل عليه إقليم توات من الإيالة السعيدة من القصور ووثائق أخرى، قام بتحقيق الكناش عبد الوهاب بن منصور. ويشمل التقسيم الإداري للمنطقة وحدد من تبلكوزة إلى فقارة الزوا. وأفادنا في معرفة جميع المقاطعات التواتية وأهم قصورها وقصباتها.

تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، لابن بطوطة. تطرق في كتابه إلى التعريف ببودة إحدى مقاطعات توات، وذكر كيفية صيد الجراد وخزنه.

وأمّا المراجع الأجنبية فمنها:

أربعة قرون من التاريخ المغربي لمارتن.

Martin, Quatre Siècles D'Histoire Marocaine.

ويقع في مجلد ابتدأه بالتعريف بأقاليم توات الثلاثة، القورارة وتوات وتديكلت. والمؤلف مقسم إلى عدّة فصول عالج فيه تاريخ المغرب من سنة 1894- 1902م، وتاريخ الواحات الصّحراوية من سنة 1504- 1902م. واعتمد مارتان على مصادر ووثائق مهمة، كما وظّف الرواية الشفهية. وكان اعتمادنا على هذا الكتاب كبيرا لأنّه الوحيد الّذي عالج الحياة الاجتماعية بالتفصيل، فاستقينا منه التعريف بالمنطقة، ونوعية العلاقات الّتي كانت بين أهل توات والقبائل المجاورة لهم، كما أفادنا في معرفة أسباب تقسيم القبائل التواتية إلى ياحمد وسفيان، وما أدى إليه هذا الصراع من نتائج سلبية أثرت على الحياة الاجتماعية.

أمّا الكتاب الثاني فهو بعنوان الواحات الصّحراوية.

Les Oasis Sahariennes.

وهو لا يقل أهمية من الأول، عالج فيه قضايا اجتماعية واقتصادية بدقة متناهية. والمؤلف ذو قيمة علمية كبيرة، ومع هذا لم يحض بالاهتمام المؤرخين وذلك بترجمته إلى العربية. ومن خلاله استطعنا ملأ الثغرات والفجوات الّتي واجهتنا. وأفادنا الكتاب في معرفة أهم القبائل البربرية والعربية الّتي استقرت بتوات، مع ذكر سنة قدومها ومكان استقرارها، وكشفنا من خلاله على العديد من الظواهر الاجتماعية الّتي كانت سائدة بالإقليم.

ملخص حول توات (مقال) لعبد الرحمن سلكة.

Selka Abderrahmanne, Notice Sur Le Touat.

وهو دراسة مختصرة جاء فيها التقسيم الإداري والطبقات السكانية، كما عالج فيه الحياة الاقتصادية والاجتماعية. ويعدّ المقال ذو فائدة علمية كبيرة، أفادنا في معرفة أصل السكان، وأهم القصور الّتي قاموا بتشييدها، كما تزودنا منه ببعض عادات وتقاليد السكان، والواقع أنّه لا يخلوا من الأساطير والخرافات الّتي

كان يذكرها المؤلف من حين لآخر. ومع هذا يبقى المقال جدّ مهم ومفيد خاصة من الناحية الاجتماعية، لأن معظم المقالات التي تناولت موضوع توات اهتمت المائية وكيفية إنشائها وتقسيم مياهها.

توات في العصور الوسطى، اليهود في الصّحراء. لمؤلفه جاكوب أوليل.

Jacob Oleil, Touat au moyen age, Les Juif Au Sahara.

اعتمد على كتابي الواحات الصّحراوية وأربعة قرون من تاريخ المغرب لمارتان. تطرق فيه إلى دراسة الحياة السياسية والاقتصادية لتوات في عصرها الوسيط، وكان المؤلف يحاول بطرق ملتوية أن يوصل فكرة مفادها أنّ توات يهودية الأصل، فزعم أنّهم أول من وصل إليها، وإليهم يرجع الفضل في إنشاء فقاراتها، كما نوّه بأنّ العرب بقدومهم إلى الواحات عملوا على انتزاع جميع الصلاحيات التي كانت بيد اليهود، وقاموا باضطهادهم. وأفادنا الكتاب في معرفة أصل اليهود المستقرين بتوات، وأهم القصور التي استوطنوها، والحرف والصناعات التي كانوا يمارسونها.

فقارات توات لآربو.

L. Herbeau, Les Foggara du Touat.

أفادنا في التعريف بنظام الفقارة، وطريقة حفرها وكيفية قياس وتوزيع مائها.

أمّا المراجع العربية فمنها:

إقليم توات خلال القرنيين 18- 19م لصاحبه فرج محمود فرج. وهي دراسة شاملة ضمت التاريخ الجغرافي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي لتوات. وأفادنا الكتاب في التعرف على بعض مظاهر الحياة الاجتماعية بتوات. والواقع أنّ المؤلف لم يكن يشير إلى المصادر التي اعتمد عليها إلاّ نادرا. ويخلط الباحث بين أسماء القبائل العربية والبربرية. كما أنّه وقع في بعض الأخطاء، بحيث نقل لنا نصا من كتاب ماء الموائد للعياشي خطأ بحيث قال: "إنّ

أهلها أهل علم وفلاح". بينما جاء في النص "أنّ أهلها خلو من أهل العلم والفلاح". ومع ذلك أفادنا هذا الكتاب كثيرا.

الرّحلة العلية إلى منطقة نوات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات لمحمد باي بلعالم. ويقع الكتاب في جزئين، وهو دراسة شاملة لإقليم توات. ونفهم من خلال العنوان أنّه اشتتمل على مواضع عدّة نذكر منها: أعلام المنطقة ومؤلفاتهم القيّمة، ذكر أهم الزوايا ومؤسسيها ودورها التعليمي والخيري، ذكر لبعض العادات والتقاليد والاحتفالات الّتي اشتهرت بها المنطقة، وهو الّذي استفدنا منه كثيرا لأنّه ضمن موضوع بحثنا. ولم يشر المؤلف في الهامش إلى المصادر الّتي اعتمد عليها في تدوين مؤلفه، ومع هذا يبقى الكتاب جد مهم لأنّه جمع لنا مادة كثيرة وقيمة.

موسوعة القبائل العربية لمحمد سليمان الطيب، وهو عبارة عن مجلد يقع في جزئين، أفادنا في تعريف القبائل العربية الّتي استقرت بتوات.

واستعنا برسالة ماجستير تحت عنوان محمد بن عبد الكريم المغيلي للأستاذ أحمد الحمدي. ورغم أنّ الرسالة خاصة بشخصية المفكر المغيلي إلاّ أنّها اشتملت على مواضع عدّة، بحيث جاءت فيها دراسة عن الحياة السياسية والإجتماعية والاقتصادية والثقافية، وأفادنا كثيرا الجانب الاجتماعي الّذي استقينا منه بعض مظاهر الحياة بتوات.

وقسمنا بحثنا إلى مدخل تناولنا فيه دراسة الإقليم جغرافيا وتاريخيا وسياسيا وإداريا. ثم الفصل الأول وعنوناه بالبنية الاجتماعية لإقليم توات، وقسمناه إلى ثلاث مباحث، تناول الأول عناصر السكان بالمنطقة من البربر والعرب والعبيد والحراثين واليهود، وتطرقنا فيه إلى ذكر زمن وصول القبائل ومكان استقرارها. وجاء في المبحث الثاني الطبقات الاجتماعية للإقليم، فتأتي طبقة رؤساء المقاطعات وشيوخ القبائل من البربر والعرب في المرتبة الأولى، ثم تليها طبقة الأشراف والمرابطين، فطبقة الفقهاء والعلماء، ثم طبقة كبار التجار من الأحرار، ففئة المزارعين والحرفيين وأخيرا فئة العبيد. وخصّصنا المبحث الثالث للعلاقات

الاجتماعية، وأدرجنا الخصومات والنزاعات التي كانت تنشأ بين مختلف القبائل التواتية، والتقسيم القبلي الذي عرفه الإقليم خلال العصر الوسيط والذي استمر إلى غاية العصر الحديث، وهم ما يعرف بقبائل ياحمد وسفيان، وبيّنا النتائج السلبية التي أسفر عنها هذا الصراع.

أما الفصل الثاني فتناول مظاهر الحياة الاجتماعية بإقليم توات، وقسمناه إلي ثلاثة مباحث. فخصّصنا المبحث الأول لدراسة الأسرة وما يتعلق بها، وجاء فيه مكانة المرأة التواتية ودورها في المجتمع، ثم تطرقنا إلى الزواج فبيّنا كيف تتم الخطبة، ومقدار الصداق الذي يدفع، فمراسيم الزواج، ثم أسباب الطلاق، فالعدة والحضانة.

وتناول المبحث الثاني دراسة لعادات وتقاليد واحتفالات السكان، وهي تختلف من منطقة لأخرى. وبيّنا كيف يتم التحضير للاحتفالات الدّينية، وما يؤكل ويشرب ويلبس بها. ومن بين الاحتفالات التي كان يهتم بها التواتيون شهر رمضان، العيدين(الفطر والأضحى)، يوم عاشوراء، والمولد النبوي الشريف. وخصّصنا المبحث الثالث لتبيان طعام وشراب ولباس وسكن أهل توات، الذي كان يتميز بالبساطة والسهولة.

المـــدخـل

يعتبر إقليم توات الّذي كان يربط بين مختلف مدن الشمال وبلاد السودان الغربي محطة تجارية هامة، وتضم قصور هذا الإقليم واحات كثيرة، وتركيبة سكانية متنوعة من البربر والعرب واليهود والزنوج. وأما تضاريسه فهي تشمل العرق والحمادة والهضبة والأودية الّتي تصب في الواحات. وتعد العواصف الهوجاء الّتي تعصف بالإقليم، والّتي تحمل معها الرمال تهديدا خطيرا للواحات المزروعة، فكانت تؤدي إلى إتلاف المحاصيل.

1- إشكالية تسمية توات:

اختلف المؤرخون حول تسمية توات، فمحمد الرّصاع جعلها اسما لأحد بطون الملثّمين حيث قال: "والملثّمون هم قبائل الصّحراء بالجنوب، عرفوا بهذا الاسم لأنّهم يتلثّمون بلثام أزرق، ومنهم طوائف التوارق ولمطة ولمتونة والتوات"[1]. وذكر عبد الرحمن السعدي أنّ أصل الكلمة جاء من منطقة التكرور[2]، فالسلطان كنكان موسى[3] حاكم مالي[4] لما حج مر بإقليم توات، فأصاب الكثير من أصحابه مرض يأتي في الأرجل يسمى توات في لغة السنغاي[5]، ولما استوطنوا ذلك

---

[1]- الرّصاع أبوعبد الله محمد الأنصاري، فهرست الرّصاع. تحقيق وتعليق محمد العنابي. تونس: المكتبة العتيقة، 1976م، ص: 127.

[2]- **التكرور:** تعني كلمة التكرور، أو التكارنة، أو الدكارنة سكان دولة التكرور القديمة في غرب إفريقيا الّتي أنشأت في القرن الثالث الهجري أي التاسع الميلادي. وهو الإقليم الغربي من الجنوب السوداني، يضم مدينة كانو وكاشنا وتومبكتو. الطيب عبد الرحيم محمد الفلاتي، الفلاتة في إفريقيا ومساهمتهم الإسلامية والثّنموية في السودان. دار الكتاب الحديث، ط:1، 1415هـ/1994م، ص: 275، هـ: 25.

[3]- **كنكان موسى:** ينظر ترجمته في المصادر التالية: ابن خلدون عبد الرحمن، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر. لبنان: دار الكتب العلمية، ط:1، 1992م، ج: 7، ص ص: 238- 239. الناصري أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري. الدار البيضاء: دار الكتاب، 1954م، ج: 3، ص: 151. جوان جوزيف، الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء. ترجمة مختار السويفي. مصر: دار الكتاب المصري، لبنان: دار الكتاب اللبناني، ط:1، 1984م، ص ص: 72- 73.

[4]- **مالي:** تقع ما بين بلاد بورنو شرقا، والمحيط الأطلسي غربا، وجبال البربر شمالا. وهي خمسة أقاليم: مالي، وصوصو، وغانا، وكوكو، والتكرور. وسمّيت بمالي لأنّ معظم سكانها الأوائل من الماندي، وهي مرادفة لكلمة ماندنجو، ومعناه المتكلّمون بلغة الماندي، ويسمّيهم الفلاتي بمالي، وبلغة البربر مليت، وبالعربية مليل، وبلغة الهاوسا بوانجارا. ينظر: الطيب عبد الرحيم، المرجع السابق، ، ص: 255، هـ: 5. الموسوعة العربية العالمية. السعودية: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ط: 2، 1419هـ/1999م، ج: 22، ص: 128.

[5]- **السنغاي:** يرجع أصل قبائل السنغاي إلى قبيلة نشأت على ضفاف نهر النيجر الأوسط في الفترة ما بين القرن السابع إلى التاسع الميلادي، ولما غزت قبيلة ضيا البربرية تلك المناطق أسّسوا هناك أسرة حاكمة تعرف بأسرة ضيا، وأول ملوكهم يسمى بضيا العالمين، وكانت عاصمتهم مدينة جاو، اعتنق حاكمهم الإسلام وظلّت قبائل السنغاي على ديانتهم القبلية. جوان جوزيف، المرجع السابق، ص: 81.

الموضع سمي باسم تلك العلّة[1]. وقال محمد بن مبارك: "أنّ أصل الكلمة أعجمي وقد أطلقها قبائل من لمتونة[2] عندما لجأت إلى الإقليم في منتصف القرن السادس الهجري أي الثاني عشر الميلادي[3].

ويرى محمد بن عومر بن محمد بن أحمد بن الحبيب بن محمد المبروك البوداوي صاحب مؤلف "نقل الرواة عن من أبدع قصور توات" أنّها سميت بهذا الاسم حين فتح عقبة بن نافع المغرب، فبعد وصوله إلى توات سنة 62هـ/681م سأل إذا ما كانت المنطقة تواتي لنفي العصاة، فأجابوه بأنّها تواتي فانطلق اللّسان بذلك[4]. ويقال أنّ اسمها اشتق من الأتوات، وهي المغارم الّتي كانت تدفع للموحّدين[5]. وذكر مارتان (Martin) أنّ أصل الكلمة يعود إلى "أو" وهي مفردة توجد في عدّة لغات منها العربية واليونانية، كما توجد عند زناتة، وتعني بقعة مسكونة، وأضيف إلى الكلمة حرف التاء في المقدمة وفي المؤخرة فصارت تدعى توات[6].

ويرجع تاريخ عمارتها إلى ما قبل الإسلام، كانت تسمى بالصّحراء القبلية ثم كثرت عمارتها بعد جفاف نهر قير[7]. ومن خلال عرض جميع هذه الروايات يتضح أنّ كلمة توات شملت عدة تفسيرات مختلفة ومتباينة، فالرواية الّتي جعلت التسمية مرتبطة بالإتاوة مرفوضة، فتوات أدّت المغارم لجميع الدويلات القائمة بالمغرب، كما أنّ لو كل إقليم أدى الإتاوة لدولة ما سمي بتوات لتعدد هذا الاسم

---

[1]- أحمد الحمدي، محمد بن عبد الكريم المغيلي رائد الحركة الفكرية بتوات عصره وآثاره 870- 909هـ/ 1465- 1503م. رسالة ماجستير مخطوطة بقسم الحضارة الإسلامية، 1999- 2000م، ص: 5.

[2]- **لمتونة**: مجموعة كبرى من قبائل البرانس الصنهاجية، من بينها لمتونة، وجدالة، ومسوفة، وكانت مواطنها الأصلية بالصّحراء الكبرى بين المغرب والسودان. محمد سليمان الطيب، موسوعة القبائل العربية. دار الفكر العربي، ط: 2، 1418هـ/1997م، مج:1، ج:1، ص: 1056.

[3]- فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية والمؤسسة الوطنية للكتاب، 1977م، ص: 2، هـ: 2.

[4]- الصديق حاج أحمد، التاريخ الثقافي لإقليم توات من القرن 11-14هـ/17-20م. ط:1، 2003م، ص: 27.

[5]- محمد باي بلعالم، التعريف ببعض الجوانب من منطقة توات الجزائرية وحضارتها. أعمال الملتقى الثقافي الأول للتعريف بمنطقة أدرار. أدرار: 13-14 شعبان 1405هـ/3-4 ماي 1985م، ص: 42.

[6]-A.G.P.Martin, A la Frontière Du Maroc Les Oasis Sahariennes. Alger: Edition De L'Imprimerie Algérienne, 1908, P: 41.

[7]- محمد باي بلعالم، المرجع السابق، ص: 42.

وانتشر في سائر الأقطار، والأقرب إلى الصواب أنّ أصل الكلمة بربري، لأنّ أول من قطن بالمنطقة البربر الّذين قاموا باختطاط القصور، والّتي حملت أسماءهم إلى غاية اليوم رغم التعريب الّذي مس الإقليم، وساهم العرب بوصولهم إلى نشر الإسلام واللّغة العربية في الصّحراء و بلاد السودان الغربي، ونخلص إلى أنّ أصل الكلمة بربري محض.

2- جغرافية الإقليم:

يقع الإقليم في الجنوب الغربي للجزائر[1]، واسم وات إذا أطلق يراد به العموم فيدخل في نطاقه الأقاليم الثلاثة وهي: تيكورارين[2]، وتوات، وتيدكلت[3]، ولكل إقليم مميزات وصفات خاصة تميزه عن الأخر[4]. واختلف المؤرخون في تحديد المنطقة جغرافيا فالعياشي حدّدها من قرية عريان الرأس[5] بمقاطعة تسابيت[6] حيث يقول: "هي أول عمالة توات"[7].

---

[1]- ينظر الملحق رقم: 8، ص: 169. للإطلاع على خريطة توات التي تبين الحدود الجغرافية.

[2]- **تيكورارين:** أوالقورارة، هي منطقة واسعة تقع شمال توات. بعيدة بنحو 120 ميل عن شرق تسابيت، وبها ما يقرب خمسين قصرا وأكثر من مائة قرية بين حدائق النخل. وكان سكانها أغنياء يتاجرون مع بلاد السودان، وهي مجمع القوافل التجارية، فتجار البربر كانوا ينتظرون تجار بلاد السودان ليذهبون معا. وأدى الجفاف إلى نذرة الثروة الحيوانية بها، ويأكل أهلها لحوم الجمال، التي كانت تشترى من الأعراب الواردين على الأسواق. وكان يقيم بالإقليم بعض اليهود الّذين نهبت أموالهم إثرعاصفة المغيلي. وكان السكان يؤدون إتاوة صغيرة للأعراب. اصمتها تيميمون، وتعني تيكورارين بالأمازيغية المعسكرات. الوزان الحسن بن محمد، وصف إفريقيا. ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر. دار الغرب الإسلامي، ط: 2، 1983م، ج: 2، ص: 134.

[3]- **تيدكلت:** هي منطقة شاسعة بين الهقار وتيكورارين، ينتشر فيها النخيل والفقاقير. ومن قصورها: زاوية مولاي هبة، وقصبة مولاي عبد الله، واولف، وقصبة بلال، وتمكطن، وقصبة سيدي ملوك، والشرفاء، والجديد، وقصبة مولاي الظاهر. عاصمتها عين صالح، واحتلت سنة 1317هـ/1899م. تقييد ما اشتمل عليه إقليم توات من الإيالة السعيدة من القصور ووثائق أخرى. تحقيق عبد الوهاب بن المنصور. المغرب: المطبعة الملكية، 1318هـ/1962م، ص: 9. أحمد العماري، توات في مشروع التوسع الفرنسي بالمغرب من حوالي 1850م إلى 1902م. المغرب: كلية الآداب بفاس، ص: 29.

[4]- J.Despois, R.Raynal, Géographie De L'Afrique Du Nord Ouest. Paris: Payot, 1967, P: 453.

[5]- **عريان الرأس:** هو الشيخ محمد بن الصالح تلميذ الولي المشهور الصالح "سيدي أبي الرواين" دفين مكناس بالمغرب الأقصى. العياشي أبوسالم، ماء الموائد. المغرب: مطبوعات دار الغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1977م، ج:1، ص: 20.

[6]- **تسابيت:** هي على بعد نحو 250 ميل شرقا و100 ميل من الأطلس. من قصورها: عريان الرأس، وأبرنكان، وحمادى، وعمور، والأعياد، ووجلان، والمعيز، والهبلا، والسبع. وكان سكانها فقراء فلا ينبت بأرضهم سوى التّمر والقليل من الشّعير. الحسن الوزان، المصدر السابق، ج: 2، ص: 133. التقييد، ص: 6.

[7]- العياشي، المصدر السابق، ص: 20.

وحدّد في كناش التقييد من منطقة تبلكوزة[1] إلى فقارة الزوا[2]. وجعل مارتان الإقليم يمتد من بودة[3] شمالا إلى الرّكان[4] جنوبا، وحدّده بالضبط عند قصر "انتهت" الّذي ينتهي به الإقليم[5]، ونظرا لشساعة الإقليم وكثرة واحاته وقصوره حدّدنا مجال الدراسة من بودة شمالا إلى الرّكان جنوبا.

3- حدود وتضاريس الإقليم:

يحدها غربا أعمال مراكش الجنوبية، وشرقا جبل باطن، وجنوبا الصّحراء العظمى[6]، ومن الشمال العرق الغربي الكبير وعرق الراوي وإقليم القورارة، ومن الغرب وادي مسعود، ومن الجنوب الغربي عرق شاش، ومن الشرق هضبة تادمايت، ومن الجنوب الشرقي إقليم تيدكلت، وجنوبا تنزروفت[7]. وتمتد ما بين خطي طول 2,30 و3,30 درجة غربا[8]، ودائرتي عرض26,7 و28,5 درجة شمالا[9].

---

[1]- **تبلكوزة:** أم قرى تينركوك بالقورارة، تمتد بخمسين كيلومتر شرقي واد الساورة وجنوبي العرق الغربي الكبير. كانت تسكنها قبيلة المحارزة العربية. ومن بين قصورها: تعنطست، وزاوية الدباغ، وفاتيس، وودغة وسّيدي منصور. وأسّس قصر تبلكوزة من قبل الولي أبو محمد، وأصل الكلمة بربري زناتي. ينظر: التقييد، ص: 4، هـــ: 2.
Martin, Quatre Siècles D'Histoire Marocaine. France: Librairie Félix Alcan, 1923, PP: 8-10.

[2]- **فقارة الزوا:** توجد بتدكلت وتعد آخر حدوده، وكانت تضم أربعة قصور. ينظر: التقييد، ص: 4.

[3]- **بودة:** من أكبر قرى توات، تقع غرب مدينة أدرار وتبعد عن مقر الولاية بـــ 28 كم. وقد وصفها ابن بطوطة في رحلته فقال: "هي أرض سباخ ورمال، وليس بها لا زرع ولا سمن ولا زيت." ومن أهم قصورها المنصور الّذي دمر من قبل قبائل ياحمد. ابن بطوطة محمد بن عبد الله إبراهيم، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. تحقيق وتعليق علي المنتصر الكتاني. مؤسسة الرسالة، ط: 4، 1405هـــ/1985م، ج: 2، ص: 801. الصديق حاج أحمد، المرجع السابق، ص: 115.

[4]- **الرّكان:** تقع قصوره على بعد 170كم إلى الجنوب من أدرار في الطريق الرابط بين توات والسودان، وفيها أجرى الفرنسيون تجاربهم النووية سنة 1382هـــ/1962م، وكان سّلطان المغرب محمد الخامس قد استنكر على السّلطات الفرنسية قيامها بذلك باعتبار أرض توات جزء من التراب المغربي. التقييد، ص: 9، هـــ:1.

[5]- Martin, Op.Cit, P: 10

[6]- بطرس البستاني، دائرة المعارف. لبنان: دار المعرفة، ج: 6، ص: 248.

[7]- **تنزروفت:** هي صحراء شاسعة حصوية بيضاء اللّون جافة، تمتد إلى غاية المناطق الخصبة بأهقار، وكل طرقها تؤدي إلى بلاد السودان. ينظر:
Le Chatelier, Les Medagnat. Revue Africaine, Alger: Office Des Publication Universitaire, 1869, N: 30, P: 96.

[8]- L.Rouire, Le Sud Ouest Oranais Et Le Touat. Oran: Revue De La Société De La Géographie, 1891, P: 362.

[9]-P.Devors, Le Touat Etudes Géographique Et Médicales. Alger: Archives De L'Institut Pasteur.T: XXV, N: 3-4, Sep-Dec, 1947, P: 224.

وأرض توات عموما مسطحة، ويتكون سطح الأرض من الرّق والعرق والسبخة والهضبة والحمادة والوديان. فالرّق هو سهل مغطى بالحصى الجافة تنتشر منها الرمال لتكون لنا العرق، وهو عبارة عن رمال تمتد سهولها وكثبانها بين المغرب والسودان، وينطلق من المحيط الأطلسي إلى النيل شرقا، وتتخلله هضاب صخرية تدعى الحمادة، وأشهر هذه العروق عرق شيت و ايكيدي والعرقان الشرقي والغربي. والسبخة هي بحيرة تتبخر مياهها في الصيف وتستحيل إلى ضاية من الملح تسمى بالشط أو السبخة أو زاغز[1]، وأهم سبخات توات سبخة تمنطيط وسبخة تيمي وأزل ماتي بجنوب رّكان. وكانت توات في العصور الأولى بحرا فكان بها المحارات والآثار البحرية، تمر بها الزوارق ما بين تمادنين إلى بودة، ثم إلى أوقروت[2]. وتوجد بالإقليم بعض الهضاب من أهمها هضبة تدمايت وهضبة الإقلاب الّتي ينبع منها وادي شناشن ويختفي في عرق شاش. وأما الحمادة فهي هضاب من الكلس قاحلة نخرتها الوديان تحت تأثير الرياح الهوجاء وأشعة الشّمس[3].

وتنتشر بتوات مساحات شاسعة مغطاة بالرمال، كانت تعتبر تهديدا خطيرا للأراضي المزروعة والفقارات والقصور[4]، فزحف الرمال على الأراضي الزراعية يؤدي إلى إتلافها وانسداد فوهات الفقارات، لذا كان لزاما على أصحابها صيانتها باستمرار للحفاظ على مائها. كما كان يؤدي زحف الرمال إلى اندثار القصور الّتي هجرها أصحابها، كقصر أولاد ميمون الّذي زاحمته الرمال من الجنوب[5]. وكان سكان توات حريصين على إنتاج نخلهم وحبوبهم اللّذين يعدّان

1- الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية. الرباط: صفر1396هـ/فبراير1976م، ص: 119، 151.
2- محمد باي بلعالم، المرجع السابق، ص: 43.
3- تغطي الحمادة مساحات شاسعة بعضها منبت بين درعة وزمور والساقية الحمراء، وهي عبارة عن هضاب صخرية تمتد في الفيافي الصّحراوية مائلة السطح. الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية، ص: 90.
4- أحمد الحمدي، المرجع السابق، ص: 8.
5- محمد الطيب بن عبد الرحيم، القول البسيط في أخبار تمنطيط. تحقيق فرج محمود فرج، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1977م، ص: 17.

مصدر رزقهم الأول، وعلى الفقارات التي قامت عليها الحياة بالصّحراء، فكانوا يصنعون حاجزا لوقف زحف الرمال من جريد النخل يسمى أفراك[1].

وينتهي بالإقليم ثلاثة أودية هي: وادي مسعود[2] الذي ينتهي بإقليم توات، ووادي قاريت[3] بتيدكلت، ووادي مقيدن[4] بالقورارة. وتزخر توات بمياه جوفية كثيرة تسقى بها البساتين والجنان، واهتم السكان بحفر الفقارات وبالاعتناء بها لتوفير المياه اللاّزمة للشرب ولسقي المزروعات. ويزرع بواحات الصّحراء النخيل الذي يتحمل قسوة الطبيعة الصّحراوية من الجفاف والحرارة المرتفعة، كما تزرع الحبوب من القمح والشّعير والدخن والذرة البيضاء، ومختلف الخضر والفواكه. ويعد الجمل الوسيلة الوحيدة للتنقل والسفر وحمل البضائع، فهو سفينة الصّحراء يستطيع أن يبقى لمدة أسبوعين كاملين دون ماء. أما التربة فهي رملية ذات الجزئيات الخشنة غير صالحة للزراعة باستثناء بعض الواحات. ويوصف النبات بالندرة لشّدة الجفاف، وتكثر بالإقليم النباتات الشوكية والقصيرة[5] التي تقاوم الجفاف بواسطة عروقها الطويلة، والتي تمكنها من اختزان الماء، أوهي من النوع التي تختزن بخار الماء في سيقانها.

4- المناخ:

يسود الإقليم مناخ صحراوي جاف، وهو يتميز بارتفاع درجات الحرارة في فصل الصيف وبانخفاضها في فصل الشتاء، حيث يكون الطقس جد بارد، فكانت درجة الحرارة تصل إلى 50 درجة مئوية[6]، مما يسبب ضعف النشاط البشري

---

[1]- **أفراك:** هو السّياج بلغة البربر. مصطفى أبو ضيف، أثر القبائل العربية في الحياة الغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين. المغرب: مطبعة دار النشر المغربي، ط:1، 1982م، ص: 242.

[2]- **وادي مسعود:** يتكون من اتحاد وادي كير مع وادي زوزفانة عند فجيج، يتجه نحو الجنوب وهناك يطلق عليه وادي الساورة، يصل إلى كرزاز ويغير اتجاهه نحو الغرب، ثم يتجه نحو الجنوب، وهناك يطلق عليه وادي مسعود، وعندما يصل إلى تسفاوت يصبح سبخة. فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 2.

[3]- **وادي قاريت:** يأتي من الشمال الشرقي لمنطقة تدكلت، يتجه جنوبا غربها، ويصل في نهايته بوادي مسعود ويصبح روافدا له. المرجع نفسه، ص: 2.

[4]- **وادي مقيدن:** هو امتداد لوادي سفور، ينبع من المنيعة ويتجه غربا حيث يتلاشى، ويظهر من جديد باسم وادي شيدون، وينتهي بالقورارة مكونا سبخة قورارة. المرجع نفسه، ص: 2

[5]- الصديق حاج أحمد، المرجع السابق، ص:37.

[6]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 35.

والميل إلى الراحة والاسترخاء. وتساقط الأمطار في توات قليل، ويعتمد أهل الواحات كليا على مياه الفقارات، وكان سقوط الأمطار يؤدي إلى هدم وتساقط البنايات والقصور لأنّها مبنية من الطوب الّذي يصنع من الطين والتراب، والّتي ما تلبث أن تتهاوى بعد طلوع الشّمس. وكان التواتي يبني بيته من الطوب ويجعل سقفه وأبوابه من خشب وسعف النخيل، وكانت درجة حرارته صيفا منخفضة وتقل درجة برودته في فصل الشتاء[1]، ومع ذلك استطاع التواتيون التأقلم مع قسوة الصّحراء وكيّفوا أنفسهم مع طبيعتها ومناخها. وتعصف بالإقليم رياح جنوبية تسمى بـــ "الشهلي" وتعرف محليا باسم"أريفي"، وكانت تسبب في حدوث الزوابع الرملية[2]، ممّا كان يؤدي إلى إتلاف الزرع وتساقط الحبوب. ووجد الصّحراوي حلا في إيقاف الزوابع، وذلك عن طريق بناء السّياج أو أفراك.

5- إقليم توات تاريخيا:

جاء وصف وذكر أهمية الإقليم التواتي في المصادر الجغرافية والتاريخية وكتب الرحالة، فخصّص ابن بطوطة في رحلته بعض الصفحات للتعريف بمقاطعة بودة حيث قال: "وقصدت السفر إلى توات...ثم وصلنا بودا وهي من أكبر قرى توات، وأرضها رمال وسباخ، وتّمرها كثير وليس بطيب، لكن أهلها يفضلونه على تّمر سجلماسة، ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت، وإنّما يجلب لها ذلك من بلاد المغرب"[3]. والواقع أنّ التّمور التواتية ذات نوعية جيّدة، يتهافت عليها تجار الشمال والسودان[4]، والنخل لا يعطي مردودا كاملا من التّمر إلاّ مرة كل سنتين أو ثلاث سنوات، وتنضج التّمور الجيّدة في بداية الموسم وآخره، والظاهر أنّ ابن بطوطة زار توات خلال موسم كان فيه التّمر غير جيّد.

---

[1]- أحمد الحمدي، المرجع السابق، ص: 10.

[2]- الصديق الحاج أحمد، المرجع السابق، ص: 37.

[3]- ابن بطوطة، المصدر السابق، ج: 2، ص ص: 801- 802.

[4]- **السودان:** هو إقليم شاسع وواسع، يضم إمارات عديدة منها مملكة ولاتة، وغينيا، ومالي، وتمبكتو، وكبرة، وكاغو، وكوبر، وكانو، وزكزك، وأغدس، وكاتسينا، وبورنو، وكاكاو، وونكري، وزنفري. الحسن الوزان، المصدر السابق، ج: 2، ص ص: 159- 179.

وعدّد ابن خلدون قصور توات بمائتين، وكلها رقاب السفر إلى بلاد السودان حيث يقول: "وطن توات به قصور عديدة تناهز المائتين آخذة من الغرب إلى الشرق، وآخرها من جانب الشرق يسمى تمنطيط، وهو بلد مستبحر العمران، وهو ركاب التجار المترددين من الغرب إلى بلاد مالي من السودان"[1]. وقال أيضا أنّ قصور توات وتمنطيط وتسبيت وتيكورارين هي "رقاب السفر إلى السودان"[2]. كما أخبرنا عن زرع أهل توات الّذي يتمثل في التّمر والفواكه فقال: "واتخذوا بها الجنات من النخيل والأعناب وسائر الفواكه"[3].

وتطرق إلى الحديث عن مقاطعة بودة كونها الطريق المؤدي إلى بلاد السودان: "ولقد كانت بلد بودى وهي أعلى تلك القصور بناحية المغرب من ناحية السوس هي الركاب إلى والاتن، الثغر الأخير من أعمال مالي، ثم أهملت لما صارت الأعراب من بادية السوس يغيرون على سابلتها ويعترضون رفاقها، فتركوا تلك ونهجوا الطريق إلى بلد السودان من أعلى تمنطيط"[4]. وتحدث عن القبائل البربرية والعربية الّتي سكنت الإقليم، وسنتطرق إلى ذلك في الفصل الأول، وذكر طريقة حفر الفقارة واستخراج مياهها الجوفية، وسنترك الحديث عن هذا إلى الفصل الثاني في كيفية حفر الفقارة وطريقة تقسيم مياهها.

ووصف الحسن الوزان كل من مقاطعة تسابيت وإقليم تيكورارين لكنه لم يتطرق في مؤلفه إلى توات الوسطى وذكر أهم مدنها[5]. وذكر العياشي في رحلته أنّ توات بها أنواع كثيرة من التّمر رخيصة الثمن، وأنّ جل سكانها من العامة حيث قال: "ودخلنا أول عمالة توات وهي قرى تسابيت، وزرنا بأول قرية منها قبر الولي الصالح سيدي محمد بن صالح المعروف بعريان الرأس، وأقمنا بها ستة أيام وبعنا بها خيلنا وما ضعف من إبلنا، واشترينا ما نحتاج إليه من التّمر، وبها من التّمر

---

[1]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج: 7، ص: 68.
[2]- المصدر نفسه، ج: 6، ص: 72.
[3]- المصدر نفسه، ج: 7، ص: 68.
[4]- المصدر نفسه، ص: 68.
[5]- الوزان، المصدر السابق، ج: 2، ص ص: 133-143.

أنواع كثيرة، ووجدنا التّمر فيها رخيصا، ولم نلق هناك أحد ينتسب إلى ولاية أو صلاح ولا من أهل العلم والفلاح، وغالب أهلها عوام أهل تجارة جل عيشهم التّمر"[1].

والراجح أنّ توات لم تكن تخلو من العلماء والفقهاء، لأنّ هذه الفئة في المجتمع تشكل نسبة قليلة مقارنة مع العامة التّي تمثل غالبية السكان، كما أنّ العياشي لم يزر كل مقاطعات توات، فاقتصرت زيارته على تسابيت إحدى مقاطعات القورارة، وتميزت توات عنها بوفرة أهل العلم والصلاح، بينما كانت الأخرى خلوا من ذلك، وكان قد صرح المولى سليمان بذلك في خطابه الموجه إلى أعيان ووجهاء توات[2].

واهتم المؤرخون التواتيون بإقليمهم فكتبوا عن أهمية المنطقة جغرافيا واقتصاديا، وتطرقوا إلى وصفه وذكر مناقب العلماء. فجاء في كتاب "درّة الأقلام" لمحمد بن عبد الكريم البكراوي: "أنّ توات هي صحراء في أعلى المغرب ذات نخيل وأشجار وعيون، بينها وبين سجلماسة ثلاثة عشر يوما جوفا، وغربا عشرون يوما لأول السودان، ومن غدامس عشرون يوما، ومن بلاد الزاب عشرة أيام شرقا، ومن ناحية أولاد سيدي عيسى مقدار أسبوع إسراعا لبلد الأبيض سيدي الشيخ، وعدّد قصورها في القرن الحادي عشر مائتا قصرا، أوسطهما بودة وتيمي وتمنطيط"[3].

وأعطى المؤرخ مولاي أحمد الإدريسي الطاهري في مؤلفه "نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات" لمحة وجيزة عن جغرافية ومناخ المنطقة، كما ذكر أهم ما كان يزرع بالإقليم، وتطرق إلى كيفية استخراج المياه الباطنية. حيث قال: "توات أرض سباخ كثيرة الرمال والرياح، لا يحيط بها جبال ولا أشجار، شّديدة الحرارة المفرطة، لا يكاد ينبت فيها إلاّ النخيل وبعض الأشجار القليلة لفرط

---

[1]- العياشي، المصدر السابق، ج:1، ص: 20.
[2]- الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية، ص: 93.
[3]- الصديق حاج أحمد، المرجع السابق، ص: 33.

حرارتها، والماء فيستخرجونه من باطن الأرض بالفقاقير، بواسطة الآبار بكيفية عجيبة، ويقسمونه على الحقول بكيفية أعجب من ذلك"[1].

وخصّص محمد الطيب في كتابه "القول البسيط في أخبار تمنطيط" بعض الصفحات للتعريف بالمنطقة وذكر عدد قصورها وفقاراتها، وأشّاد بكرم أهلها. فقال عن تمنطيط[2]: "إنّها قاعدة اجتمع فيها العلم والإمارة والدّيانة والرئاسة، وانتصب بها الأسواق والصنائع والتجارات والبضائع، وكاد لا يستغني عنها غني ولا زاهد لما فيها من الدّين والبركات والمنافع والحاجات، فهي مورد الركبان ومحشر العربان ورئيسة البلدان...ويقال بها ثلاثمائة وستة وستون فقارة، منها ما هو جار الآن ومنها ما هو معطل، قيل وقصور عددها كذلك ثلاثمائة وستة وستون قصرا، يستضيف فيها الضيف سنة كل يوم في قصر"[3].

كما ذكرها كل من الرحالة ابن الدين الأغواطي المتوفي في القرن الثالث عشر الهجري أي التاسع عشر الميلادي، والّذي زار مناطق عديدة داخل الوطن وخارجه[4]. والرّحالة الألماني جيرهارد رولف(Gerhaud Rolf) الّذي زارها سنة 1281هـ/1864م، ومارتن صاحب كتابين "الواحات الصّحراوية" و"أربعة قرون من التاريخ المغربي". ومن علماء المنطقة ورجالها المعروفين ذكرها كل من الشيخ مولاي أحمد بن هاشم المتوفي في القرن الثاني عشر الهجري أي الثامن عشر الميلادي، والشيخ سيدي عبد القادر بن عمر المتوفي سنة 1121هـ/1709م، وسيدي عبد الرحمن باعومر التنلاني المتوفي سنة 1189هـ/1775م، والشيخ محمد بن عبد

---

[1]- الصديق حاج أحمد، المرجع السابق، ص: 33.

[2]- **تمنطيط:** اسم أعجمي مركب من اسمين وهما "اتما" "وتط"، ومعنى الأولى النهاية والثانية العين، فتركب الاسمان وحذف الألف في آخر اتما وفي أول اتط، ثم قلبت التاء اتمنطيط بإشباع ياء فأصبحت تمنطيط. وجاء في تقايد خطية بيد الحاج عبد الرحمن البكراوي أنّ كلمة تمنطيط معناها في اللّغة العربية حاجب العين. وتقع المدينة على بعد 12 كلم من أدرار، ولها منزلة كبيرة عند جميع التواتيين، لما اختصّت به من كثرة أماكن الأولياء. ينظر: محمد الطيب، المصدر السابق، ص: 15. الصديق حاج أحمد، المرجع السابق، ص: 75.

[3]- محمد الطيب، المصدر السابق، ص: 33.

[4]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986م، ص ص: 256- 258.

القادر، والشيخ سيدي أحمد النحوي صاحب كتاب "لذائذ الأقوات في من حضر وعبر بأرض توات"[1].

6- إقليم توات سياسيا:

بسط الأتراك العثمانيون سيطرتهم على الشمال الجزائري وعلى بعض المناطق بالصّحراء الكبرى، ولم يلحقوا إقليم توات إلى إيالتهم. واستطاعت الدولة السعدية التي قامت على أنقاض دولة بني وطاس خلال القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي بتوحيد المغرب الأقصى تحت سلطتها، فوجهت أنظارها صوب إقليم توات وأرادت إلحاقه إلى نفوذها. واهتم السعديون بالإقليم لوقوعه على طرق القوافل التجارية المتجهة من الشمال نحو بلاد السودان الغربي، ومن هذا الإقليم الأخير نحو الشمال إلى الجزائر والمغرب وتونس وليبيا، كما أنّه منطقة عبور هامة، وملتقى القوافل التجارية، ومركز للتبادل التجاري[2].

وكانت أولى الحملات السعدية على الواحات سنة 960هـ/1552م، ووجهها مولاي زيدان وأخوه الناصر، وهما أبناء السلطان أحمد الأعرج، وباءت الحملة بالفشل، بحيث تمكن أهل توات إلحاق الهزيمة بهما في كبرتن. ولم يقف الأتراك مكتوفي الأيدي تجاه التدخل السعدي في الإقليم، فوجّهوا حملة بقيادة حاكم الجزائر صالح باي في تجاه الجنوب إلى تقرت وورقلة لتثبيت تبعيتهما. وورقلة من المدن الرئيسة الّتي كانت لها علاقة مع إقليم توات، بحيث كانت تتحكم في الحركة التجارية المتجهة من الشمال وتونس نحو السودان، كما أنّ شيخ تمنطيط عمر بن محمد بن عمر بن عبد الرحمن كان من أقارب سلطان ورقلة، ممّا كان يوطد العلاقة بين الإقليمين الصّحراويين[3].

---

[1]- أحمد أبّا الصّافي جعفري، رجال في الذاكرة محمد بن أب المزمري 1160هـ. الجزائر: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط: 1، 2004م، ص ص: 29- 30.

[2]- محمـد بـاي بلعالم، الرّحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات. الجزائر: دار الهومة، 2005م، ج: 1، ص ص: 45- 46.

[3]- المرجع نفسه، ض: 53.

ووجّهت الحملة الثانية من قبل محمد الشيخ المهدي سنة 965هـ/1557م، وكان مصيرها أيضا الفشل. وكان موقف حكام الجزائر من هذه الحملة أن بعثوا قوة عسكرية قضت على الحملة، فأسرع محمد الشيخ بعد ذلك بالتراجع[1]. وهنا توقفت الحملات السعدية نتيجة الاضطرابات الداخلية والخارجية التى عرفتها الدولة. ولما تولى المنصور[2] السعدي السلطة قضى على الفتن التي كانت تتربص بدولته، وألحق الهزيمة النكراء بالبرتغاليين في معركة واد المخازن[3].

وبزوال الخطر الخارجي الذي كان يهدد الدولة في عقر دارها، وجه المنصور حملة مؤلفة من قبائل تافيلالت سنة 986هـ/1578م وتمكنت من إلحاق أضرار كبيرة بالإقليم، حيث قتل حوالي 1300 من الأهالي وسبي النساء والأطفال. وبعودة الحملة إلى المغرب استنجد السكان بداي الجزائر، فسيّر فيلقا من الأتراك في العام الموالي للقيام بعملية استطلاعية في الواحات، ليعود أدراجه نحو الشمال دون أن يخلف وراءه أحدا، وهذا يؤكد اهتمام حكام الجزائر بما يجري في توات[4].

ولم يكتف المنصور بما حققه من نصر في حملته الأولى، بل وجه حملة أخرى كبيرة أوكل قيادتها لأبي عبد الله محمد بن البركة وأحمد بن الحداد العمري المعقلي وكانت سنة 990هـ/1582م، ودافع الأهالي خلال هذه الحملة عن إقليمهم رغم عدم تكافؤ القوى بين الطرفين، وانتهت المعركة بإذعان الأهالي للطاعة بعد أن نهب وسلب الإقليم[5]، وتبع بعد ذلك لسيطرة ونفوذ السعديين. وزار توات خلال هذه السنة باي طرابلس مصحوبا بعشرة علماء، ناظروا علماء توات وأقاموا بالإقليم إلى

1- محمد باي بلعالم، الرحلة العلية، ج: 1، ص: 54.

2- **المنصور السعدي:** ينظر ترجمته في: الناصري، المصدر السابق، ج: 5، ص ص: 89- 92.

3- **وقعة المخازن:** وقعت في بلاط الهبط بين الجيش السعدي والبرتغالي الذي قدر عدده بمائة ألف وخمسة وعشرون، واستنجد أمير الحملة محمد بأمير النصارى سبستيان، فاشترط عليه هذا الأخير أن يترك له سائر سواحل المغرب وهذا مقابل مساعدته. والتقى الجمعان يوم الاثنين من جمادى الأولى سنة 986هـ/1579م، وانهزم جيش البرتغال في المعركة وقتل أميرهم، واستولى بذلك المسلمون على الغنائم. الناصري، المصدر السابق، ج: 5، ص ص: 69- 82.

4- Martin, Quatre Siècles, P: 35.

5- الناصري، المصدر السابق، ج: 5، ص ص: 98، 99.

العام المقبل. كما ورد من فزان العالم عبد اللاّوي بن الطيب سنة 992هـ/1584م، استقر بتيمي والتف حوله الطلبة لأخذ العلم[1].

وبزوال الدولة السعدية قامت دولة الأشراف العلويين لتتجدد الأطماع بإقليم توات من جديد. واهتم السلطان مولاي امحمد بن الشريف بتوات قبل غيرها من مناطق المغرب، فدخلها بجيش كبير ووحّدها بسجلماسة سنة 1055هـ/1645م، وقدم بنفسه وبقي بالإقليم مدة أربعة أشهر، حدّد فيها صرف المثقال من الذهب بتسعة مثاقيل من الفضة. وفي السنوات التي تلت دخوله كان يرسل عدد من القواد إلى مختلف واحاتها، ومنهم القائد علي[2]. وامتنع السكان الخضوع لنفوذ العلويين، لأنّهم محبون للحرية رافضين أي تدخل في شؤونهم الداخلية، ومع أنّ أهالي توات يميلون إلى الوداعة والسلم إلى أنّهم وجدوا أنفسهم مضطرين للدفاع عن أرضهم في وجه الطامعين.

واستطاع المخزن ضم إقليم توات إلى نفوذه، واكتفى بإرغام مشايخ توات على دفع الإتاوات السنوية لبيت المال، والتي قدرت بعشر المحصول من التّمر ومن مياه الفقارات. وكانوا يرسلون الباشا سنويا لجمعها من المقاطعات التواتية، وقدر عشر التّمور سنة 1120هـ/1708 بـ1.309 حملا، أي ما يعادل مثقالين شريفيين، وعشر المياه بواحد ونصف درهم للأصبع، وأسقطت منها مياه المساجد والزوايا والشرفاء[3].

وكانت تدفع بمسحوق الذهب أي التبر، إلاّ إذا لم يوجد الذهب يحدّد قيمتها بسعر يساوي ما بين 3 إلى 6 مثقال من الفضة لكل مثقال ذهب. والنقود التي كانت متداولة رسميا وعمليا هي الدرهم الفضي، ووجدت نماذج كثيرة منه ترجع إلى عصر الموحّدين والمرينيين والسعديين والعلويين، والنقد هو التعبير الحقيقي عن حدود سلّطة الملوك ونفوذهم السياسي[4].

---

[1]- Martin, Quatre Siècles, P: 35.
[2] -Ibid, P: 52.
[3]- Ibid, P: 78.
[4]- أحمد العماري، المرجع السابق، ص: 58.

وتعرضت توات إلى غارات عديدة من قبل الرّحل الذّين عاثوا فسادا بها، ففي سنة 958هـ/1551م غزاها أهل كنتة وقبائل أخرى بجنوب الصّحراء، وفرضوا على تيمي[1] غرامة مائة مثقال. كما غزاها في العام الموالي أولاد بن علي من الأزواد وخيم منهم ألفين وخمسمائة بواد الحناء التواتي، واضطر سكان تيمي وبودة إلى دفع ستمائة مثقال. واستنجد أهالي بودة بأولاد جرار[2] سكان واد الساورة، وأهل تيمي بالمحارزة سكان واد صالح، وأولاد محمد والخنافسة[3] سكان عين صالح، والتقي الفريقان بقصر بوعلي[4]. وقدم أولاد حناش أو الحنانشة[5] سنة 999هـ/1590م من وادي ريغ[6] ونزلوا بسالي واشتبكوا مع البرامكة، كما قدم سنة 1001هـ/1592م أولاد بن عبيد من الشط إلى رّكان وأجبروا القدوية على دفع الضرائب[7].

---

[1]- **تيمي**: من أغنى واحات توات، وفي الأصل كانت تيمي هي توات. وهي تتوفر على مياه غزيرة تستخرج بواسطة الفقارات، يزرع بها النخل والقمح والشّعير والتبغ، وبعض أنواع الذرة خصوصا البشنة، وبعض الفواكه مثل الرمان والعنب. سكانها خليط من العرب والبربر، وفيها عدد كبير من الأسر الشريفة من العلويين والأدارسة. ينظر: التقييد، ص: 7. أحمد العماري، المرجع السابق، ص: 25.

[2]-**أولاد جرار**: من عرب المعقل مثل الشبانات، وهم متفرقون بعضهم في الصّحراء والبعض الآخر في السوس، وهم منتشرون في وادي نون وأفران ورأس الوادي وتيزنيت. الموسوعة المغربية، ص: 48.

[3]- **الخنافسة**: قبيلة عربية ذات شوكة وقوة، كانوا مقيمون بقصورهم المتواجدة في أقصى جنوب القورارة. ومن قصورهم: قصر ابن العابد، وتبرغمن، وقصر الحاج، وتالة، وزاوية سيدي عبد الله، وتنقلين. التقييد، ص: 6.

[4]-Martin, Quatre Siècles, P: 34.

[5]- **الحنانشة**: كانت من أقوى وأغنى القبائل، لم يعترفوا بسلطة العثمانيين، وتحكموا في الطريق الذي كان يصل قسنطينة بتونس. دخلوا في صراع مع أحمد باي آخر بايات بايلك الشرق، وهم ينسبون أنفسهم إلى الأشراف.
Jean Marisot, L'Aures Ou La Mythe De La Montagne Rebeel. Paris: Edition L'Harmattan, 1982, P: 109. Charles Féraud, Les Harar Seigneurs Des Hnancha, Revue Africaine, N:18, 1863, P: 365. Abdel Jalil El Tamimi, Le Beylik De Constantine Et Hadj Ahmed Bey. Publication De La Revue D'Histoire Magribine, Volume: 1, P:140.

[6] - **وادي ريغ**: هي كلمة بربرية تطلق على المنطقة المنخفضة الواقعة في الجنوب الشرقي الجزائري، تبعد عن مركز الحكم الجزائري بحوالي 550 أو 600 كلم، وتمتد على مسافة تقدر بحوالي 130كلم. ووصف ابن خلدون سكان ريغة فقال: "وبنو ريغة فكانوا أجيالا متعددة، ولما افترق أمر زناتة تحيز منهم إلى جبل عياض وما إليه من البسيط إلى نجاوس وأقاموا في قياطينهم، فمن كان بجبل عياض منهم أهل مغارم لأمراء عياض يقبضونها منهم للدولة الغالبة ببجاية، وأما من كان ببسيط نقاوس فهم أقطاع العرب لهذا العهد، ونزل أيضا الكثير منهم ما بين قصور الزاب ووركلا، فاختطوا قرى كثيرة في عدوة وادي ينحدر من المغرب إل المشرق". والقبائل الموجودة في المنطقة ذو بشرة سوداء ولكن دون أن تكون من طبقة الحراثين، ويسمون بالحنانشة ويمتلكون وسائل عمل فلاحية تقليدية. وأهم القبائل المستوطنة في المنطقة نجدها ما بين تقرت وجمعة، ففي الشمال نجد الشراقة، وفي الجنوب أولاد سايح وأولاد سعيد وأولاد عمور. ابن خلدون، المصدر السابق، ج: 7، ص: 52.
Jean Jacques Premas, Structure Agraires Et De Colonisation Des Oasis De L'Oud Rhir. Alger : L'harmattan Office Des Publication Universitaires, Editeur Librairie. Parie : ISBN, 1979, P: 37.

[7]- Martin, Quatre Siècles, P: 34.

وتواصلت الغارات على الإقليم، بحيث هاجمها الرّحل البربر سنة 1070هـ/ 1659م، وفرضوا على أهل القصور الإتاوات، كما نهبوا كل من امتنع عن أداء الجبايات، واسترقوا الأحرار وباعوهم عبيدا في سوق النخاسة. كما تعرضوا لهجوم آخر سنة 1071هـ/1660م، وخربت خلالها عدّة قصور، ولم ينج سكان توات من ذلك إلاّ تكتل قبائل الخنافسة والمحارزة وأولاد محمد، الّذين تعقبوا بالغزاة واستردوا منهم المغانم[1].

واستنجد أهل القصور التواتية سنة 1186هـ/1772م بالسلطان سيدي محمد بن عبد الله[2] ضد قبيلة مكيدن[3]، الّتي كانت تغير على قصور توات باستمرار. فجند السلطان فرقة عسكرية لتأديبها، ودارت بين المخزن وميكدن معركة في زاوية سيدي البكري، ثم كانت معركة أخرى في أولاد محمود، وانهزم عرب مكيدن وفروا إلى أولاد سعيد[4]. ووجه السلطان صالح سيدي محمد إلى توات قوادا أساؤوا التصرف والمعاملة، ومن بينهم الباشا الطاهر، فكانت انطلاقة السلطان انطلاقة سليمة لرد الأمر لنصابه، وذلك بتحكيم القرآن الكريم والسنة الشريفة وبالرجوع إلى تعاليم الشريعة. واتضح من خلال رسالة السلطان المؤرخة في سنة 1172هـ/1759م الفكرة الأساسية الّتي ارتكزت عليها الجباية، وذلك بأنّ لا يتخذ تحديد الجباية واستخلاصها شكلا تعسفيا. ودعا السلطان أيضا أهل توات إلى الامتناع عن أداء ضريبة المياه، وعليهم فقط عشر محصول إنتاجهم من التّمر والشّعير[5].

1- Martin, Quatre Siècles, P P: 55-56.

2- **محمد بن عبد الله:** بايعه أهل فاس سنة 1171هـ/1757م لما رأوا من حسن سياسته وتمام معرفته بإدارة الأمور على وجهها. كان محبا للعلم والعلماء، فرّق المال الكثير والسّلاح والكسوة على العبيد، كما أعطى للفقهاء والأشراف وطلبة العلم وأهل المدارس والأئمة والمؤذنين والفقراء والمساكين. قام ببناء الصويرة، وتوفي يوم الأحد 24 رجب سنة 1204هـ/ 1789م ينظر: الناصري، المصدر السابق، ج: 5، ص: 3، 20.

3- **مكيدن:** قبيلة عربية في صحراء توات كانت دائما مصدر قلق، تغير على القصور التواتية وتخربها. وعمل المخزن على تأديبها وقمعها في كل مرة، إلاّ أنّ جميع المحاولات كانت تبوء بالفشل، وبعد التضييق عليها اضطرت إلى الفرار إلى أولاد سعيد بإقليم القورارة. ينظر: الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية، ص: 354.

4- Martin, Op.Cit, P: 98.

5- Ibid, P: 97.

وأكد المولى سليمان[1] في رسالته الموجهة إلى أهل توات والمؤرخة في 22 صفر 1215هـ/5 جويلية 1800م بعد عزل قائده محمد بن الحاج العباس الّذي أساء التصرف بالإقليم، على ضرورة محاربة كل من يسيء التصرف مع الفقراء، نظرا لكون جميع القواد كانوا مفسدين ظالمين للفقراء، يفتقدون للشعور بمفهوم الحلال والحرام، كلما وجدوا أنفسهم في بلد بعيد كتوات، حيث يقاسي معظم سكانه من العامة ذوي الموارد المتواضعة مرارة تعسفات جيرانهم من الصّحراويين الرّحل[2].

وكان يتم سنويا تلبية لطلب أهل توات إرسال أحد كتاب السلطان من بين المعروفين بالعناية والعطف على الرعايا، مع تعزيز الكتاب بجماعة من الرجال النزهاء الأتقياء، ليعملوا على جباية الأعشار والزكوات، وتوزيعها على العجزة والفقراء وأهل الزوايا الّذين لا يملكون ما يستوجب حق الزكاة. ويعفى الفقراء من الجباية لأسباب العوز، كما يعفى الشرفاء والمرابطين من أهل الاستقامة والتقوى. وبذلك جبت الأعشار بكيفية منتظمة في نطاق العدالة وشعور الصّحراويين بالحرية والمسؤولية[3].

ولم يتردد السلطان عبد الرحمن[4] في توجيه اللّوم والتعنيف لدعاة الفتنة، كما دعا رعاياه الصّحراويين بالقورارة وتوات وتيدكلت إلى ضرورة التوحّد لمواجهة الغزاة المفسدين، وكتب في سنة 1248هـ/1833م رسالة يؤكد فيها أنّ الصّحراويين يعدّون من رعاياه[5]. وترك العلويون لأعيان ووجهاء توات حرية تسيير شؤونهم السياسية والإدارية دون تدخل منهم. وكان يتم إرسال طلب البيعة من الأعيان الّذين

---

[1]- **سليمان(ت1238هـ/1822م):** هو سليمان بن سيدي محمد، بويع يوم الاثنين17 رجب من عام 1206هـ/ 1791م. كان من أهل العلم والدّين، أجرى الخلافة على قوانينها بإقامة العدل والرفق بالرعية والضعفاء والمساكين. توفي يوم 13 ربيع الأول سنة 1238هـ/1822م، دفن بضريح جده المولى علي الشريف بباب إيلان بمراكش. ينظر: الناصري، المصدر السابق، ج: 8، ص ص: 87- 166.

[2]- Martin, Quatre Siècles, P: 118.

[3]- Ibid, P: 118.

[4]- **عبد الرحمن بن هشام(ت1276هـ/1859م):** بويع بعد وفاة عمه سليمان سنة 1238هـ/1822م، استبشر أهل المغرب بولايته لأنّه كان عادلا وتقيا. قام ببناء ما تهدم من مرسى طنجة، وجدّد الحرم الإدريسي بفاس، كما جدّد جامع المنصور بالقصبة. الناصري، المصدر السابق، ج: 9، ص ص :77- 89.

[5]- Martin, Op.Cit, P: 153.

لم يكونوا يتردّدون في تحريرها. فلما تولى السلطان مولاي عبد الملك عقد له أهل توات البيعة ثم عزل وولى مكانه عبد الله، وما كاد يصل الخبر إلى توات حتى سارع الرؤساء والوجهاء إلى بيعته، واتجه الوفد إلى فاس وأحسن السلطان استقباله، وجهز فرسانهم بالسلاح واللباس، ورافق معهم في العودة عشرين فارسا بإمرة القائد باحمو علي وعينه عاملا على توات[1].

وأقام القائد الجديد مدة بتيميمون قبل أن يمر بمقاطعة تيمي ثم باقي مقاطعات توات وتيدكلت، ليصل سنة 1132هـ/1729م إلى عيون صالح، فبلغه سطو أهل التوارق[2] على القوافل الصّحراوية الّتي كانت متجهة إلى بلاد السودان، فهبّ للاقتصاص منهم وهزمهم، ونقل أعيانهم إلى تيمي حيث حرروا البيعة للسلطان الجديد وأعلنوا الطاعة والانصياع[3]. وظلت توات تابعة للأشراف العلويين لغاية احتلالها من قبل فرنسا سنة 1318هـ/1900م[4].

7- إقليم توات إداريا:

يضم الإقليم عشر مقاطعات[5] رئيسة وهي: بودة، وتيمي، وتمنطيط، وبوفادي، وفنغيل، وتامست، وزاوية كنتة، وسالي، وأنزجمير، والرّكان[6]. وكل مقاطعة تحتوي على مجموعة من القصور والواحات. وأولى المقاطعات الّتي كانت تواجه الخارج من إقليم القورارة إلى توات بودة ومن قصورها: القصبة، وغمارة،

---

[1]- Martin, Quatre Siècles, P: 89.

[2]- **التوارق**: يقطنون بجبال الهقار فسموا بقبائل الهقار، وجبال الهقار سلسة شاهقة تقع حاليا على الحدود بين الجزائر ومالي، ينموا بها شجر تدبغ بها الجلود ويسميه التوارق بالهقار فسميت الجبال باسمه. وأهم قبائلهم كيل اغلا وهي قسم من قبيلة الأغلال المتواجدة في موريطانيا والنيجر، وتيطوق، وكل اعزي، وتاغلت مات ومعناها أهل العنز البيضاء. عاصمتهم تمنغست جنوب الجزائر، وتعاونت هذه القبائل مع فرنسا على احتلال المنطقة بقيادة سلطانها موسى أق أما سطان. وهم أناس أشداء، يستعملون الإبل للركوب، وطعامهم اللّحم والحليب، ولا يغرسون الحبوب إطلاقا. أما لباسهم فهو الساي القطني الأسود، وهم يثلثمون بلثام من القطن، ولا يأكلون ويشربون بحضور الناس. وكانوا يقومون بغزوات ليعودوا بعدها بالعبيد وغيرها من البضائع. أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج: 2، ص: 262. محمد سليمان الطيب، المرجع السابق، ص: 106.

[3]- Martin, Op.Cit, P: 90.

[4]- Berger- Levraulte, La Conférence D'Algésiras. Paris: 1906, P: 135.

[5] - ينظر الملحق رقم: 9، ص: 170. للإطلاع على مقاطعات الأقاليم الثلاثة لتوات.

[6]- اعتمدنا في هذا التقسيم الإداري على كناش التقييد الّذي عثر عليه في الخزانة الملكية بالرباط سنة 1962م.

وأولاد يعيش، والغماريين، وأبار، وأولاد نجل، وابن دراع[1]، وزاوية بن يلي، وودرار، وبني وزال، وغرام علي[2]، والزاوية، والمنصور.

وبعد قصور بودة تأتي تيمي، وهي قلب الإقليم وأكبر مقاطعاته، وتعتبر مدينة أدرار[3] عاصمة الإقليم ومركزه، بعدما كانت تحتل هذه الصلاحيات مدينة تمنطيط. وقد عيّن السلطان المغربي الحسن الأول الشيخ حسون بن الحاج محمد قائدا على تيمي والقصور سنة 1309هـ/1892م[4]. ومن قصور تيمي: تنلان[5]، ووينة، وبوزان، وملوكة[6]، وكوسام[7]، وباريع سيدي المهدي، وباريع سيدي التاقي، وباريع أولاد سيدي أحمد، وباريع المرابطين، وزاوية كرزاز، وباريع أبا أزور، وأقديم، وعرك كرارة، وأدغاغ، وأولاد انقال[8]، وأولاد أوشن، وأولاد علي، وأولاد أحمد،

---

[1]- **بن دراعو:** أطلق هذا الاسم نسبة إلى بلاد درعة بالجنوب المغربي، وهي من أعمال مدينة مراكش، وكان قد قدم يهود درعة من عامر ودرعاوي للاستقرار بتوات فسمي القصر باسمهم. ينظر:
Jacob Oliel, Les Juifs Au Sahara. Le Touat Au Moyen Age. Paris : CNRS Edition, 1994, P : 142.

[2]- **غرام علي أوغر معلي:** قصر قديم كان يقيم به اليهود، وقد تعرض للتخريب والتدمير. Ibid, P: 142

[3]- **أدرار:** كلمة بربرية معناها الجبل، ويطلق هذا الاسم على عدد من المناطق الجبلية في الصّحراء، وهي هضبة كبيرة قليلة الارتفاع مقسمة إلى قسمين، بواسطة وادي عريض كبير ومنه تتفرع عدة أودية. وتوجد أدرار على بعد 650 كلم جنوبي شرق بشار، وهي منطلق القوافل التجارية نحو السودان، تحمل إليه المنتجات الزراعية من التّمر والتبغ. وتعتبر قاعدة المقاطعة ونقطة عسكرية تتحكم في طرق المواصلات التي تربط الشمال بالجنوب. التقييد، ص: 7، هـ: 2. الموسوعة المغربية، ص:34. Martin, Quatre Siècles, P : 8. Le Chatelier, Op.Cit, P: 246.

[4]- الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية، ص: 75.

[5]- **تنلان:** تقع شمال مدينة أدرار، وتبعد عن مقر الولاية بـ 2 كلم، أسسها الشيخ سيدي أحمد بن يوسف التنلاني عام 1058هـ/1648م، وبها زاويته المشهورة "رزق الله الواسع لعباده النافع"، وتنلان القديمة ليست هي تنلان الحديثة، فالأولى اندثرت وتفرق سكانها اثر هجمات وغزوات الرّحل عليها. ينظر: عبد العزيز سيدي عمر، قطف الزهرات من أخبار علماء توات. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985م، ص: 46. الصديق حاج أحمد، المرجع السابق، ص: 85.

[6]- **ملوكة:** تقع غرب مدينة تمنطيط وتبعد عنها بـ 5 كلم، برزت في منتصف القرن 12هـ/18م، فأصبحت مركز علمي وحضاري، ومن أشهر علمائها الفقيه القاضي صاحب نوازل الغنية محمد بن عبد الرحمن البلبالي وابنه عبد العزيز، ويحتوي قصر ملوكة على مكتبة عظيمة. فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 15. الصديق حاج أحمد، المرجع السابق، ص: 101.

[7]- **كوسام:** سطع نجمها مع نهاية القرن 13هـ/19م، فأصبحت مركز حضاري بفضل الشيخ سيدي عبد الله بن أحمد الحبيب البلبالي المولود بملوكة سنة 1250هـ/1834م، والمتولي للقضاء سنة 1328هـ/1919م. المرجع نفسه، ص: 93.

[8]- **أولاد انقال:** يقع جنوب أدرار، واشتهر هذا المركز بفضل الشيخ سيدي محمد بن عبد الله الأدغاغي الونقالي (1140-1175هـ/1727- 1761م). المرجع نفسه، ص: 112.

وبردان، وأولاد إبراهيم، وبني تامر[1]، والمنصورية، وأقبور، وأولاد بوحفص، ومهدية، وأولاد عمور، وأولاد عيسى، وأولاد عرسة[2]، وزاوية سيدي البكري[3]، وباعبد الله.

ونجد مدينة تمنطيط بجنوب شرق سبخة تيمي، وهي من مدن توات المقدسة، اجتمع فيها العلم والإمارة والرئاسة. واثر الصراع الناشب بين القبائل العربية من أولاد يحي وأولاد نسلام وأولاد أحمد، انتقلت العاصمة إلى تيمي في نهاية القرن الحادي عشر الهجري أي السابع عشر الميلادي. ومن قصورها: قصبة أولاد الحاج المأمون، وانكير، وبالحاج.

وتوجد امقيد وواحات بوفادي غرب تمنطيط[4]، وقصورها كالتالي: توكي، والقصر الكبير، وبنكور[5]، ونمناس.

وتلي بوفادي قصور فنغيل[6] وهي: تاسفة، واعباني، والعلوشة، وودغة، وبنهمي، وعزي، والمنصور، ومكرة[7]، وقصبة أولاد مولاي الحسن، وأولاد برشيد، وقصبة الأحرار، وقصبة أولاد مولاي بوفارس، وزاوية سيدي عبد القادر، وسيدي يوسف. وأمّا مقاطعة تامست[8] فهي تضم: قصر باعمر، وقصر أولاد

---

[1]- **بني تامر:** يقع شرق مدينة تيمي، وأسّس هذا القصر سنة 902هـ/1496م من قبل سكان قصر أقبور.
Martin, Les Oasis Sahariennes, P: 125.

[2]- **أولاد عرسة:** من أقدم قصور تيمي، أسّس من قبل أحد أحفاد سيدي أحمد العروسي.
Selka. Abderrahmane, Notice Sur Le Touat. Bulletin De La Société De Géographie D'Alger Et De L'Afrique Du Nord, 3ème Trimestre, 1922, N: 90, P: 535.

[3]- **زاوية سيدي البكري:** تقع في الناحية الشرقية لتيمي، سطع نجمها بفضل الشيخ سيدي محمد بن البكري بن عبد الكريم مؤسّس الزاوية البكرية، وسكان الزاوية من الأشراف الأدارسة. الصديق حاج أحمد، المرجع السابق، ص: 106.

[4]- **بوفادي:** وهي عبارة عن قرى واقعة جنوب غرب تمنطيط. التقييد، ص: 8.

[5]- **قصور توكي والكبير وبنكور:** أقام بها أحفاد أولاد الحاج، وأصلهم من منطقة ملوية، سكن أجدادهم أول الأمر بوادي ميقدن وأولف، ثم انتقلوا إلى منطقة بوفادي. ينظر: Selka, Op.Cit, P : 361.

[6]- **فنغيل:** قصور تقع جنوب تمنطيط. التقييد، ص: 8.

[7]- **مكرة:** قصر قديم هجم عليه قبيلة عريب من العرب سنة 1016هـ/1607م، وخربوا واحات كثيرة بتاسفوت بتيمي منها ودغاغ وعزي. الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية، ص: 202.

[8]- **تامست:** من قصور المنطقة الوسطى في إقليم توات. التقييد، ص: 8.

بويحي الفوقانية، وقصر أولاد بويحي السفلانية [1]، وقصر الجديد، وأولاد عنتر، وتمالت [2]، والأحمر، واكيس[3]، وتمسخت(تمزغت)، وأغيل، وأدرار، وتيطاف.

وتضم مقاطعة سالي[4] قصور: الزوا، وبوانكي، وأعرملال. أما مقاطعة أنزجمير[5] فتضم زاوية بلال، وتدماين، والخلفي، وتطوان، والخرّاس، وتيلوين، وتبنورت، وأولاد باح، وأنزكلوف، وتمدنين، وأبريش، وزاوية محشّف.

ومن قصور مقاطعة أولاد سيدي حم بن الحاج،: غزماين، وتوريرن، والبيض، وزاقلو[6]، وأولاد الحاج، والبرج، وزاوية كنته، وتبركانت، وتخفيفت[7]، والمناصر، وتزلت، وزاوية سيدي بن عبد الكريم، وبوعلي، وتطوان الشرفاء، ومكير، والمحفوظ، وأدمر. وآخر قصور توات هي الرّكان، ومن قصورها: آيت مسعود، وتنولفات، وتعرابت، وأنتهت، وتاوريرت.

1- **قصور باعمور وأولاد بويحي الفقانية والسفلانية:** كان يسكنها عرب جاءوا من الساحل، وقبل أن يتمركزوا بتامست كانوا بميقدن. ينظر: Selka, Op.Cit, P:541.

2- **أولاد عنتر وتمالت:** يقيم بها الشرفاء العلويون. ينظر: Ibid, P: 51.

3- **كيس أو أكيس:** ينتسب سكانه إلى العباس بن عبد المطلب، ويطلق عليهم اسم بوتدارة، وخرب القصر من قبل عريب عام 1281هـ/1864م. ينظر: Jacob, Op.Cit, P: 146. Selka, Op.Cit, PP: 541-542

4- **سالي:** تقع جنوب أدرار، وتبلغ مساحتها حوالي 16683 كيلومتر مربع (في القرن العشرين) . الصديق حاج أحمد، المرجع السابق، ص: 130.

5- **أنزجمير:** تقع جنوب أدرار، وتبلغ مساحتها حوالي 5690 كيلو متر مربع(في القرن العشرين). المرجع نفسه، ص: 123.

6- **زقلو:** يوجد بمقاطعة زاوية كنته، ويسكنها العرب الذين جاءوا من الساحل، وهناك زقلو العرب وزقلو المرابطين والتي يسكنها المرابطين أحفاد سيدي بن حنيني. Selka, Op.Cit, P: 543.

7- **تخفيفت:** توجد بمقاطعة أولاد سيدي حم بن الحاج(مقاطعة زاوية كنته)، كان يقيم بها اليهود ثم انتقلوا إلى تمزغت إحدى قصور تامست، وهي من أقدم المراكز اليهودية وبجانبه يتواجد تزلت، وهي أنقاض مركز يهودي بربري عتيق. ينظر: الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية، ص: 61.

الفصل الأول

البنية الاجتماعية لإقليم توات

1- عناصر السكان

2- الطبقات الاجتماعية

3- العلاقات الاجتماعية

I - المبحث الأول: عناصر السكان

يتكون المجتمع التواتي من البربر والعرب والعبيد والحراثين واليهود. وأول من انتقل إلى الواحات التواتية القبائل الزناتية التي لعبت دورا كبيرا في المبادلات التجارية مع بلاد السودان، وكان البربر أهل قوة وعدد إلى أن قدم العرب فانتزعوا الزعامة والسلطة منهم وتفوقوا عليهم بكثرة عددهم. وتشكلت فئة الحراثين من العبيد، وهم أولاد الأحرار من الجواري يشرفون على كل الأعمال والأشغال من زراعة الأراضي وحفر الفقارات. ويجلب العبيد من بلاد السودان الغربي للقيام بكل الأعمال الوضيعة التي يأبى الأشراف والأحرار مزاولتها. وارتبط وجود اليهود بالإقليم بغرض التجارة مع السودان، وكانوا في حماية القبائل العربية التي كانت تمنع عنهم المظالم.

1- البربر:

أ- الزناتيون:

أول من قطن بإقليم توات من البربر[1] قبائل زناتة[2]، وذلك قبل دخول الإسلام بسنوات طويلة، وكانت ديانتهم اليهودية والمسيحية. وبعد عملية الفتح التي استهدفت بلاد المغرب أجبر الفاتح عقبة بن نافع سنة 62هـ/681م فلول البربر على اعتناق الدّين الإسلامي، فتحصن له البربر والروم لمقاومته، فقاتلهم قتالا شديدا وبدّد

---

[1]- **البربر**: هم السكان الأصليون لبلاد المغرب، ينقسمون إلى بتر وبرانس، فأما البتر فهم سلالة مادغيس الأبتر، يعيشون وفق أنماط الحياة البدوية من النجعة، وسكن الخيام، وكسب الأنعام، والميل إلى قطع السابلة والإغارة على مراكز العمران، والاعتصام بالأماكن المنعزلة والبعيدة عن متناول السلطة. ومن أشهر قبائل البتر: زناتة ولواته ونفزاوة. والبرانس هم سكان الهضاب والسهول والمدن، يرتبون معيشتهم على الزراعة في الهضاب والسهول، والصناعة في المدن. ومن أشهر قبائل البرانس: صنهاجة وأوربة ومصمودة. ينظر: ابن خلدون، المصدر السابق، ج: 6، ص: 8. محمد سليمان الطيب، المرجع السابق، مج: 1، ج: 2، ص: 1046.

[2]- **زناتة**: هذا الجيل في المغرب قديم العهد وموطنهم في سائر مواطن البربر بإفريقية والمغرب، والأكثر منهم في المغرب الأوسط حتى أنّه ينسب إليهم ويعرف بهم فيقال وطن زناته، وهم آخذون من شعائر العرب في سكن الخيام، واتخاذ الإبل وركوب الخيل. وكانت ديارهم من طرابلس إلى جبل الأوراس والزاب إلى قبلة تلمسان ثم إلى وادي ملوية. وكانت الكثرة والرياسة فيهم قبل الإسلام لجراورة ثم لمغراوة وبني يفرن. ابن خلدون، المصدر السابق، ج: 7، ص ص:3- 10.

شملهم، ثم سار إلى المغرب وتقدم إلى التخوم حتى بلغ المحيط الأطلسي[1]، وفرت جموع زناته خوفا منه إلى الواحات الصّحراوية واستقرت بها، ولما وجدوا إقليم توات مكانا غنيا بالمياه والمراعي الصالحة للرّعي مكثوا به[2].

واتجه الفاتح عقبة سنة 63هـ/682م نحو بلاد الصّحراء لإجبار أهلها على الدخول في الإسلام[3]، وفي هذه المرحلة من الفتح دخل الإسلام إلى توات. وكان البربر يسلمون ثم يرتدون بعد رجوع الفاتح[4]، واستمروا على هذا الحال إلى غاية إتمام الفتح على عهد حسان بن نعمان[5]، وزاد تمسكهم بالإسلام بعد فتح الأندلس سنة 92هـ/710م. ولما بسط القائد موسى بن نصير سيطرته على المغرب والصّحراء، بلغ نفوذ ابنه عبد الرحمن إلى الواحات الصّحراوية من بلاد درعه، وواد الساورة وتوات وتيكورارين[6].

واستقرت القبائل الزناتية بإقليم توات كونه ملائما للسكن وبعيدا عن مركز السلطة في الشمال، كما أنّه لم يحدث أن استقروا في غير مجاهل الصّحراء[7]. ومن بين القبائل الزناتية التي اتخذت من إقليم توات مقرا لها هي: بنو مرين[8]، وبنو

1- عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط: 7، 1994م، ج:1، ص: 129.

2- Martin, Les Oasis Sahariennes, P: 53.

3- Ibid, P:54.

4- M.Bellaire, Le Touat Et Les Chorfas D'Ouazzan. Paris: Mémorial Henrie Basset. Librairie Orientaliste Paul Genthenner, T : XVIII, 1928, P: 141.

5- **حسان بن نعمان:** ينظر ترجمته: السّيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب الكبير، دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية. بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1981م، ص ص: 242- 249.

6- Martin, Op.Cit, P: 55.

7- لقبال موسى، البتر والبرانس والمظهر الاجتماعي لسكان بلاد المغرب قبل الإسلام. مجلة الأصالة، س:4، ع: 24، مارس- أبريل 1975م، ص: 162.

8- **بنو مرين:** من القبائل الزناتية التي لم تشأ الخضوع لنفوذ الموحدين، ولهذا آثروا الهجرة إلى الصّحراء جنوبا على الدخول في طاعتهم. وكانت حياة الصّحراء توافقهم لأنّهم من البدو الرّحل، وكانوا يرحلون في فصل الربيع إلى شمال المغرب الأقصى لرعي إبلهم ومواشيهم، فيقضون شهورا من السنة نازلين بين فجيج وملوية حتى إذا اقترب فصل الشتاء رجعوا إلى بلادهم من زاب إفريقية إلى سجلماسة. ورغم أصلهم الزناتي البربري فإنّ المرينيين يرفعون نسبهم إلى النبي- صلى الله عليه وسلم-. ومن أعظم ملوكهم يعقوب بن عبد الحق المريني. ينظر: ابن أبي الزرع علي الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1973م، ص: 297، 313. ابن خلدون، المصدر السابق، ج: 7، ص: 197. الناصري، المصدر السابق، ج: 3، ص: 5.

ومانو[1]، وبنو يالدس، وورتطغير، ومصاب، وبنو عبد الواد[2]. حيث قال: "ومن بطون بني ومانو قبائل بني يالدس ومواطنهم متصلة قبلة المغرب الأقصى والأوسط وراء العرق المحيط بعمرانهم، اختطوا في تلك المواطن القصور والأطم واتخذوا بها الجنات من النخيل والأعناب وسائر الفواكه، فمنها على ثلاث مراحل قبلة سجلماسة وتسمى وطن توات، وفيها قصور تناهز المئتين... ومعهم من سائر قبائل زناتة والبربر مثل ورتطغير ومصاب وبني عبد الواد وبني مرين، وهم أهل عديد وعدّة وبعد عن هضيمة الأحكام وذل المغارم"[3].

واتخذت العديد من القبائل الزناتية الصّحراء ملجأ لها خاصة بعد سقوط دولة بني مدرار بسجلماسة[4]، التي كانت قد بسطت نفوذها على الواحات التواتية وسيطرت على طرق التجارة مع بلاد السودان الغربي[5]، والتي كانت تدر أرباحا طائلة خاصة تجارة الذهب والعبيد.

1- **بنو ومانو:** من أوفر بطون زناتة، كانت مواطنهم بالمغرب الأوسط إلى جهة المشرق عن وادي ميناس في منداس ومراث وما إليها من أسافل شلف. وكانت مغرراوة وبني يفرن متقدمين عليهم في الكثرة والقوة، وهم من أشياع الناصر بن علناس الحمادي، ومن بطونهم بني يالدس. ابن خلدون، المصدر السابق، ج: 6، ص: 66.

2- **بنو عبد الواد:** وهم فخذان أحدهما بن عبد الواد وبهذا الاسم عرف الجميع تغليبا، وأصله عابد الوادي، عرف بها جدهم من ولد سجيح بن واسين بن يصليتن بن مسري بن زكيا بن ورسيج بن مادغيس الأبتر. ولما فتح الموحدون هذه البلاد كان بنو عبد الواد عونا لهم على ذلك، فنالوا ثقة الموحدين وحصلوا منهم على إقطاعات وفيرة بأحواز تلمسان فاستقروا فيها منذ ذلك الوقت. وعرفت دولة بني عبد الواد بدولة بني يغمراسن باعتباره أول ملوكها، وبدولة بني زيان نسبة إلى اسم والده. وينقسم بنو عبد الواد إلى بطون وشعوب أهمها: بنو ياتوكين وبنو أولو وبنو ورهطف وبنو نصوحة وبنو لوموت وبنو القاسم. وحالف بنو عبد الواد القبائل العربية التي استقرت بالمغرب الأوسط خصوصا بطون عرب زغبة الذين جمعتهم وزناتة عصبية الحلف، وذوي عبيد الله من عرب المعقل المجاورين لبني عامر بن زغبة المستقرين بتلمسان. ينظر: ابن خلدون، المصدر السابق، ج: 7، ص: 84. يحي بن خلدون، بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد. تقديم وتحقيق عبد الحميد حاجيات الجزائر: المكتبة الوطنية، 1980م، ج: 1، ص: 186م. التنسي محمد بن عبد الله، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان. تحقيق وتعليق محمود بوعياد. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985م، ج:1، ص:111- 112. مصطفى أبو ضيف، المرجع السابق، ص: 145.

3- ابن خلدون، المصدر السابق، ج: 7، ص: 68.

4- **سجلماسة:** منطقة موجودة في صّحراء المغرب وهي من أعظم مدنه، تمتد على طول واد زيز، أسسها مدرار عبد الله سنة 140هـ/757م، يسكنها البربر من زناتة وصنهاجة، ويزرع بها النخيل والحبوب من الشّعير والذرة. ينظر: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج: 2، ص ص: 120-121. الحميري محمد بن عبد المنعم، الرّوض المعطار في خبر الأقطار. تحقيق إحسان عباس. مؤسسة ناصر للثقافة، ط:1، 1975م، ص: 305.

5-Martin, Les Oasis Sahariennes, P: 56.

ولعبت القبائل الزناتية دورا فعالا في الصراع الفاطمي الأموي، فأقامت قبيلة مغراوة[1] بتلمسان[2] دعوة الأمويين في الصّحراء بقيادة الأمير خزرون بن فلفول المغراوي[3]. وكانت زناتة إلى ذلك الوقت هم أهل العدّة والعدد والرئاسة إلى أن قامت دولة المرابطين فترصدوا بهم وهزموهم شر هزيمة ودخلوا سجلماسة وبلاد السوس وجبال المصامدة، وحصون ملوية، وقتلوا من كان بها من مغراوة[4]؛ وانقرض بذلك أمر المغراويين بالمغرب الأقصى وتوات.

ويذكر المؤرخ التواتي محمد بن عبد الكريم البكراوي في كتابه "درّة الأقلام": "أنّ زناتة فروا إلى توات بعد انهيار دولتهم في القرن الرابع الهجري أي العاشر الميلادي، وأنّهم اتجهوا صوب القبلة بعد أن قطعوا ثلاثة عشر رحلة من سجلماسة، ونزلوا بأرض بودة فاستقروا هناك وحفروا الآبار واستعملوا واد مسعود مرعى لمواشيهم، فوجدوا أنّ المكان آمنا يصلح للسكن، فسكنوا وتوطنوا توات"[5].

والراجح أنّ بربر زناتة وجدوا بالإقليم قبل هذا التاريخ بسنين عديدة، فبعد حملة عقبة بن نافع اضطر العديد منهم إلى الهروب صوب الصّحاري والقفار، ثم تلتها هجرات بربرية أخرى اثر سقوط دولة المدراريين على يد الشيعة، مما جعل الكثير من الزناتة يلجئون إلى الواحات، خاصة وأنّ الدولة الفاطمية أجبرت البربر على اعتناق المذهب الشيعي بالقوة. ولم يبق لهم حكم بالواحات بعد أن تمكن يوسف بن تاشفين[6] من فتح سجلماسة وتوات وتيكورارين.

1- **مغراوة:** ينظر تعريفهم في: ابن خلدون، المصدر السابق، ج: 7، ص ص: 29- 30.

2- **تلمسان:** ينظر تعريفها في المصادر التالية: الإدريسي أبو عبد الله بن محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1422هـ/2002م، مج: 1، ص ص: 248- 250. البكري أبو عبيد، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، جزء من كتاب المسالك والممالك. بغداد: مكتبة المثنى، 1857م، ص ص: 67- 77. العبدري محمد البلنسي، الرّحلة المغربية. تحقيق أحمد بن حدو، الجزائر: نشر كلية الآداب الجزائرية، ص: 9.

3- **خزرون بن فلفول المغراوي:** ينظر ترجمته: ابن خلدون، المصدر السابق، ج: 7، ص: 45.

4- المصدر نفسه، ج: 7، ص ص: 46- 47.

5- نقلا عن الصديق الحاج أحمد، المرجع السابق، ص: 39.

6- **يوسف بن تاشفين(400-500هـ/1009-1106م)** ينظر ترجمته: ابن خلدون، المصدر السابق، ج: 6، ص: 215. حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين صفحة مشرفة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى. دار الكتاب الحديث، ط: 2، 1416هـ/19965م، ص: 197.

واستمر وفود القبائل البربرية على توات بعد قدوم العرب الهلاليين في القرن الخامس الهجري أي الحادي عشر الميلادي، والّذين أجبروا البربر على النزوح من مواطنهم، فلم يتمكن البربر من مجاراتهم لكثرة عددهم وشدّة بأسهم، فتركوا لهم ديارهم ولجأوا إلى توات. وبعد قيام دولة الموحدين[1] الّتي تعقبت بالفرع الزناتي، لجأت مغراوة وبنو يفرن[2] بعد مقتل أميرهم مسعود بن وانه المغراوي إلى اتخاذ الصّحراء ملجأ لهم، فنزلوا بواد الحناء التواتي، ولم يتوقف نزوحهم إلاّ في نهاية القرن السابع الهجري أي الثالث عشر الميلادي[3].

وكانت القبائل الزناتية تعتمد في شرابها وسقي مزروعاتها على الأودية المتوفرة في المنطقة من وادي مسعود ووادي قاريت ووادي مقيدن، ثم بنوا القصور وعمروها وحملت أسماءهم مثل: تخفيفت وتازورت وتمزغت وتاسفوت وتيط، وغيرها من التسميات البربرية. وكان اقتصادهم يعتمد أساسا على الفلاحة ثم التجارة، فغرسوا النخيل والحبوب من القمح والشّعير وضروب الفواكه. واعتمدوا في سقي مزروعاتهم على وادي كير(قير) الّذي جف في غضون القرن الرابع الهجري أي العاشر الميلادي[4]، فقاموا بحفر الفقارات لاستخراج المياه الجوفية الّتي كانت تزخر بها المنطقة. وكانت معظم القبائل الزناتية تعتمد على الرّعي، فحيواناتهم هي عنوان غناهم وخير ما يملكون. وأهم مراعي توات تقع على ضفاف وادي مسعود، الّذي يمتد على كامل الخط التواتي، وهنا تنمو مختلف الحشائش الّتي تقتات منها الحيوانات. ويتغذى الزناتيون على لحوم أغنامهم، وأما شرابهم فهي ألبانها، إلى جانب التّمر والقمح والشّعير وبعض الخضر والفواكه الّتي يقومون بغراستها.

---

[1]- **الموحدين:** ينظر تعريفهم: ابن خلدون، المصدر السابق، ج: 6، ص ص: 266- 274. مصطفى أبو ضيف، المرجع السابق، ص ص: 67- 84.

[2]- **بنو يفرن:** ينظر تعريفهم في: ابن خلدون، المصدر السابق، ج: 6، ص ص: 13- 14.

[3]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 5.

[4]- محمد باي بلعالم، التعريف ببعض الجوانب من منطقة توات، ص: 42.

ولم يعتمد الزناتة في معاشهم على الرّعي والزراعة، بل اشتغلوا بالتجارة فنشطت المبادلات التجارية بين سلع أسواق شمال المغرب وسلع أسواق السودان. فكانت قوافلهم تجوب بلاد السودان الغربي، واستغلوا في ذلك موقع إقليمهم الوسط. وقد أخبرنا ابن خلدون عن معاشهم فقال: "إنّ أكثر معاشهم من فلح النخل وفيهم التجر إلى بلاد السودان"[1]. ورغم اشتغالهم بالزراعة والتجارة ظلت صفات البداوة تلازمهم وحياة الرّعي والبادية تستهويهم[2].

ب- اللمتونيون:

كان نزولهم بإقليم توات بعد سقوط دولتهم المرابطية في المغرب على يد الموحدين سنة 541هـ/1147م، ويقول محمد الطيب أنّ قبائل اللمتون أولاد يوسف بن تاشفين هم أول من نزل توات واختطوا بها القصور، حين انتهت دولتهم بالمغرب والأندلس على يد الموحدين، ففروا إلى أرض توات؛ ولما وجدوها أرضا جدباء عرفوا أنّها آمنة فاستوطنوها[3]. والراجح عندنا أنّ قبائل زناتة هم أول من وصل إلى توات وبنوا جل قصورها، ثم كان قدوم لمتونة في القرن السادس الهجري أي الثاني عشر الميلادي، وأسماء القصور والتي معظمها باللّغة الزناتية لأكبر دليل على ذلك.

وأول قصر أسسه اللمتون "تيلوت"[4]، ثم زادوا لقصرهم هذا قصرا آخرا سمي بـــ "اتعالى يوسف"، وبالقرب منه يوجد مسجد "تزنكيت" نسبة إلى زناته. ومن القبائل اللمتونية: انعتمان الصالح وايتوسف واتمحمد وايوسف واتعالى وبموسى واتموسى وأمحمد واتبكر واتعلى؛ ويسمي الجميع بأولاد يعقوب، ولهم فقارة تسمى هَنُ، تقسم مياهها مناوبة بالأيام واللّيالي. وتعد الزراعة هي النشاط الغالب على

---

[1]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج: 6، ص: 68.
[2]- موسى لقبال، المرجع السابق، ص: 162.
[3]- محمد الطيب، المصدر السابق، ص: 16.
[4]- **تيلوت:** بفتح أوله وسكونه ثانية وآخره ومعناه بالعربية المزود. المصدر نفسه، ص: 16.

معاشهم. وكان إسلامهم متمكنا من نفوس قبائلهم، ففرضوا الإسلام على كل من وجدوه بالإقليم[1].

وعرف الإقليم عداءً أو صراعا كبيرا بين البربر والعرب الهلاليين، الذين زاحموهم وامتلكوا جل قصورهم وفرضوا عليهم المغارم والإتاوات، مما جعل البربر يتصاهرون معهم ويختلطون بهم؛ فنشأ عن هذا الامتزاج مع بعض قبائل الهلالية أجيالا جديدة لا تكن العداء للعنصر البربري الإسلامي. وانقسمت القبائل التواتية إثر ذلك العداء إلى قسمين هما: قسم الزناتة ويدعى ملول، وقسم العرب ويدعى محبوب، وكان المحبوب أقوى وأشد من الملول لكثرة قبائلهم وتعدد بطونهم[2].

وشهد الإقليم في العصر الوسيط والذي استمر إلى العصر الحديث صراعا مريرا نتج عنه ظهور فريقين هما: قبائل ياحمد، وقبائل سفيان، واستعان كل فريق بجيرانه الضاربة في الصّحراء. ويقول أحد المؤرخين التواتيين على هذه الظاهرة: "والعجب كل العجب أن تجد بلدين مختلطي النخيل والمرافق، بحيث يسمع كل واحد منهما مؤذن الآخر، فيتعصب الأول بفئة يحمد والآخر بفئة سفيان، والأعجب من هذا إذا اجتمع شخصان فأخبر أحدهما الآخر بأنّه من صنف سفيان وكان هو من صف يحمد كرهه أشد الكراهية ..."[3]. ولم توجد هذه الظاهرة السلبية بإقليم توات فحسب بل وجدت في باقي أقطار الجزائر كالبيض والمشرية، وهو ما يعرف عندهم بالشرقي والغربي.

وكان للبربر قديما لغة خاصة بهم تدعى "تيفناغ"، وهي عبارة عن أشكال وحروف وخط للتعبير عن المعاني والكلمات، في شكل مظاهر طبيعية وكونية كالشّمس والقمر والنجوم والبرق، وعددها أربعة عشر اسما، ولها حركات وضوابط تسمى "تيدباكين"، أي الدليل على العمل والتوسع، وهي تكتب كالصور الهيروغليفية من اليمين والشمال، والأعلى والأسفل حسب اصطلاح القبيلة، ولم يبق لهذه

1- أحمد الحمدي، محمد بن عبد الكريم المغيلي، ص: 23.

2- Martin, Les Oasis Sahariennes, P: 68.

3- الصديق حاج أحمد، المرجع السابق ص: 41.

الحروف أثر إثر التعريب الذي مس توات مع هجرات العرب إلى المنطقة، وحافظ التوارق عليها[1]. ويتكلم سكان توات ثلاث لهجات البربرية والعربية والتكرورية، وهي لهجة الزنوج السودانيين[2].

2- العرب:

هم ثاني شريحة، استقروا بالإقليم بعد البربر، ووصلوا في السنوات الأولى التي أعقبت الفتح الإسلامي لبلاد المغرب. وهاجرت العديد من القبائل العربية إلى الواحات الصّحراوية، ولما وجدوا الإقليم آمنا وصالحا للسكن وملائما لطبيعة معيشتهم مكثوا به. ولا يمكننا أن نذكر كل القبائل التي وردت إلى توات لكثرتها وتعدد بطونها.

أ- أولاد أهمالي:

من القبائل الأولى بتمنطيط، يوجد قصرهم بالقرب من أولاد يعقوب اللمتون، انحل أمرهم ونسبهم ولم يبق منهم إلاّ رسم قصرهم واسمهم، وسكن بقصورهم الحراثون[3]. وتوجد كتابات بالقصر تشير إلى أنّه بني قبل الهجرة بمائة وخمسة أعوام أي سنة 517م[4].

ب- عرب القدوية:

هي قبيلة عربية وصلت إلى توات في نهاية القرن الثالث الهجري أي التاسع الميلادي، وكان قدومهم من بلاد مصر حوالي سنة 374هـ/984م، ويقول أحمد بن يوسف التنلاني: "أنّ عرب القدوية قدموا إلى توات واستقروا بها، ثم شيدوا القصور وحفروا الفقاقير المائية، وفكرة حفر الفقارة ترجع لهم"[5].

1- الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية، ص: 67.

2- Selka, Op.Cit, P: 529.

3- محمد الطيب، المصدر السابق، ص: 18.

4- الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية، ص: 63.

5- L'Herbeaut, Les Foggaras Du Touat. (Bulletin De La Société Géographique D'Alger), 4ème Trimestre, 1934, N° : 140, P:561.

ج- البرامكة:

قدموا في زمن العباسيين سنة 535هـ/1040م، واستقروا بتوات الحناء. وكتب مولاي أحمد بن حشم سنة 1117هـ/1705م نقلا عن محمد عبد الهادي السباع سنة 1003هـ/1594م: "أنّه التقى بالبرامكة في المنصور بسالي فسألهم عن زمن قدوم أجدادهم إلى توات، فأجابوه بأنّ وصولهم كان في عهد العباسيين". وكتب المؤرخ عبد السلام بن أحمد سنة 1125هـ/1713م يقول: "وصل سنة 535هـ/1040م مجموعة من البرامكة إلى توات واستقروا بتوات الحناء، وبقي اخوتهم في بغداد ولم يتركوها إلاّ في نهاية الحكم العباسي"[1]. وكان خروج بقيتهم سنة 659هـ/1260م، فاتجهوا إلى جبل نفوسة، وبقوا هناك إلى غاية 702هـ/1302م، ثم انتقلوا إلى توات سنة 709هـ/1309م، والتحقوا بإخوانهم بتوات الحناء[2].

ودخل البرامكة في صراع مع القدوية، فأرسلوا في طلب المساعدة من أولاد محمد الهلاليين، واشتبك الطرفان في معركة كبيرة قتل خلالها الكثير من القدوية[3]. وتعرض البرامكة أيضا لعدة هجمات واعتداءات من قبل عرب أولاد الشيخ علي الّذين هاجموهم بغتة في ديارهم، وتدخل المحارزة وأولاد محمد وأولاد علي بن حريز لتقديم يد المساعدة لهم، فقاموا بمحاصرة قصر أولاد الشيخ علي وخربوه ثم استولوا عليه[4]. وهي صراعات قبلية كانت تنشأ باستمرار من أجل الاستيلاء على الممتلكات والثروات.

د- أولاد نسلام:

من سكان تمنطيط، ينسبون إلى قبائل سعيد رياح، وهم أهل نجدة وقوة ونخوة. كانت قبائلهم سبعة منهم أولاد اليتيم، ومن قصورهم أولاد ميمون وأولاد إسماعيل. وأصبحت جل قصورهم خالية، ولم يبق من آثارها سوى قصر أولاد

---

[1]-Martin, les Oasis Sahariennes, P: 65.
[2]- Ibid, P: 102.
[3]- Ibid, P: 84-85.
[4]- Ibid, P:103.

ميمون الّذي زاحمته الرمال من جهة القبلة[1]. وأما بقية قبائلهم فكانوا موجدون في تقرت[2]، وفي تمكطن بتدكلت؛ وكان خروجهم من تمنطيط على يد الشيخ عمر بن محمد بأمر السلطان إسماعيل[3].

وذكر باهية في مذكراته "أنّ أولاد ميمون في تمنطيط عندهم مسجل يحمل محرابه تاريخ 106هـ/715م"[4]؛ وهذا يدل على أنّهم كانوا متواجدين بالإقليم منذ القرن الأول الهجري أي السابع الميلادي، وأنّهم الأوائل وليس عرب القدوية كما ذكر مارتن لأنّ القدوية وصلوا إلى الإقليم في نهاية القرن الثالث الهجري أي التاسع الميلادي.

وفي الفترة نفسها جاءت قبائل عربية أخرى بقيادة قائد أموي يسمى أبا ملوك، واستقر هذا الأخير بتهتاين، ثم أسس قصره الّذي حمل اسمه[5]، ونزلت به القبائل الّتي أتت معه[6].

هـ- أولاد عباس:

موطنهم الأصلي بلاد العراق، وانتقلوا منها في القرن الخامس الهجري أي الحادي عشر الميلادي قاصدين توات، وكان وصولهم عام 474هـ/1081م واستقروا بتخفيفت. وكتب مبارك بن علي المناصري سنة 1126هـ/1714م نقلا عن محمد عبد

---

[1] - محمد الطيب، المصدر السابق، ص: 17.

[2]- **تقرت:** عاصمة وادي ريغ تقع بين ميزاب غربا ووادي سوف شرقا، عرفت حكم بني مزني، وحكم بني عبيد لله، وبني جلاب، وسطوة الأتراك منذ صالح رايس إلى أن دخلها الفرنسيون سنة 1260هـ/1844م. وتنتج تقرت التّمور والتين والعنب والرمان والتفاح والمشمش والإجاص. ولها سوق كبير، وهي محاطة بأسوار وأبواب، والأسوار بدورها محاطة بخندق وعليها ثلاثة جسور، ولمساجدها منارات عالية. ويقطن بها المهاجرية اليهود، وهم لا يتزاوجون مع العرب، ومن النادر أن يتزوج عربي بامرأة مهاجرية. ومن قراها النزلة وتيبسبست وتيماسين. وبها أربعة وعشرون قرية، ويسمى ذو البشرة السوداء برواغة. ينظر: مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979م، ص: 90. أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986م، ج:2، ص ص: 263- 265.

[3] - محمد الطيب، المصدر السابق، ص: 17.

[4]- البكري بكري، المرجع السابق، ص: 63.

[5]- **قصر أبو ملوك أو بني ملوك:** هو إحدى قصور تميمون بالقورارة. ينظر: التقييد، ص: 5.

[6]- Martin, Les Oasis Sahariennes, P: 68.

الهادي السباع: "أنّ أولاد عباس أتوا إلى توات سنة 474هـ/1081م، ونزلوا بتخفيفت التي كان يقيم بها اليهود"[1].

و- أولاد عبد الجليل:

التحقوا بتوات عام 501هـ/1107م واستقروا بزقلو، التي أصبحت تسمى بزقلو العرب، ثم التحقوا سنة 502هـ/1108م بأولاد عباس[2]. ونزل خلال هذه السنوات سيدي أوعلي البلبالي[3]، وسكن بقصر المنصور[4]. وانتقلت العديد من القبائل العربية إلى الواحات الصّحراوية، فبقصور ملوكة وبوزان وكوسام[5] نزل عرب قدموا من تافيلالت، ولم تذكر المصادر أسمائهم؛ كما استقر عرب قدموا من الساحل ببودة وأسسوا بها عام 600هـ/1203م زاوية تسمى "عفار"[6].

ز- أولاد داوود بن عمر:

يقطنون بتمنطيط، وهم أهل شماخة وأنفة وعزة ورئاسة، كانت قصورهم موجودة بالقرب من قصور أولاد سيدي عبد الله العصنوني قاضي توات. قاموا بضرب السكة لتسهيل المعاملات التجارية بعدما كانت تتم بالمقايضة. وقاموا ببناء الحمامات، وكانت قصورهم قاعدة أسواق تمنطيط، ومنهم النجارون والجزارون والعطارون والدّلالون، الذين كانوا يجوبون بيوت الناس لبيع سلعهم[7]. ولم يبق من أولاد داوود بن عمر خلال القرن الثالث عشر الهجري أي التاسع عشر الميلادي إلاّ بقية ضعاف، أما قصورهم فاستقر بها الحراثون؛ ويقول محمد الطيب: "أنّ السمرة والأدمة التي كانت في بقية من كان في قريتهم تمنطيط تدل على أنّهم عرب"[8].

1- Martin, Les Oasis Sahariennes, P: 69.

2 - Ibid, P: 73

3- نزل البلبالي إلى توات سنة 518هـ/1124م. ينظر: محمد باي بلعالم، المرجع السابق، ص: 43.

4-Martin, Op.Cit, p: 73.

5- **ملوكة وبوازن وكوسام:** أسّست في زمن واحد بتيمي. ينظر: Selka, Op.Cit, P: 536.

6- Selka, Ibid, PP: 536-540.

7- محمد الطيب، المصدر السابق، ص: 18.

8- المصدر نفسه، ص: 18.

ح- أولاد علي بن موسى:

كان نزولهم بقصر صلاح، وبها مقام جدهم الولي الشهير سيدي يوسف محمد، وانتقل أولاد علي إلى قصبتهم بتمنطيط بعد تشيّيدها، وأما نسبهم فيعود إلى الأدارسة، وأثبت هذا النسب المؤلف السيد عبد الكريم، بحيث ألّف كتابا سماه "مزيل الخفاء عن نسب بعض الشرفاء"، وكان اعتماده في ذلك على استخارة قام بها وعلى رؤيا رآها في منامه، وفي الظاهر لا يثبت النسب عن طريق رؤيا، وإنّما عن طريق شاهدي عدل عرفا بعدالتهما. ويرجح محمد الطيب في هذا الصدد فقال: "وإن لم يكونوا شرفاء فهم من أكابر الناس، دلت على ذلك حالتهم وسيرتهم"[1].

كان عددهم في البداية قليلا ثم نموا نموا كبيرا، فتفرعوا وتمكنوا وتولوا أمر تمنطيط، وهم يعدون من أهل السنة والمروءة والرئاسة، حكموا تمنطيط بأمر من سلطان المغرب إسماعيل[2]. وكان بيد رئيس تمنطيط ديوان الطلب وعدّة فقاقير توات وموظفيها من تسابيت إلى توات[3].

وأول من تولى الرئاسة منهم الشيخ عمر بن عبد الرحمن بموافقة الجماعة، ومن بعده ابنه أحمد بن عمرو الّذي كانت له القيادة والرئاسة التامة؛ ثم استخلف الشيخ عمرو بن محمد سنة 951هـ/1544م، وهو من اتخذ السجون وقتل كل من أراد أن يغدر من شيوخ ورؤساء توات. ومن بعده تولى الشيخ عبد الله بن علي بن عمرو الّذي قام بإنفاق المال الكثير لغرض إصلاح تمنطيط، فلم يبق له من المال سوى ما يشتري به جنانا وفرسا. وآخر رؤساء أولاد علي بن موسى الشيخ العياشي بن عبد الله والشيخ بحم بن الحاج محمد. وتولى رئاسة تمنطيط من بعدهما الحاج

1- محمد الطيب، المصدر السابق، ص: 23.

2- **السلطان إسماعيل:** هو إسماعيل بن الشريف سلطان المغرب، من سلالة العلويين الفلاليين الحسنيين الثانية، ولد سنة 1051هـ/1641م، وتولى الخلافة عام 1182هـ/1768م، فقام بها وضبط الأمور وأحسن السّيرة. الناصري، المصدر السابق، ج: 7، ص ص: 45- 46.

3- محمد الطيب، المصدر السابق، ص: 24.

المأمون بن عبد الكريم على عهد السلطان عبد الله بن إسماعيل[1]، وكان يتم تعيين الرئيس بموافقة ومباركة سلاطين المغرب.

ط- أولاد ملوك:

هم من قبائل أولاد شبل التي كانت تسكن بودة، وكان أحمد بن بحم بن عبد الرحمن رئيسا عليهم، عقدوا الصلح مع أهل تمنطيط بمساعدة باباحيدَة أخو الحاج المأمون الذي عمل على تحقيق ذلك. وأولاد ملوك أهل شجاعة ونجدة، وليس في عرب توات أقطع منهم ولا أشّد منهم بأسا، بحيث كان المظلوم يستعين بهم على الظالم والمغنوم على الغانم[2].

ي- أولاد غنوم:

ينتمون إلى أولاد أحمد الذين كانوا يسكنون بتيمي، انتزعوا الرئاسة من قبائل تمنطيط، وكان رئيسهم محمد بن عبد الله بن خدا. وأتى بهم إلى تمنطيط أولاد ملوك، إذ باعوا لهم ثمانية جنان سنة 1184هـ/1770م، ولم يطالبوهم بالثمن لمدة خمس سنوات. واستولى أولاد غنوم شيئا فشيئا على تمنطيط، وانتهى عهد أولاد ملوك بموت رئيسيهم محمد بن عبد الله ،الذي لم يظفر بالرئاسة ولا قومه بعد الجهد الكبير الذي بذل من أجل ذلك، وبدخولهم تمنطيط مسها الهوان والدّمار[3].

ك- أولاد الحاج:

يعود أصلهم إلى عرب ثقيف، وهم دون أولاد ملوك في القوة والعدد والشجاعة، إلاّ أنهم شكلوا قوة واحدة بتحالفهم. استوطنوا في بداية الأمر إقليم تيدكلت، ثم نقلهم الحاج المأمون إلى مقاطعة بوفادي صيانة وحماية لتمنطيط، ويعتبر أولاد ملوك أنصارا لهم، وكثيرا ما كان يقع النزاع والخصام والتشابك بينهم وبين أهل تمنطيط بسبب الزعامة والرئاسة التي ارتادها عرب أولاد الحاج، إلاّ أنّ أهل تمنطيط كانوا يرفضون أي تدخل في شؤونهم كونهم دار رئاسة[4].

1- محمد الطيب، المصدر السابق، ص: 24.
2- المصدر نفسه، ص: 26.
3- المصدر نفسه، ص: 26.
4- المصدر نفسه، ص: 25.

ل- أولاد السيد أبي يحي:

يعود نسبهم إلى قريش، وأكد محمد بن عبد الكريم في مؤلفه "تذكرة العباد في خبر المعاش والمعاد" هذا القول، فذكر أنّ أصل هذه القبيلة من قريش ومن بقية الصحابة الّذين فتحوا إفريقية في جيش عبد الله بن عامر، وإليهم ينتسب المؤرخ محمد الطيب[1].

وكان نزول جدهم السيد أبو يحي[2] بتوات عام 815هـ/1412م، واستقر بتجعفرت[3] الّتي مكث بها مع أولاده مدة واحد وثمانين سنة، ثم انتقلت القبيلة إلى تمنطيط. ويعود سبب انتقالهم إلى هجوم أولاد نسلام عليهم عام 896هـ/1490م، فنهبوا واغتصبوا أموالهم وأغراضهم، مما أغضب أبا يحي غضبا كبيرا، فعزم على الارتحال إلى تاسفوت وكان له بها أهل، إلا أنّ قبيلة أولاد علي بن موسى لحقوا بهم وأخذوا بخواطرهم وصالحوهم، واتفقوا معهم على أن يرجعوا معهم مقابل ربع بلدهم، فيكونوا بذلك يدا واحدة ضد الأعداء، فرجعوا معهم بناء على ذلك الاتفاق. ثم عادوا مرة أخرى إلى النزاع، فتقاتلوا سنة 1222هـ/1807م، عندها عادوا إلى قصبتهم بتاسفوت وبقوا هناك مدة إحدى عشرة سنة، بعدها همّ بعضهم بقتال بعض[4].

ولم يذكر لنا محمد الطيب سبب الفتنة الّتي لحقت بقبيلته، إذ اختصر الأحداث اختصارا شديدا بالرغم من أنّه كان معاصرا لها، فعصبيته القبلية جعلته يخفي بعض الحقائق ويقتصر على إعطاء الإشارات، إذ كتب يقول: "وحكايات الفاقمة وأسبابها

---

[1]- محمد الطيب، المصدر السابق، ص: 26.

[2]- **أبو يحيى بن محمد المنياري:** لم نجد له ترجمة وافية في المصادر، ويعتبر جد قبيلة أولاد يحيى المعروفة بتمنطيط، نزل بها سنة 815هـ/1412م. كان قاضيا من أهل العلم والعدل والصلاح، وهو الذي جاء بمقادير المكاييل والموازين. وينسب المنياري لقبيلة منيارة، وهي قبيلة عربية معروفة بأرض التلول، وهم أهل قوة وبأس شديد. وتوجد هذه القبيلة حاليا بضواحي مدينة سعيدة جنوب مدينة وهران. محمد الطيب، المصدر السابق، ص: 30. المهدي البوعبدلي، أضواء على تاريخ مدينة تمنطيط ودور الإمام المغيلي بها في قضية يهود توات. مجلة الثقافة، س: 16، ع: 94، 1986م، ص: 87 هـ: 1. محمد باي بلعالم، المرجع السابق، ص: 44.

[3]- **تجعفرت:** تقع غرب تمنطيط. ينظر: محمد الطيب، المصدر السابق، ص: 27.

[4]- المصدر نفسه، ص: 31.

حديث طويل، وفي ما لا ينبغي ذكره ولا ترسيخه في القلوب لأنّ كيد الشيطان كان ضعيفا وقطع سلكه أولى من نزعه"[1].

وبانتهاء الفتنة استقر البعض من أولاد سيدي يحي بتمنطيط، والبعض الآخر في القصبة وجلهم بها. ونفى المؤرخ محمد الطيب قرابتهم ونسبهم بأولاد يحي السفلانيون، لأنّ ذلك لم يتواتر عندهم، فجدهم أبو يحي نزل تمنطيط مفردا دون القبيلة ولم ينتقل أولاده إلى تامست[2]. ومن قصور أولاد يحي: قصر "أجدير" و"أغلاد" وقصر "المهاجرين" الّذي أصبح يسمى بقصر "أغرم أقبور". ورغم قوة وكثرة قبائلهم إلا أنّه لم يبق منهم أحد، فاندرست جميع قصورهم، ولم يبق سوى آثار ديارهم، واستقر المرابطون نسل الولي الصالح سيدي عمرو بالقرب من أرضهم وغرسوا بها النخيل[3].

ونزل العلامة القاضي سيدي سالم العصنوني[4] وعمه القاضي عبد الله بأولاد يحي، واختلف في أصلهم، فمنهم من نسبهم إلى الحسين بن علي وعليه فهم شرفاء فاطميون، ومنهم من ذهب إلى أنّهم من بني العباس القرشي؛ ويقول محمد الطيب في هذا الشأن بأنّه رأى شجرة نسبهم الّتي توحي بذلك. وكان لمسجد سيدي سالم شهرة كبيرة بتمنطيط، يقصده جميع الناس للتبرك به[5].

ومن قبائل أولاد يحي: أولاد سيدي محمد فتحا بن الحاج، وهم مرابطون صالحون، وقبيلة لبدة، وقبيلة ذكرى بن يحيى، وقبيلة أولاد ببراهم. ولما ضعفت شوكتهم واندرست قصورهم سكن بها الشريف علي محمد بن الزوين من أولاد علي

1- محمد الطيب، المصدر السابق، ص: 28.

2- المصدر نفسه، ص: 29.

3- المصدر نفسه، ص ص: 19- 20.

4- **سيدي سالم(ت970هـ/1562م):** هو شيخ تمنطيط وقاضيها، حج عام 922هـ/1516م، وبعودته إلى بلده وجد الطاعون قد جرف بتمنطيط، فهاجر إلى بني تامرت وبقي بها إلى أن توفي سنة 970هـ/1562م. ينظر: Martin, Quatre Siècles, P: 28.

5- محمد الطيب، المصدر السابق، ص: 20.

الشريف، فملك جل أراضيهم وقصورهم وفقاراتهم، وكان للشريف خصومات ومنازعات مع أهل تمنطيط، وأحيانا أخرى كانت تكون صحبة وأخوة[1].

ووصلت مجموعة أخرى من القبائل العربية، ففي سنة 1012هـ/1603م قدم أولاد الشيخ دحو إلى الإقليم واستقروا بقصر بوزان. وفي عام 1016هـ/1607م جاء أولاد هلال ونزلوا بباحو عند الشيخ أبي حفص. وفي سنة 1027هـ/1617م قدمت قبيلة من واد سوف ونزلت بأولاد أوشن، كما قدمت سنة 1076هـ/1665م قبيلة أعريب[2] بنسائهم وصبيانهم[3].

م- قبيلة كنته:

يعتبر الكنتيون[4] دعاة الإسلام والمشرفين الروحيين على القبائل الصّحراوية، وصلوا إلى توات سنة 1121هـ/1611م، واستقروا في زاوية كنته[5]، وفي عهد سيدي محمد الكنتي بدأت بداية هجرة كنتة إلى الصّحراء الكبرى. وكانت أسفارهم في سبيل الدعوة للإسلام والتجارة، فوصلوا شمالا حتى السوس وتافيلالت وتوات، وجنوبا إلى تمبكتو والسودان حتى كاتسينا وقوبير في شمال نيجيريا[6]. وكان لهم أثر عظيم في إسلام الزنوج على مستوى منطقة جنوب الصّحراء والنيجر الوسطى،

---

[1]- محمد الطيب، المصدر السابق، ص: 22.

[2]- **اعريب:** هي مجموعة من القبائل العربية، اشتهرت بصناعة الأسلحة والاتجار بها، مستقرون بجنوب الجزائر حول منطقة بشار وجنوب المغرب حول مدينة إقليمهم، ومنها بعض الأسر بصحراء مالي والنيجر وبصحراء موريطانيا. وقاومت اعريب الاستعمار الفرنسي وساهمت في دعم القبائل العربية في المنطقة بالأسلحة، ولما انتصر المستعمر على المقاومة نكل باعريب وقتل رجالها. محمد سليمان الطيب، المرجع السابق، مج: 1، ج: 2، ص: 87.

[3]- محمد باي بلعالم، التعريف ببعض الجوانب من منطقة توات، ص: 45.

[4]- **كنته:** قبيلة عربية شهيرة، تتواجد في الصّحراء الكبرى من موريطانيا إلى النيجر إلى جنوب الجزائر، ينتهي نسبها إلى عقبة بن نافع. وتشتهر قبيلة كنته بالعلم والورع والتقوى ونشر الإسلام في المناطق الإفريقية المتاخمة لها، وتنقسم إلى عدة بطون منها: أولاد الوافي وأولاد بوسيف وأولاد بونعامة وأولاد أحمد الرقاد وأولاد الأزرق وأولاد المصطفى وأولاد الشيخ سيدي المختار وأولاد سيدي أبو بكر وأولاد أحمد الركاب، وجميع هذه البطون تنقسم إلى أفخاد وعشائر. واسم كنته نسبة إلى جد القبيلة لأمها محمد بن كنته بن زم من قبيلة ايدوكال التارقية. محمد سليمان الطيب، المرجع السابق، مج:1، ج: 2، ص ص: 86-88.

[5]- Martin, Quatre Siècles, P: 76.

[6]- بول مارتي، كنتة الشرقيون. تعريب وتعليق محمد محمود ولد ودّادي. دمشق: طبع بمطبعة زيد بن ثابت، ص: 34.

وانصهرت هذه القبيلة العربية، وأصبحت قبيلة مغربية تدين إليها الطريقة القادرية بانتشارها في غرب إفريقيا[1].

و ساءت العلاقات بين الكنتيين والبرابيش الّذين ألحقوا بهم أضرارا جسيمة، كما نشأ صراع بين كنتة وقبيلة كل أنتنصر ولم تتوقف المعارك بينهما إلاّ مع قدوم الفرنسيين إلى المنطقة[2]. وأنجبت كنتة علماء أجلاء ساهموا في نشر الدّين الإسلامي وتحفيظ القرآن الكريم، ومن أبرزهم الشيخ السيد المختار الكبير[3]، الّذي أسس المدرسة العلمية في تمبكتو، والشيخ محمد ولد مختار الكبير[4] صاحب مؤلف "الطرائف والتلائذ في معرفة مناقب الوالدة والوالد". وتزخر الصّحراء بمخطوطات مشايخ كنته في الفقه والحديث وأصول الدين.

ن- **الأشراف:**

قدموا من شمال المغرب الأقصى واستقروا بتوات، وهم يعتزون بشرف نسبهم إلى البيت النبوي الشريف. ويتمتعون بمكانة مرموقة داخل المجتمع التواتي، فالكل يحترمهم ويقدرهم، ويحرص الجميع على كسب رضاهم ومحبتهم. ومن بين الأشراف الواردين على الإقليم التواتي الشريف سيدي سليمان بن علي الإدريسي[5] الّذي نزل بأولاد عيسى[6] على الشيخ باعمر عام 593هـ/1196م، ثم انتقل إلى

1- مصطفى أبو ضيف، المرجع السابق، ص: 269.

2- بول مارتي، المرجع السابق، ص: 63.

3- **سيدي المختار الكبير:** ولد في شمال شرق أدرار بكثيب أوغال في آزواد عام(1142- 1143هـ/1729-1730م)، وقيل بأنّه ولد في (1134- 1135هـ/1722- 1723م)، واتفق في تاريخ وفاته الّذي كان يوم الأربعاء سنة 1226هـ/1811م، له عدة تآليف منها "نزهة الراوي وبغية الحاوي"، "فقه الأعيان في حقائق الأعيان" و"الجرعة الصافية". بول مارتي، المرجع السابق، ص: 39، 53. الصديق حاج أحمد، المرجع السابق، ص ص: 120- 121.

4- **محمد بن المختار الكنتي:** ولد حوالي سنة 1765هـ/1179م، كان ورعا وعالما، وخلف أباه في رئاسة القبيلة سنة 1123هـ/1711م، وعمل على إنقاذ تمبكتو من الخراب الّذي لحق بها من قبل قبائل الفلان من أتباع شيخو أحمدو سنة 1241-1242هـ/1825- 1826م. توفي إثر مرض سنة 1242هـ/1826م، له تآليف عديدة منها "الرّوض الخطيب بشرح نفح الطيب"، وتآليف في مصطلح الحديث. ينظر: الصديق حاج أحمد، المرجع نفسه، ص: 121. بول مارتي، المرجع السابق، ص ص: 79- 82.

5- **سليمان بن علي(ت 670هـ/1271م):** هو سليمان بن علي بن عمر الإدريسي عالم من فاس، نصحه شيخه علي بن حرسوم بالذهاب إلى توات، يعرف بسلطان تيمي، توفي بأولاد أوشن سنة 670هـ/1271م. ينظر: Selka, Op.Cit, P: 552.

6- **أولاد عيسى:** إحدى قصور تيمي وحمل اسم أحد أبناء سيدي سليمان بن علي. ينظر: Ibid, P: 536.

قصره أولاد أوشن الّذي أسسه سنة 605هـ/1208م وهو خامس قصور تيمي. وقام الشريف بحفر السبع آبار الأولى لفقارة "اجدلاون"[1]؛ وتصاهر مع شيخ قبيلة آيت عيسى، وولد له خمسة أولاد منهم علي وعبد الحق وعيسى وعمت شهرتهم وبركتهم جميع الإقليم التواتي[2].

وكان الشريف سليمان يتلقى المراسلات والهدايا من جميع القبائل العربية كالبرامكة والقدوية وأولاد حريز وأولاد عمر بن عمور، وأراد أن يجمع صفوف الزناتة والعرب في صف واحد، إلاّ أنّ أولاد محمد الهلاليين رفضوا ذلك باعتبار أنّ قبائل المحبوب يبقون منفصلين عن قبائل ملول الزناتة[3]. وبعد وفاة سيدي سليمان أسس ابنه علي قصر آيت علي، وهو سادس قصور تيمي، وتوجه ابنه مولاي أحمد إلى زاوية أدغاغ وأصبح إماما بمسجدها، كما أسس بالقصر زقاقا(طريقا) أطلق عليه اسم زقاق الشهود. ووصلت إلى توات في هذه الفترة قبائل عربية نزلت بقصر الشريف علي، فترك هذا الأخير قصره واتجه إلى تنلان حيث أسس زاوية بها لتصبح بذلك سابع قصور تيمي[4].

وقدم الشرفاء الحموديون[5] سنة 540هـ/1155م إلى توات واستقروا بقصر بوعلي[6]، ثم انتقلوا إلى قصرهم الّذي شيدوه وأطلقوا عليه اسم الشريف سنة 660هـ/1261م [7]، وهو إحدى قصور زقلو. وفي بداية القرن الثامن الهجري أي الرابع عشر الميلادي وصل شريف حمودي إلى إقليم القورارة، وهو سيدي سعيد بن علي بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن سالم بن مبروك الحمودي، وبوصوله سنة

1- Selka, Op.Cit, P: 534.
2- Martin, Quatre Siècles, P: 87.
3- Ibid, P: 87.
4- Ibid, P: 87.
5- **الحموديون:** هم أشراف أدارسة، فلما أجلا الحكم المستنصر الأدارسة عن العدوة إلى الشرق ومحا أثرهم عن سائر المغرب استقامت غمارة على طاعة المروانية، وطالب الحسن بن كنون برجوعهم إلاّ أنّه هلك على يد المنصور بن أبي عامر، فانقرض أمرهم وافترقوا في القبائل ولاذوا بالاختفاء فأصبحوا أهل بدو. والتحق بالأندلس رجلان من ولد عمر بن إدريس هما علي والقاسم ابنا حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس. وانقرض ملكهم من قرطبة سنة 414هـ/1023م. ابن خلدون، المصدر السابق، ج: 6، ص: 241.
6- محمد باي بلعالم، التعريف ببعض الجوانب من منطقة توات، ص: 44.
7 -Martin, Les Oasis, P: 80.

130م سارع أهل توات بالترحيب به، وجعلوا أنفسهم تحت خدمته، والتحق
709هـ/1309م أبناء عمومته الحموديون المقيمين بالأندلس، وهم أولاد سيدي
بن الطيّب، وبن عبد الجبار، وبن محمد، وبن أحمد، وبن علي الحمودي[1].
وصل في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي من عين الحوت
الشريف مولاي حسان، فبنا قصرا واستقر به، وأسس خدامه أولاد راشد[2]
قصرا حمل اسم قبيلتهم، كما شيّد ابنه عبد الحي قصرا بكالي[3] أين كان يقيم
أولاد الشيخ سعيد، واستقر ابنه الثاني بجنتور[4] حيث تتواجد قبيلة أولاد
أما ابنه الثالث فاتجه مع أولاد عطية من عرب الخنافسة إلى واد الحّجار،
هناك زاوية تالة[5]. واستقبل الشريف حسان بقصره قافلة من الحجاج جاءت
لاد درعة، كان بها السيد الحاج بلقاسم برفقة أبيه وجده وعمه، وأرسل أبناءه
القبائل العربية المجاورة لأخذ البركة منهم، فسارعت تلك القبائل إلى تقديم
ايا والهدايا لهم[6]. واستمر توافد الأشراف على توات وذلك لما لقوه من أهلها
كرم وطيبة ومحبة، فكان التواتيون إذا سمعوا بنزول شريف على إقليمهم
عوا إلى تحيته والترحيب به.

ووفد أيضا الأشراف السعديون والعلويون إلى إقليم توات، فجاء في رحلة
ريف مولاي أحمد بن حشم أنّ عائلة من الشرفاء السعديين استقروا بقصر بويحي
مست[7]، ولم يذكر الرحالة سنة قدومهم. وخلال النصف الثاني من القرن التاسع
جري الخامس عشر الميلادي ورد على توات شريف علوي من تافيلالت وهو
لاي علي، كان ينتقل بين تافيلالت والسودان بغرض التجارة، فمر بتوات حيث

[1]- Martin, Les Oasis, P: 75.

- **أولاد راشد:** ينظر ترجمتهم: ابن خلدون، المصدر السابق، ج: 6، ص ص: 180- 181.
- **كالي:** إحدى قصور أولاد سعيد بالقورارة. ينظر: التقييد، ص: 5.
- **جنتور:** تقع في الناحية الجنوبية الغربية من تميمون، وتلحق إداريا لأولاد عيسى. وتعني جنتور بالعربية البنت الشابة، والقصر قديم سكنته قبيلة تدعى بأولاد يعيش، وهم السكان الأصليون للمنطقة، ونظرا للغارات المتعددة عليهم هاجروا قصرهم. الصديق حاج أحمد، المرجع السابق، ص ص: 64- 65.
- **تالة:** إحدى قصور الخنافسة، تقع في أقصى جنوب القورارة، وتضم مجموعة من الواحات. التقييد، ص: 6.

[6]- Martin, Les Oasis, P: 81-82

[7]- Martin, Quatre Siècles, P: 75.

قطن بإلحاح من أهلها تبركا بنسبه إلى الرسول- صلى الله عليه وسلم- وتصاهر الشريف مع شيخ تاوريرت وولد له ابنا سماه عبد الله صار كوالده يتردّد بين تافيلالت والرّكان؛ فنزل بقصر بوعلي عند محمد بن عبد الكريم المغيلي[1]، فأحسن استقباله وأجزل له العطاء، وقدم له عدّة بساتين في واحة بوعلي. وكان الشريف عبد الله يريد الرجوع إلى مسقط رأسه الرّكان إلاّ أنّ الشيخ المغيلي رفض ذلك. واتجه فيما بعد إلى مسقط رأسه وأسس زاويته التي أطلق عليها الزاوية الرّكانية، أو زاوية الرّكان[2]، وتقع غرب توريرت.

وورد عام 1121هـ/1709م من أقارب السلطان الشريف مولاي مبارك بن مولاي المأمون من تافيلالت إلى توات مع ثلاثين فارسا من بني محمد، فاستضافتهم القبائل التواتية بأربعين مثقالا للضيافة في كل يوم. وزار الشريف مولاي أحمد بن مولاي علي سنة 1122هـ/1710م توات مصحوبا بأربعين فارسا من البربر[3]. وكان عدد الأشراف في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي قليلا، ثم أصبح عددهم كبيرا فيما بعد، ونالوا الإقطاعات الكبيرة من الجنان والبساتين والفقاقير. بحيث كانوا محررين من جميع الغرامات والزكوات إكراما لنسبهم الشريف[4]. وكان ملوك العلويين بالمغرب يهتمون بهم، ويولونهم نقباء أو ولاة في مختلف واحات إقليم توات[5].

---

[1]- **محمد بن عبد الكريم المغيلي:** هو سيدي محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني، مفسر وفقيه من أهل تلمسان، اشتهر بمناوأته لليهود وهدمه لكنائسهم في توات، وبعد الفتنة رحل إلى بلاد السودان والتكرور لنشر أحكام الشرع وقواعده. وله مؤلفات كثيرة منها: "مصباح الأرواح في أصول الفلاح"، و"شرح مختصر خليل"، و"منح الوهاب"، وغيرها من المؤلفات. توفي سنة 909هـ/1503م. ينظر: ابن مريم محمد بن محمد، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. راجعه محمد بن شنب. الجزائر: المطبعة الثعالبية، 1908م، ص ص: 253- 256. التمبكتي أحمد بابا، نيل الإبتهاج بتطريز الديباج. تقديم عبد الحميد عبد الله الهّدامة. طرابلس: منشورات كلية الدّعوة الإسلامية، ج: 2، ص ص: 576- 579. الزّركلي خير الدين، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. بيروت: دار العلم للملايين، ط: 5، مج: 6، ص: 216. أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي. تقديم وتحقيق عبد القادر زبادية. الجزائر: المكتبة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974م، ص: 5.

[2]- Martin, Quatre Siècles, P: 20.

[3]- Ibid, PP: 78- 79.

[4]- Ibid, P: 95.

[5]- أحمد العماري، المرجع السابق، ص: 32.

واستقر الأشراف تقريبا في كامل مقاطعات توات، ففي تيمي قطنوا بقصر بأولاد أوشن، وأولاد علي، وتاردالت، واقديم، وباربع، ووينه، وزاوية سيدي البكري. وبمقاطعة بوفادي تمركزوا بقصر اودغاغ، وبن حامي. وبفنغيل استقروا بقصر المنصور، ومكرة، وأولاد مولاي لحسن، وأولاد مولاي برشيد[1]. وأدوا دورا فعالا في تسوية المنازعات القبلية بين الناس، فكل فرد بتوات كان يحترمهم ويطلب رضاهم[2]، والجميع يتبرك بهم. وأما عن دورهم السياسي فصرح مولاي أحمد بن حشم بأنّه ليس لهم سلطة وكانوا دائما في دائرة العرب[3]. وفي القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين أي الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ازداد عددهم لأنّ أغلب الشيوخ الأشراف من الصوفية التي يلتف حولها الناس وخواصها، فتحولت تلك الزعامة الدّينية إلى زعامة سياسية[4].

س- عرب المعقل:

توافد عرب المعقل[5] على إقليم توات في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، وهم رعاة إبل يتجولون بقطعانهم في مناطق الشمال غرب الصّحراء. وكانت تصل رحلاتهم في فصل الشتاء إلى الواحات التواتية أين تتواجد المراعي الواسعة. واستغل المعاقلة ضعف دولة بني مرين فاستقروا بالواحات، وساعد على استقرارهم الخلافات المستمرة بين القبائل التواتية، فتمكنوا من بسط نفوذهم وسيطرتهم على الإقليم، واستقروا ببودة وتمنطيط وتسابيت، ونظرا لكثرة عددهم وقوتهم سيطروا على القصور التي اختطها الزناتيون. ويقول ابن خلدون في هذا

---

[1]- Selka, OP.Cit, PP: 534-543.

[2]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 34.

[3] -Martin, Quatre Siècles, P: 77.

[4]- أحمد الحمدي، المرجع السابق، ص: 45.

[5]- **المعقل:** قبيلة عربية، وهي بطن من بني الحارث، وهم المعقل بن الحارث بن كعب بن جلد بن مذحج، أما بطونهم فهي: ذوي عبيد الله، وذوي منصور، وذوي حسان. دخلوا مع بني هلال للمغرب في أعداد قليلة ويقال أنّهم لم يبلغوا المائتين، فاعترضهم بنو سليم فنزلوا مما يلي ملوية ورمال تافيلالت، وجاوروا زناتة في قفار المغرب الأقصى، وبقي منهم عدد قليل بافريقية. اندرجوا تحت كعب بن سليم، وبعد إمتلاك زناتة لبلاد المغرب ملّك المعقل قصور الصّحراء(تمنطيط، وتيكورارين، وتيسبيت، وتوات، وبودة، والسوس) أما حاليا فمراكزهم بسهول المتيجة. ابن خلدون، المصدر السابق، ج: 6، ص ص: 69- 70. عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة. بيروت: دار العلم للملايين، ج: 3، ص: 1123.

الصّدد: "قام هؤلاء المعقل في القفار وتفردوا بالبيداء، فنمو نموا لا كفاء له وملكوا قصور الصّحراء التي اختطها زناتة بالقفر مثل: قصر السوس غربا وتوات، ثم بودة ثم تمنطيط ثم وركلا، ثم تسابيت ثم تيكورارين شرقا"[1].

وبتغلب المعاقلة على البربر، فرضوا عليهم المغارم وصارت لهم جباية يعتد بقيمتها، كما كانوا يقدمون الإتاوات للدولة المرينية في حالة قوتها، وكان لهم الخيار في تعيين قيمتها ويسمونها "جمل الرحيل". يقول ابن خلدون في هذا السياق: "جاز عرب المعقل هؤلاء الأوطان في مجلاتهم ووضعوا الإتاوات والضرائب، وصارت لهم جباية يعتدون فيها ملكا، وكانت من تلك السالفة يعطون الصدقات لملوك زناتة ويأخذونهم بالدماء والطوائل ويسمونها جمل الرحيل؛ وكان لهم الخيار في تعينها"[2].

وطوال حكم الموحدين والمرينيين من بعدهم كانت لهم الإقطاعات الوفيرة مما أدى إلى عدم تعرضهم لأطراف الدولة بالغزو وقطع الطرق على القوافل. والمعاقلة لا يعيثون فسادا، ولا يثيرون اضطرابا، ولا يسفكون دماء، ولا يغيرون على القوافل التجارية، ولمسالمتهم كسبوا ثقة أهل توات، فنالوا الحضوات والإقطاعات الواسعة ولم يندرجوا في عرب بني هلال وسليم[3] الذي تحدث عنهم ابن خلدون كعنصر هدام في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي بإفريقية.

ومن المعقل الثعالبة، والرقيطات، والشابنات[4]، آيت لحسن، والزرقيون، وسكان التكنة[5]، الذين تميزوا بالدّيانة المتينة والنجدة والكرم وحسن الضيافة والعصامية وحفظ القرآن والتجمع في حلقات الذكر. وبرز منهم علماء أجلة اختصوا

---

[1]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج: 6، ص: 69.

[2]- المصدر نفسه، ج: 6، ص: 70.

[3]- مصطفى أبو ضيف، المصدر السابق، ص: 223.

[4]- **الشابنات:** من عرب أولاد حسان، وهم أولاد بوتابت وأولاد حسان، كانت مواطنهم بنواحي ملوية إلى مصب البحر مجاورين لذوي منصور وعبيد الله. ورغب الشابنات أبو علي المريني في ملك بلاد السوس، وكان الرقيطات أحلافا لهم. ابن خلدون، المصدر السابق، ج: 6، ص ص: 79- 83.

[5]- **التكنة:** هي إحدى القبائل العربية الكبرى في المغرب، تقطن قرب شاطئ المحيط الأطلسي في وادي نون، كان إقليمهم شمال الساقية الحمراء، يتحركون في صّحراء جنوب المغرب وجنوب غرب الجزائر، وكان لهم النفوذ والسيطرة على المناطق التي يتحركون فيها بحيواناتها وخيامهم. وينقسم التكنة إلى الزرقيون، وآيت جمل، وآيت سعيد، وآيت لحسن، وآيت مسعود. وأفراد قبيلة التكنة تجارا ينظمون قوافل التجارة جنوبا للسنغال وشمالا للمغرب. محمد سليمان الطيب، المرجع السابق، مج: 1، ج: 2، ص: 79.

في علوم الشريعة وحملوا مشعل السنة في بلاد الصّحراء كبعض آل العروص، وآل البكاي[1]. وساهم المعاقلة في نشر الإسلام واللغة العربية في كامل الصّحراء. وأما أنسابهم فكانت خفية ومجهولة، فرواة هلال يعدونهم من بطونهم، ورواة المعقل يزعمون أنّ نسبهم من أهل البيت من جعفر بن أبي طالب، وإلى هذا يذهب صاحب الاستقصا[2] رغم أنّ الطالبيين لم يكونوا أهل بادية ونجعة. وذهب ابن خلدون إلى أنّهم من عرب اليمن[3].

ع- عرب بني هلال:

بدأت الغزوة الهلالية[4] لعرب بني هلال[5] من مصر متجهة إلى إفريقية سنة 442هـ/1051م، وسارعت جموعهم إلى برقة ففتحوا أمصارها وخربوا ديارها. وكان بنو هلال يحملون معهم الخراب أينما ذهبوا. والراجح أنّ الغزوة الهلالية لم تتم دفعة واحدة وإنما على مراحل. واستقر بعض الهلاليين بإفريقية ونزح أغلب بطونهم إلى المغرب الأوسط، ولما استولى الموحدين على أملاك الحماديين سنة 547هـ/1152م قام عبد المؤمن بن علي بمطاردتهم إلى الصّحاري، ثم انحدروا إلى إقليم وهران، لكن الموحديين حاربوهم وشتتوا جموعهم في معركة سطيف التي جرت أحداثها سنة 548هـ/1153م، والتي دامت أربعة أيام، وكانت هذه المعركة

1- الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية، ص: 198.

2- الناصري، المصدر السابق، ج: 2، ص: 159. وينظر نسبهم في الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية، ص ص: 348- 349.

3- ابن خلدون، المصدر السابق، ج: 6، ص: 70.

4- دبرت الحملة الهلالية بإشارة من اليازوري وزير المستنصر الفاطمي، وكان هؤلاء الأعراب من بني هلال وبني سليم ورياح، وزغبة قد أضروا بالديار المصرية وأصبحوا خطرا على الدولة، ففتح لهم الخليفة باب الهجرة إلى المغرب، وعقد لرؤسائهم على أمصار البلاد المغربية وثغورها انتقاما من دولة صنهاجة الزيرية. عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، المرجع السابق، ص ص: 257- 258.

5- **هلال:** هو هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر من العدنانية، من بطونهم: ذياب، وعوف، وزغب، والأثبج، وبنو قرة، وبنو حرب، وبنو رياح. وكانت مواطنهم في أول أمرهم بجبل غزوان عند الطائف، وبعدها انتقلوا مع القرامطة بالبحرين وعمان، ثم نقلهم العزيز الفاطمي مع بنو سليم إلى الصعيد بالعدوة الشرقية للنيل، ثم أجازوا النيل بأمر من المستنصر الفاطمي إلى افريقية فنزلوا ببرقة سنة 443هـ/1051م وتقدموا لسائر بلاد المغرب. ابن خلدون، المصدر السابق، ج: 6، ص: 16. أبو الفوز البغدادي، سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب. بيروت: دار الكتب العلمية، 1409هـ/1989م، ص: 160. العمري ابن فضل الله شهاب الدّين، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، قبائل العرب في القرنين(7-8هـ). دراسة وتحقيق دورو تياكرا فولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، ط:1، 1406هـ/1975م، ص: 157. عمر رضا كحالة، المرجع السابق، ج: 3، ص: 1221.

أول هزيمة للهلالية في المغرب الأوسط. ومن نتائج المعركة أن استقرت أسر كثيرة منهم في المغرب الأقصى بعد أن حمل الموحدون أعدادا من زعمائهم إلى تلك البلاد، ورغم هزيمتهم كان عبد المؤمن بن علي يعاملهم بكل كرم ويحوطهم بكل رعاية واهتمام، وذلك لشجاعتهم وقوة بأسهم لهذا استعان بهم في غزو الأندلس[1].

وتوجهت أعداد كبيرة من الهلاليين إلى إقليم توات، حيث وجدوا في واد مقيدن مكانا مناسبا لحياتهم البدوية والرّعوية، فعمدوا إلى الاستقرار به، ومنه انتشروا عبر توات. وذكر بوتيي(Pottier)أنّ وصولهم كان سنة 665هـ/1266م، وكان استقرارهم بتسابيت ورّكان وتمنطيط[2]، إلاّ أنّ مارتان ذكر بأنّ قدومهم كان سنة 514هـ/1120م، أي في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي وليس في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي كما زعم بوتيي.

وأضاف مارتان أنّه وجدت وثائق بتيمي توحي بأنّ الهلاليين وجدوا في توات قبل القرن السابع الهجري، ومنهم السنانبة الذين كان قدومهم من العراق في زمن عقبة بن نافع[3]. ويرجح قول مارتان لأنّه اعتمد في معلوماته على وثائق أصلية وجدها بتيمي. وباستقرار الهلاليين بالإقليم عمدوا إلى الاستيلاء عى قصور زناتة، وأجبروهم على دفع الجزية، وبفضلهم نمت اللّغة العربية وازدهرت معالمها بالصّحراء[4]. ومن بين القبائل الهلالية التي نزلت بإقليم توات:

1- أولاد محمد: كانوا بمقيدن ومنه انتقلوا إلى دلدول[5] بالقورارة.

2- أولاد طلحة: أقاموا بتلالت[6] بالقورارة.

---

[1]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج: 6، ص ص: 278- 279.

[2] -Réne Pottier, Histoire Du Sahara. Paris: Nouvelle Edition Latine, 1947, P: 165.

[3]- Martin, Les Oasis Sahariennes, P: 76.

[4]- الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية، ص: 106.

[5]- **دلدول:** توجد بالقورارة الجنوبية ومن قصورها توكي، والبركة، والمنصور، وأولاد عب، والساهلا، وكبرتن. التقييد، ص: 6.

[6]- **تلالت:** هي مجموعة واحات في قورارة تضم زيادة على قصر تلالت قصور بدريان، وازكور، والملال، وهي موجودة على الضفة الغربية لوادي الشرقي، ومن بين هذه الواحات: واحات أولاد سعيد، وكالي. الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية، ص: 70.

3- أولاد يعيش: استقروا بأوقروت[1].

4- أولاد بوعلي: أصبحوا فيما بعد يعرفون بأولاد محمود.

5- أولاد علي بن حريز: استولوا على توات السفلى، واتجه قسم منهم إلى كبرتن.

6- أولاد معمر: نزلوا ببَاعمور بتامست.

7- أولاد ميمون: أسسوا قصر بالقرب من تاوريرت، ومن هذا الاسم جاءت مدينة تيميمون، وهم أهل قوة ونفوذ وثروة.

8- أولاد باحمو: استقروا بتدكلت والأنقار.

9- أولاد مريم.

10- أولاد جابر[2].

ووصلت مجموعات هلالية أخرى إلى الإقليم، وكان نزولهم بأولاد الشيخ سعيد بكالي، ثم شيدوا قصرا لأنفسهم بالقرب من زاوية بلقاسم، وهم من قاموا بإشعال الفتن والحروب بين القصور التواتية، فهاجموا قصر تيميمون وخربوه. وانظم عرب بني هلال إلى قبائل المحبوب، وبذلك قويت شكوتهم ضد الملول زناتة. وأراد الشيخ بلقاسم توحيد صفوف الزناتيين والعرب في صف واحد لكنه لم يوفق في ذلك. وفي نفس هذه الفترة قدم العديد من العرب الهلاليين الذين أسسوا قصرا توريرت ووينة، وهما من قصور تيمي[3].

---

[1]- أوقروت: تقع في شمال الإقليم وتبعد عن تيميمون بـ 96 كلم، وهي مجموعة من الواحات واقعة في الطريق بين أدرار وتيميمون. ومن قصورها: بوكمة، والشارف، وعالية، وأقبور، واعبود. التقييد، ص: 3. الصديق حاج أحمد، المرجع السابق، ص: 70.

[2] -Martin, Les Oasis Sahariennes, PP: 76-77

[3]- Ibid, PP: 83 -89.

ف- البرابيش:

البرابيش[1] قبائل رحالة كثيرة العدد، وعدّد بول مارتي في كتابه "من عرب مالي البرابيش بنوحسان" قبائلهم بسبعة وخمسين قبيلة، وكانوا يمتلكون ثروة هائلة من الإبل وقضى الجفاف على جلّها[2]

ص- أولاد إبراهيم:

قدموا من وهران حوالي سنة 1168هـ/564م، وخيموا بالقرب من أولاد أوشن بتيمي، ثم انتقلوا إلى قصرهم المعروف باسم قبيلتهم، والّذي أسسه الشيخ باحمو الديلمي[3].

ق- أولاد عبد المؤمن:

جاؤوا من إفريقية سنة 699هـ/1299م بغرض التجارة فمكثوا بالإقليم وتمركزوا بتخفيفت. وفي السنة نفسها وصل من تيشت (أدرار- موريطانيا) قبيلة الحرازمة واستقروا بدقة، وهو قصر قديم بالقرب من أقبور غير موجود اليوم[4].

ر- أولاد بن عباد:

من نسل الأمير عباد ملك اشبيلية، فبسقوط دولته بالأندلس على يد المرابطين نفي إلى مدينة أغمات وتوفي بها سنة 489هـ/1095م، وانتقل أحفاده فيما بعد إلى الواحات الصّحراوية. فقدمت سنة 741هـ/1340م من تارودانت قبيلة أولاد بني عباد في ألف رجل، وقاموا بمهاجمة قبيلة أولاد مسعود وطردوهم من قصرهم، واستولوا على قصر موسى وأخذوا جميع نخيله وفقاراته، وفرضوا على السكان الّذين كانوا يجلبون الملح من المنجم ضريبة، وبذلك أصبحوا ذوي قوة وثروة ونفوذ[5].

1- **البرابيش:** قبيلة عربية كانت تسيطر على شمال مالي، وكانت تنضوي تحت لوائها مجموعة كبيرة من البطون من أهمها: أولاد يعيش، وأولاد سليمان، وأولاد شبل، وأولاد أحمد، وأولاد إدريس، وأولاد غانم، وأولاد سعيد، وأولاد عمران، وأولاد عمر، والمحافيظ. وينقسم كل بطن إلى مجموعة من الفخوذ، ولهذه البطون فروع أخرى في الصّحراء. واستوطن البرابيش غدامس بليبيا وكانوا قد قدموا إليها كتجار، كما استوطنوا سجلماسة وتوات. محمد سليمان الطيب، المرجع السابق، مج:1، ج: 2، ص: 96.

2- المرجع نفسه، ص: 96.

3 -Martin, Les Oasis Sahariennes, P: 89.

4- Ibid, P: 101.

5- Ibid, P: 109.

ش- الأثواج:

قبيلة عربية تنسب إلى سيدنا أبي بكر الصديق، وتنقسم هذه القبيلة إلى عدة بطون منها أهل الجهوري، وأولاد عابدين، وأولاد سيدي محمد. ويتمركز الأثواج في جنوب الجزائر قرب زاوية كنتة بأدرار، ويتوزعون بين جنوب الجزائر وشمال مالي والنيجر، وهم يمتلكون ثروة هائلة من الإبل، ولهم خبرة بمسالك وطرق الصّحراء، وكل ثروات هذه القبيلة صودرت من قبل المحتل الفرنسي[1].

ت- الدحاحنة:

من أولاد دحان، وصلوا إلى توات عام 1062هـ/1651م[2]، وكانوا يقطنون بقرية ايكيس بتامست؛ حسب ما رواه الرحالة مولاي أحمد بن هاشم العلوي عن الزاوية الركّانية. وانضم أولاد دحان إلى البرامكة وتقووا بهم، ثم كان قدوم مجموعة أخرى منهم من بلاد الأزواد شمال تمبكتو[3].

3- العبيد:

يجلبون من بلاد السودان الغربي، وكل من كان يقع في الأسر أو يختطف يباع إلى التجار فيؤتي بهم إلى بلاد المغرب. وكانت توات تمول أسواق فجيج[4] بالعبيد والإماء[5]. وتزايد عددهم منذ أن استقر العرب بإقليم توات، ولم يخل قصر أو مدينة منهم. وحملت القافلة الّتي رافقها ابن بطوطة سنة 754هـ/1353م، ستة مائة خادم من العبيد[6]. والعامل الّذي زاد من عددهم هو المناخ وطبيعة السكان، فارتفاع درجة الحرارة في فصل الصيف يجعل العمل في فلاحة الأرض وحفر القفارة شبه مستحيل، لما يسببه المناخ من ضعف النشاط البشري والميل إلى الراحة

1- محمد سليمان الطيب، المرجع السابق، مج: 1، ج: 1، ص: 110.

2- Martin, Les Oasis, p: 77.

3- Ibid, P: 86.

4- **فجيج:** هي عبارة عن ثلاثة قصور في وسط الصّحراء، يحيط بها عدد كبير من النخيل، وهي على بعد نحو مائتين وخمسين ميلا من سجلماسة، وتعد ملتقى المسالك التجارية بين المغرب والسودان. الحسن الوزان، المصدر السابق، ج: 2، ص ص: 132- 133. مولاي عبد الحميد الإسماعيلي العلوي، التاريخ الأريج لمدينة فجيج. وجدة: مطبعة دار النشر الشرقية، ص: 6.

5- أحمد مزيان، فجيج مساهمة في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال القرن 19م. المغرب: 1988م، ص: 269.

6- ابن بطوطة، المصدر السابق، ج: 1، ص: 801.

والاسترخاء. والعبيد يتحملون العمل في ظل هذه الظروف المناخية، لذا أقبل أصحاب الأراضي والفقارات على امتلاكهم للقيام بغراسة الأرض وحفر القنوات، وغيرها من الأعمال التي يأبون مزاولتها.

وترجع أصولهم إلى قبائل الفولان، والبامبارا، والمانيقو، والبوبو، والهاببي، وموشي، والهاوسا، والسرفو، والفوتا[1]، ويجلبون من مدن عديدة كبورنو[2]، وكوبر[3]، وتمبكتو[4]. ويباع الفولان، والبامبارا، والمانقيون، والبوبو، والهاببي، والموشي، بأثمان رخيصة إذ ليس لديهم أي استعداد للعمل، بينما قبائل الهاوسا، والسرفو، والفوتا فكانت أسعارهم جد مرتفعة. واشتد الطلب على الإماء الحبشيات اللواتي كن محضيات[5]. وتعمل الجواري إلى جانب العبيد في البساتين، فيجمعن التّمور خلال موسم الحصاد، وتلتقطن التّمور التي تتساقط من النخيل إثر الرياح الهوجاء التي كانت تعصف بالإقليم. ويزوج الملاك عبيدهم من الخادمات للحفاظ على سلالة العبيد، كما يسمحون لهم بممارسة الزنا لغرض استكثار جنسهم[6].

وكانت حالتهم ووضعيتهم الاجتماعية جد سيئة، إذ لم يهتم أسيادهم بحالتهم في مأكلهم وملبسهم وصحتهم، لذا اضطروا إلى تأمين حاجياتهم ومتطلباتهم عن طريق السرقة والنهب. وكانوا عرضة للأمراض الفتاكة، وأصبحوا مدمنين على الشّمة والكيف الذي كان يضر بصحتهم[7]. ويزاول العبيد كل الأعمال الشاقة من الزراعة

---

[1]- Selka, Op.Cit, P: 524.

[2]- **بورنو:** إقليم كبير يتاخم وانكرة غربا، وهي إقليم نيجيريا الشمالية الحالية، يسكنها قوم متحضرون وتجار أجانب من السود والبيض، لا ديانة لهم ويشتركون في النساء والأولاد، وليس لهم أسماء خاصة فيدعى الشخص بصفته الخلقية كالطويل والقصير، حاكما شديد البأس يستبدل السلع بالعبيد. الحسن الوزان، المصدر السابق، ص ص: 175- 177.

[3]- **كوبر:** تقع على بعد نحو ثلاثة مائة ميل شرق كاغو، يسكنها رعاة الغنم والبقر وبها العديد من نساجي القماش، استولى عليها أسقيا تمبكتو وأثقل السكان بالضرائب. المصدر نفسه، ص ص: 170- 171.

[4] - **تمبكتو:** بناها الملك مسنا سليمان سنة 610هـ/1213م على بعد اثني عشر ميلا من أحد فروع النيجر، وملكها عدو لليهود. ويستهلك بها اللبن والسمن بكمية كبيرة، وبها العديد من القضاة والفقهاء والأئمة، ويدفع لهم الملك مرتبا حسنا وهو يعظم الأدباء. وتباع بها مخطوطات كثيرة تأتي من بلاد البربر، وتدر أرباحا تفوق أرباح سائر البضائع، وتستعمل قطع الذهب بدلا من العملة، والودع لشراء الأشياء البسيطة، وبها العديد من العبيد. المصدر نفسه، ص ص: 165- 167.

[5] -Selka, Op.Cit, P: 524.

[6] -Ibid, P: 524.

[7]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 35.

والرّعي وحفر الفقارات وحمل فضلات البهائم على ظهور الحمير إلى البساتين، وحراسة حيوانات وممتلكات السيد. وإثر المعاملة السيئة التي كانوا يتلقونها من قبل ملاكهم كالضرب والتمثيل بهم[1]، جعل العديد منهم يهرب، واشتهرت كل من تيمي وبودة بهروب عبيدها جراء سوء المعاملة[2].

ويقول سلكة عنهم: "أنّهم كانوا غشاشين ومحتالين وخبثاء ومكرة وسراق، فهم لا يعملون إلاّ تحت الحراسة والمراقبة"[3]. وأما وضعيتهم الاجتماعية فلم تتحسن مقارنة مع فئة الحراثيين. واعتنقوا الإسلام وأصبحوا يشكلون شريحة هامة في المجتمع التواتي، ومنهم من كان يحفظ بعض مصادر الفقه المالكي[4]، وهناك رسالة بشأنهم ألفها التمبكتي سماها "الكشف والبيان لحكم مجلوب السودان" يقول فيها ردا على سؤال سيدي سعيد قدورة الجزائري بأنّ العبيد مسلمون لا يجوز امتلاكهم[5].

4- الحراثون:

هم فئة رابعة في المجتمع التواتي، يأتون بعد الأشراف والمرابطين وطبقة عوام السكان من الزناتين والعرب. وأصل الحراثين من كلمة "الحر الثاني"، وهم أولاد الأحرار من الجواري، ذوو بشرة سمراء إلى حد السواد، وخاصيتهم أنّهم أحرار[6]. وزعم بعض الكتاب أنّ الحراثين أصلهم بربر سود، ويقول آخرون أنّهم بين البربر والسودان مثلهم في ذلك مثل "الميلانوكيتول" عند القدماء، ويرى فريق ثالث أنّهم البقية الباقية من الجنس الأسود المعروف بـــ"الكرماني"[7].

1- تشير نازلة أنّ رجلا قام بفقع عين عبده، وعن آخر مثّل بعبيده. البلبالي محمد بن عبد الرحمن، غنية مقتصد السائل فيما وقع بتوات من القضايا والمسائل. نسخة مصورة بمخبر المخطوطات بكلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية بجامعة وهران. باب الحرابة والدماء وما يشبههما والردة والسرقة والزنا، و: 725 .

2- المصدر نفسه، باب الدعاوي والإيمان، و: 686.

3 -Selka, Op.Cit, P: 525.

4- أحمد الحمدي، المرجع السابق، ص: 26.

5- التمبكتي، الكشف والبيان لحكم مجلوب السودان. نسخة مصورة بمكتبة أ/أحمد الحمدي، و و:1- 2.

6- الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية، ص: 86.

7- ايفر، البربر. دائرة المعارف الإسلامية. ترجمة إبراهيم زكي خورشيد وأحمد الشنتاوي وآخرون. القاهرة: كتاب الشعب، مج: 6، ص: 575.

وانتشروا في عصور مختلفة داخل السوس[1] ودرعة ووصلوا إلى فجيج والريغ حيث يسمون برواغة[2]، ونقل الكثير منهم إلى الشمال في العهد الإسماعيلي فانظموا إلى ما كان به من الصّحراويين الحراثين. وكان محمد بن العياشي القاضي المكناسي وزير السلطان إسماعيل هو المشرف على دواوين فيلق الحراثين. ويمكن كلمة حرثان أن تكون مقتبسة من اسم نوع من التّمر مشهور في واحات الصّحراء الغربية، وذكر صاحب الاستقصا أنّ معناه في عرف أهل المغرب العتيق. واشتقاق الكلمة هو مجرد تخمين، لأنّ البعض يرى أنّ أصل اللّفظ بربري وهو احرضان، ومعناه هجين أي اسمر بين البياض والسواد[3].

وكان عددهم في البداية قليلا، ثم كثروا وأصبحوا يشكلون فئة قائمة بذاتها، وتساوى عددهم بعدد البربر والعرب مجتمعين. وأمدنا دبورتر(Deporter) بنسب السكان في توات خلال القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي، فكانت نسبة الزناتة 8،570%، والشرفاء 10،081%، والحراثين 33،227%، والعرب 25،506%، والعبيد 17،624%[4]. ومن خلال هذه النسب يتبين لنا أنّ أعدادهم كانت كبيرة فاقت بذلك عدد الزناتة والشرفاء والعرب. ويزاول الحراثون أعمالا مختلفة منها غراسة البساتين والجنان، وحفر الآبار، ورّعي الجمال والأغنام، وبناء المنازل والقصبات، كما اشتغلوا ببعض الحرف اليدوية كدباغة الجلود، وصناعة الأواني الفخارية، وبيع اللّحوم، وتعليم الأطفال بالكتاتيب[5].

واستغل الحراثون كخماسين في البساتين والجنان، وكانت وضعيتهم أشبه بحالة الاسترقاق، فهم لا يجدون ما يفعلون بحريتهم سوى البقاء عند أسيادهم مقابل

---

[1]- **السوس**: توجد في أقصى بلاد المغرب، وهي مدينة جليلة جامعة لكل خير، وأهلها أخلاط من البربر والمصامدة. وهي بلاد السكر، وإليها ينسب الإمام محمد بن تومرت. الحميري، المصدر السابق، ص: 329.

[2] -Martin, Quatre Siècles, P: 28.

[3]- الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية، ص: 87.

[4] -L. Rouire, Le Sud Ouest Oranais Et Le Touat. Revue De La Société Et De La Géographie D'Oran, 1891, P: 364.

[5]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 35.

سدس الإنتاج[1]، وليس الخمس كما في أصل التسمية خماسين. ولم يمنعوا من حق الملكية كما هو الشأن في بعض قصور تافيلالت كقصر الكارة مثلا، بحيث لا يتمتع بهذا الحق غير الشرفاء وأفراد قبيلة آيت عطا[2].

وتميزوا عن بقية أفراد المجتمع التواتي بحبهم للعمل والمثابرة عليه، وكان أسيادهم يعطونهم قطعة صغيرة من أرضهم[3] وغالبا ما تكون مهددة بالسبخة، ومقابل هذه الملكية يقوم الحرثاني بخدمة أرض سيده والإشراف عليها. وكانوا يقومون بكل الأعمال التي يأبى الأشراف والمرابطين والأحرار القيام بها، وهم يشكلون فئة نشيطة مواظبة على العمل، عكس الأشراف والأحرار الذين ينظرون إلى العمل كشيء حقير، ممارسته تؤدي إلى الحط من شأنهم ومن مكانتهم الاجتماعية، فشكلوا بهذا المنطق فئة خاملة تعتمد على جهد الحراثين والعبيد. وكان الشرفاء والأحرار ينظرون إليهم نظرة تعال وغرور واحتقار[4].

5- اليهود:

استقر اليهود المهاجرين قبل الفتح الإسلامي بالجنوب الجزائري بقصور توات، وورقلة وجانت وتقرت[5]. وعرف إقليم توات هجرات يهودية مبكرة على كل من تخفيفت وتمنطيط. ويذكر جاكوب (Jacob) في كتابه يهود توات أنّ المنطقة شهدت عدّة هجرات يهودية، أولها كانت في القرن الثاني الميلادي وهي مؤرخة بتاريخ 132م/135م، والثانية كانت سنة 289م وانطلقت من السيرانيك، أما الهجرة الثالثة فقد انطلقت من الموصل سنة 543م،[6]، كما انطلقت هجرة رابعة من بلاد

---

[1] - Selka, Op.Cit, P: 523 .

[2]- أحمد مزيان، المرجع السابق، ص: 266.

[3]- Selka, Op.Cit, P: 523.

[4]- J. Despois, R. Raynal, Géographie De L'Afrique Du Nord Ouest. Payot, Paris: 1967, P : 453.

[5]- فوزي سعد الله، يهود الجزائر هؤلاء المجهولون. الجزائر: شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، ص: 39.

[6]- Martin, Les Oasis, P: 85.

الأندلس في القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي[1]. وأبرز الهجرات اليهودية كانت إثر سقوط غرناطة سنة 898هـ/1492[2].

واليهود أقل شريحة بتوات، وجودهم مرتبط بالتجارة، وكان استقرارهم بتمنطيط، وتاسفوت، وتخفيفت، وتيطاف، وغرمعلي، وتمزغت، وتزلت، ووجودهم الحقيقي كان بتمنطيط، بحيث يذكر محمد الطيب أنّه كان بها ثلاثة مائة وستون صائغا يهوديا[3]. وجاء في رحلة الشريف مولاي أحمد بن هاشم أنّ المرابط سيدي يوسف أخبره بأنّ اليهود كانوا السكان الأوائل بتوات، كما كانوا أمة خلال سنة 260 هـ/905م، وذكر في الرّحلة أيضا أنّ مولاي أحمد زار زاوية عبد الكريم المغيلي بواحة بوعلي، فاطلع على مؤلفات الشيخ، ووجد معلومات تفيد بأنّ الواحات التواتية لم تكن تخضع لأي حاكم أو سلطان، فكل واحة بها يهودي مطاع ومحترم من قبل الجميع[4]، وهي بذلك تدخل في نطاق بلاد السيبة.

وينقسم يهود توات إلى ثلاثة أقسام: قسم يشمل اليهود الأصليين الّذين كانوا من أهل الذمة والمشرفين على قضايا جاليتهم، وهم الّذين عاثوا في الأرض فسادا. والقسم الثاني يشمل اليهود الأصليين الّذين اعتنق آباؤهم وأجدادهم الإسلام واندمجوا مع المسلمين، وكانوا يترددون على المساجد ويصومون رمضان ويعرفون بالمهاجرية أو المهاجرة[5]، وتجري عليهم أحكام المسلمين. وأما القسم الثالث فهم الّذين كانوا يعرفون بالغلائف، والتحق قسم المهاجرة والغلائف إلى بني ملّتهم عندما أثيرت قضية يهود توات[6]. ولم يختلط المهاجرون مع سكان الإقليم إذ كانت علاقات

---

[1]–Jacob Oleil, Op.Cit, P: 17.

[2]– فوزي سعد الله، المرجع السابق، ص: 40.

[3]– محمد الطيب، المرجع السابق، ص: 14.

[4]- Martin, Quatre Siècles, PP: 76-77.

[5]– **المهاجرية:** اسم يطلق على الإسلاميين أوالمسلمانين من اليهود، وهم الّذين اعتنقوا الإسلام وكونوا طائفة على حدة. ويتواجدون في توات ومناطق صّحراوية أخرى مثل تقرت، وقد سموا بذلك الاسم لأنّهم هاجروا من دينهم إلى الإسلام. الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية، ص ص: 203– 204.

[6]– المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص: 90.

المصاهرة والزواج لا تتم بينهم وبين السكان المحليين، وكان لأهل الذمة عاداتهم وتقاليدهم الخاصة بهم[1].

وسيطر اليهود خلال القرون الوسطى على واحات توات وبسطوا نفوذهم على كل النشاطات الاقتصادية والسياسية والأمنية والقضائية، ولم يعد للتواتيين أي سلطة بالإقليم. ولاحظ هذا الشيء المغيلي سنة 870هـ/1465م، بحيث وجد جالية يهودية طاغية بمالها وثرائها الفاحش الّذي اكتسبته بالربا[2]. وتسلط يهود توات على السكان وأخضعوهم لإرادتهم وخدمة مصالحهم الخاصة، وكان ذلك بدعم بعض قبائل وزعماء القبائل التواتية بتمنطيط، لأنّ اليهود كانوا في حمايتهم مثل قبيلة أولاد علي بن موسى الّتي كانت تمنع عنهم ظلم البربر الّذين طلبوا منهم الدخول إلى الإسلام أو دفع الجزية[3].

ووصل مكرهم إلى النيل من عواطف المسلمين والاستهزاء بدينهم وكرامتهم، كاليهودي الّذي كان متنكر في زي إمام مسلم يصلي بالمسلمين طيلة أربعين سنة، واتضح أمره على يد المغيلي فقتله[4]. ونفس الشيء لاحظه الرحالة الجنوبي مالفانت(Malfente) الّذي وصل إلى قلب السودان الغربي سنة 851هـ/1447م فيقول: "يتكاثر اليهود هنا بتمنطيط وتسير حياتهم في سلم تحت ظل الرؤساء الّذين يدافع كل واحد منهم على أتباعه، ولهذا يتمتع اليهود بحياة سهلة وتسير التجارة بواسطتهم ويضع الكثيرون منهم ثقتهم فيهم"[5].

وبعد وفاة المغيلي عاد اليهود إلى توات، بمساعدة القبائل العربية الّتي كانت تتكفل بحمايتهم، وأعاد لهم الشيخ عمر بن عبد الرحمن التمنطيطي جميع ممتلكاتهم وأغراضهم، واستقروا بتمنطيط[6]. إلاّ أنّ أعدادهم قلّت على ما كانت عليه في

---

[1] Martin, Quatre Siècles, P: 28.

[2]- يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط:1، 1995م، ج: 2، ص: 146.

[3]- أحمد الحمدي، المرجع السابق، ص: 28.

[4] -Selka, Op.Cit, P: 530.

[5]- يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص: 146.

[6]- L. Boualga, Abdelkrime Meghili. Bulletin De La Société De Géographie Et D'Archéologie D'Oran, 1980, P: 8.

السابق، وتقلصت تجارتهم. وأحدات توات انتهت بطرد اليهود من الصّحراء وتهديم معابدهم والقضاء على احتكاراتهم وسطوتهم على الناس، والبقية الباقية منهم انتحلوا الإسلام واندمجوا مع بقية عناصر السكان. ورغم أنّ التجارة الصّحراوية اليهودية شهدت ازدهارا في العهد العثماني، إلاّ أنّها لم تبلغ ما كانت عليه من قبل حرب المغيلي[1].

II- المبحث الثاني: الطبقات الاجتماعية

1- فئة الخاصة:

تضم فئة الخاصة الكبراء والأعيان وأصحاب الجاه والنفوذ من رؤساء شيوخ القبائل والمقاطعات، الّذين تمتعوا بكامل الصلاحيات في تسير شؤون الإقليم دون تدخل من المخزن. ولكل مقاطعة من مقاطعات توات رئيسا أو شيخا يتولى شؤونها الإدارية والاقتصادية، ويساعده في أداء مهامه على أكمل وجه مجموعة من الأعوان والموظفين. وتشمل فئة الخاصة أيضا الأشراف والمرابطين أصحاب الأراضي الواسعة. وفئة القضاة والعلماء الّذين كرسوا جهودهم لخدمة الأهالي من حل نزاعاتهم ومشاكلهم وتفقيههم في أمور دينهم ودنياهم، فكانوا محل ثقة كل الناس وتمتعوا بمكانة سامية ومرموقة شأن الأشراف والمرابطين. كما تضم فئة الخاصة كبار التجار من البربر والعرب الّذين استطاعوا من خلال تجارتهم مع بلاد السودان أن يجمعوا ثروة كبيرة من الذهب، مما أدى إلى ضرب العملة بعدما كانت تتم المعاملات التجارية بالمبادلة والمقايضة.

وأما فئة العامة فتشكل غالبية سكان توات، وتندرج تحتها قبائل البدو الرّحل أصحاب المواشي والمزارعين من طبقة الحراثيين الّذين يعملون عند ملاكي الأراضي من الأشراف والأحرار، وفئة الحرفيين المنتشرين في الأسواق، وفئة

[1]- فوزي سعد الله، المرجع السابق، ص: 94.

العبيد الذين سخروا لخدمة الأرض وحفر الفقارات، وكل الأعمال الشاقة التي يأبى الأسياد ممارستها.

أ- رؤساء القبائل والمقاطعات:

كان مجلس الجماعة هو المجلس الداخلي، ينظم ويسير شؤون السكان. وكان رؤساء شيوخ القبائل والشرفاء هم أصحاب الرئاسة المطلقة، يمثلون السلطة العليا بتوات، وهم الذين كان لهم الرأي الأساسي في شؤون التنظيم والفصل والإدارة، وعليهم كان يعتمد المخزن في تسيير شؤون توات[1]. ويعتبر شيخ أكبر المقاطعات شيخا للإقليم، وكان مشايخ تمنطيط يمثلون هذا المنصب إلى غاية نهاية القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي، إذ استأثر به شيوخ تيمي بعد أن انتقلت العاصمة من تمنطيط إلى تيمي، وسبب الانتقال هو الصراع الذي نشب بين القبائل العربية التي تسكن بالمقاطعتين، من أولاد أحمد وأولاد نسلام وأولاد يحي وأولاد غنوم[2].

ويتألف مجلس القبيلة من رؤساء الأفخاذ الذين ينتخبون من بينهم رئيسا لمجموع القبيلة، ويقوم بجانبه مجلس قبلي منتخب يسمى الجماعة، له وحده حق التشريع والبث في الخلافات القائمة بين القبائل، ويشرف عليه رئيس دائم. وتستعين الجماعة برجال الفتوى من الفقهاء، وكانت ترتكز على الأعراف والعادات التي يحكمها الشرع بناءً على قاعدة المصالح المرسلة. أما ولاة الأقاليم المشرفين إداريا على المناطق المختلفة نيابة عن السلطان المغربي، فكانوا يعملون بظاهر الشريعة[3].

وشيخ المقاطعة هو الحاكم الفعلي، وهو بمثابة الجهاز التنفيذي وصاحب السلطة المطلقة، يتصرف في كل الأمور الإدارية والاقتصادية. ورغم بساطة الجهاز الإداري إلاّ أنّه كان يضمن الحياة المنتظمة ويحقق الأمن والسلام لكافة السكان. وقد لاحظ الرحالة البرتغالي المجهول صاحب "وصف المغرب في عهد المنصور

1- أحمد العماري، المرجع السابق، ص: 35.
2- محمد الطيب، المصدر السابق، ص: 28.
3- الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية، ص: 208.

السعدي" مدى إحكام النظام السياسي التواتي بحيث يقول: "إنّ النظام السياسي في توات كان أحكم وأعلى منه في معظم المجتمعات الإسلامية بإفريقيا الشمالية"[1].

ومن مهام شيخ المقاطعة استقبال الوفود والمبعوثين الّذين يصلون إلى الإقليم، كما يستلم الخطابات والرسائل المبعوثة من قبل سلطان المغرب، وعليه الرد على كل المراسلات[2]، ومن مهامه أيضا توزيع الضرائب السنوية الّتي تفرض على مقاطعته من قبل ممثل السلطان الباشا، الّذي لم يكن له أي سلطة وتأثير على الهيئة الحاكمة بتوات، فوظيفته تكمن في فرض الزكاة وجمعها من شيوخ المقاطعات في كل موسم زراعي[3]. وكان مقره بتمنطيط ثم انتقل إلى أدرار بعد انتقال العاصمة إلى تيمي.

وكان مقدار الزكاة عشر الإنتاج[4]، ويكلف السلطان عماله بتحديد مقادير الزكوات والأعشار سنويا من واقع المردود الفلاحي حتى لا يقع إجحاف، وينعدم جمعها في سنة الجفاف[5]. ومن وظيفة شيخ المقاطعة أيضا حماية مقاطعته من الأخطار الداخلية والخارجية، فهو يتعقب اللصوص ويطاردهم، كما يتعقب القبائل الضاربة بالصّحراء الّتي تعتمد على النهب والسلب، فكثيرا ما تعرضت توات للغارات المتكررة من قبل قطاع الطرق، الّذين يقومون بنهب وتدمير وتخريب القصور والواحات، كما يسترقون الأحرار ويبيعونهم في أسواق النخاسة. وكانت القبائل التواتية تتحد فيما بينها لمواجهة الأخطار الخارجية[6].

ويمارس شيخ البلدة مهامه طبقا للعرف والعادات والتقاليد الاجتماعية الموروثة عن السلف، والّتي تتماشى مع التقاليد الإسلامية، ويساعده في أداء وظيفته رؤساء الأحياء ومجلس جماعة البلدة، ويتكون من كبار القوم وأعوان الشيخ يطلق

---

[1]- الموسوعة المغربية، ص: 73

[2]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 27.

[3]- Martin, Quatre Siècles, P: 96.

[4]- Martin, Les Oasis Sahariennes, P: 299.

[5]- الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية، ص: 27.

[6]- Martin, Quatre Siècles, P: 34.

على الواحد منهم الدهمان[1]، وهم عيونه على أحياء المدينة. ولا يوجد بالمقاطعات التواتية جيش منظم يعتمد عليه في رد الأخطار الداخلية والخارجية، بل هو جيش بسيط يقوده شيخ المقاطعة، يتكون من راكبي الخيل والجمال، مسلحون بأسلحة بسيطة جدا، ولقد أمدنا دبورتر خلال القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي بعددهم وهو ما يقارب 400 فارس و10.000 مشاة موزعون على كافة القصور[2].

وسكان توات قليلو الحروب والغارات، يعتمدون في اقتصادهم على العمل في الزراعة والتجارة، بخلاف القبائل البدوية وبعض التوارق الّذي يعتبر نظام الغارة عندهم كنوع من النظام الاقتصادي. ولم تعرف الصّحراء الأمن لانعدام الحصون والأبراج بها، لذا وضع المولى إسماعيل استراتيجية أمنية تمثلت في أن تقوم كل قبيلة برعاية وحماية نفسها والقبائل المجاورة لها[3].

ونظرا لما كانت تتطلبه الحياة اليومية من إشراف وتنظيم في كل الجوانب الدّينية والتعليمية والاقتصادية، اقتضى الأمر تعيين عدد محدود من الموظفين، وهم أعوان الشيخ يعملون تحت مسؤوليته وإشرافه، ويتمثلون في: الوقاف وكيال الماء والبراح ووكيل المسجد والإمام والمؤذن. فالوقاف هو رجل الشرطة في البلدة، مكلف بحراسته أبواب المدينة والتعرف على الغرباء والأجانب واستقبالهم ومصاحبتهم في دار الضيافة، ومهامه أيضا إعلام الأسرة الّتي عليها دور الضيافة. وله أعوان وعيون في القبائل المعادية يخبرونه بجميع تحركاتهم، فإذا تقدم الأعداء من المدينة تدق الطبول إيذانا باقترابهم، فيهم شيخ البلدة إلى حشد الجيوش لمواجهتهم، وله حصة من التّمور والحبوب سنويا وقطعة لحم في كل ذبيحة[4].

---

[1]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 28.

[2]- Bajoli, La Question Saharienne, Oasis De L'Oued Massaoud (Gourara-Touât - Tidikelt). Bulletin De La Société De Géographie D'Alger: 1891, p: 157.

[3]- الموسوعة المغربية، ص: 44.

[4]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 29.

أما كيال الماء فهي من أقدم الوظائف بتوات، يقوم بتحديد نصيب الفرد من الماء، ويقيس ماء الفقارة في بداية كل موسم، كما أنّه رجل خبير يثق به جميع السكان[1]، وله سنويا حصة من التّمر والحبوب. والبراح أو المنادي هو الّذي ينادي في الناس ليعلمهم بما يحمله من أخبار الزواج والجنائز، مكلف أيضا بإبلاغ المتخاصمين بحضور مجلس الحكم عند القاضي[2]، ويتلقى الهدايا والعطايا من الناس[3].

ومن الوظائف الدّينية والتعليمية وكيل المسجد الّذي يشرف على الأموال والأحباس الموقوفة، كما يقيم مراسيم الزواج والطلاق. أما الإمام يؤم الناس ويعلم الصبيان في الكتاتيب، مقابل حصة من التّمور والحبوب، يقدمها له أولياء الصبية عند الحصاد[4]. وللمؤذن الّذي يؤذن عند كل صلاة، وينظف المسجد ويفتحه ويغلقه حصة من التّمر والحبوب سنويا[5].

ب- الأشراف والمرابطون:

***- الأشراف:**

يحتل الأشراف مكانة سامية داخل الإقليم، فجميع السكان كانوا يحترمونهم ويوقرونهم ويتسارعون إلى طلب الرضا والبركة منهم. وكانوا دائما محل الاحترام والتقدير، فهم آل البيت الشريف، لهم نفوذ واسع في الصّحراء وجميع القبائل التواتية تتحالف لنصرتهم والدفاع عنهم، ففي سنة 1008هـ/1599م قدم إلى توات الشريف مولاي أحمد الوزاني، فاستقبله التواتيون بحفاوة كبيرة وقدموا له العطايا والهدايا،

---

[1]- Gilbert Grand Grillaume, De La Coutume à La Loi Droit De L'Eau Et Statut Des Communautés Locales Dans Le Touât Précolonial (Enjeux Saharienne).Table Ronde Du Cresm. Nov. 1981, par: Pierre _Robert Baduel, P: 123.

[2]- البلبالي، المصدر السابق، باب القضاء، و: 629.

[3]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 30.

[4]- البلبالي، المصدر السابق، باب الإجارة والأكرية، و: 439.

[5]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 31.

ولما هاجمه الغنانمة أرجع إليه شيخ الزاوية الكرزازية قافلته وأعيد مكرما إلى المغرب[1].

ويقوم الأشراف بالفصل في النزاعات والخصومات التي تحدث بين القبائل التواتية، ويلجأ إليهم الناس لحل مشاكلهم وخصوماتهم، فهم موضع ثقة جميع السكان. ولهم حظوة كبيرة لدى سلطان المغرب وشيوخ مقاطعات توات، فهم معفيون من دفع الغرامات[2]، وخصص لهم رؤساء توات نصيب من بيت مال المسلمين سنويا إكراما لهم ولنسبهم الشريف[3]. وكانت تبعث لهم الهدايا والعطايا من قبل المخزن، إذ أرسل السلطان سنة 1211هـ/1797م مبلغا من المال إلى جميع الأشراف العلويين المتواجدين بالواحات، وأمر القاضي مولاي بن حشم، والقاضي سيدي باهيا، والطالب عمور بتوزيعها، وقدرت قيمتها بـ 2.500 مثقال، ووزعت على الرجال والنساء والأطفال، وكان التقسيم كآلاتي:

1- أشراف تيط: 56 شخصا.

2- أشراف أولف: 616 شخصا.

3- أشراف أولاد الركاني –المستور، وبريش، وأولاد مولاي محمد–: 1.020 شخصا.

4- أشراف سالي: 2.018 شخصا.

5- أشراف أولاد سيدي حم بن الحاج– تطوين، ومكيد، وأولاد سيدي محمد، وصديق–: 2.700 شخصا.

6- أشراف تامست: 46 شخصا.

7- أشراف فنغيل– تدماين، وتمنطيط–: 1.076 شخصا.

---

[1] الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية، ص: 142.

[2] –Martin, Quatre Siècles, P: 95.

[3] -Selka, Op.Cit, P: 522.

8- أشراف تيمي -تاردالت، ومهدية، وأولاد عبد الحق، وأوجديم، وأولاد مولاي قاسم، ووينة-: 300 شخصا[1].

والملاحظ أنّ الأشراف الأدارسة لم ينالوا من هذا العطاء السلطاني، فاشتكوا إلى السلطان فكتب رسالة سنة 1213هـ/1799م يأمر فيها خدامه بإشراكهم في الهدية المرسلة دون نسيان العجزة والمعوزين[2]، كما تم بعث هدية أخرى سنة 1244هـ/ 1828م ووزعت على الأشراف العلويين والأدارسة، وتلقى كل واحد من العلويين مثقالا ودرهما، بينما الأدارسة حصلوا على خمسة أوقية[3] وموزونتان لكل واحد[4].

ونالت هذه الفئة الإقطاعات الوفيرة من الأراضي الصالحة للزراعة، وامتلكت العديد من العبيد الّذين سخروا لخدمة الأراضي والقصور. ولم يكن الأشراف يزاولون أي عمل لاعتقادهم أن ذلك يحط من قيمتهم ومكانتهم في المجتمع، وأما نظرتهم لفئة الحراثين والعبيد فهي نظرة تعالي وغرور، وهم يرفضون التساوي أو التشبيه بهاتين الفئتين[5]، وهو نوع من التمييز الّذي كان سائدا بالواحات الصّحراوية، وظل مستمرا إلى غاية السبعينات من القرن العشرين. وكان للأشراف بإقليم توات محاكمهم الخاصة بهم[6]، ويتولى فيها الإشراف على مصالحهم أحد رؤسائهم، أو النقيب الّذي كان يعين بظهير سلطاني[7]. ويجب أن يكون النقيب صالحا حسن السيرة متحليا بأخلاق النبي[8] -صلى الله عليه وسلم-.

---

[1] -Martin, Quatre Siècles, P P: 109- 112.

[2] -Ibid, P: 113.

[3]- **الأوقية:** اعتاد الناس منذ العهد الحسني تسمية الدرهم بالأوقية للتمييز بينه وبين الشرعي الذي تضاعف وزنه، والأوقية معناها 600 حبة شعير وتساوي عند الفقهاء 40 درهما أو2.008 حبة شعير. الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية، ص: 47.

[4]- Martin, Quatre Siècles, PP: 135- 141.

[5] -Selka, Op.Cit, P: 522.

[6] - فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 34.

[7]- أحمد العماري، المرجع السابق، ص: 35.

[8]- ينظر كناش التقييد، ص: 62.

***- المرابطون:**

ينتسب المرابطون[1] إلى جد مرابط أو سلالة عالمة، اختص أحد أجدادها بضريح من الأضرحة التي لا تزال قائمة إلى حد الآن، وبركة الجد المرابط سارية في كافة أعضائها، وهذا ما يمدها بمزيد من الاعتزاز والتمييز عن الآخرين. وهم يتمتعون بمكانة مرموقة، محترمين وموقرين من جميع سكان توات ومعفون من دفع الضرائب[2]، ولهم نصيب من بيت مال المسلمين[3] شأنهم شأن الأشراف في ذلك. وجدد سنة 1898هـ/1881م المولى الرشيد – قائد ومسؤول الواحات- في عهد أخيه المولى الحسان وثيقة إعفاء المرابطين بزاوية سيدي حيدة من المكوس والإتاوات[4].

ولا يخلو قصر بتوات من وجود ضريح لأحد الأولياء الصالحين، ويحرص جميع التواتيين على الاحتفال بذكراهم سنويا، وذلك بإقامة الوعدة وتقديم الصدقات. وجاء في خطاب السلطان سليمان الموجه إلى أهل توات والمؤرخ بتاريخ 23 صفر 1215هـ/5 يوليو1800م أنّ توات تتميز بوفرة أهل الفضل والدّين من الأشراف والمرابطين عكس القورارة التي كانت خلو من ذلك[5].

وكان سلاطين المغرب يرسلون في طلب البيعة من أهل توات خاصة من المرابطين، بحيث عثر في زاوية سيدي البكري الخطاب الذي وجهه السلطان عبد الملك في ربيع الثاني 1140هـ/1727م إلى المرابطين من أولاد سيدي البكري، وسيدي محمد، وزاوية كنتة، وأهل عريان الرأس، وأولاد الشيخ بن عبد الكريم، والشيخ بلقاسم، وأبناء الشيخ علي بن موسى في تمنطيط طالبا منهم البيعة، فحرروها له ووصفوه بأمير المؤمنين وحامي الملّة والدّين وخليفة رب العالمين[6].

---

[1]- **المرابطون:** يطلق هذا الاسم في السوس والصّحراء الشرقية والغربية على سلالة المرابطين، أي سكان الرابطات الذين رابطوا في سبيل الله للجهاد والعبادة والاعتكاف، وكانت هذه الرابطات مقامة في الثغور والحدود. الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية، ص: 194.

[2] -Martin, Quatre Siècles, P: 95.

[3] -Selka, Op.Cit, P: 522.

[4]- Martin, Op.Cit, P: 207.

[5]- Ibid, P: 87.

6-Ibid, P: 119.

ج- القضاة:

القضاء هو الفصل في الخصومات بين الناس حسما للتداعي وقطعا للتنازع، ويكون بالأدلة الشرعية، ويتولى هذا الأمر القضاة والقاضي يراعي الشريعة الإسلامية في أحكامه، ويتولى المسائل الخاصة في الزواج والطلاق والمواريث والوصايا وغير ذلك من الأمور التّي وردت فيها أحكام شرعية[1].

ومن العوامل التّي ساعدت التواتيين على تنظيم حياتهم واستقرارها وجود هيئات قضائية تسهر على حل مشاكلهم ونزاعاتهم. ويوجد القاضي في القصور والمدن، ويتم اختياره من قبل شيوخ المقاطعة ويحل مكانة في القرى والضياع البعيدة عن المدن الكبرى شيخ البلدة أو مجلس الجماعة[2]، ويمثل قاضي الجماعة التواتية أعلى سلطة قضائية بتوات.

وللقاضي شروط يجب أن تتوافر به، وهي: أن يكون عالما بالمسائل الدّينية من فقه وتشريع، ذا خلق وسلوك حميد، مالكي المذهب[3]، عارفا بعادات وتقاليد ولهجات السكان من الزناتية والتكرورية[4]، حتى يكون حريصا على الاستماع لأصحاب الشكاوي الّذين لا يحسنون اللّغة العربية.

وتولى منصب القضاء بتوات أشهر رجال العلم والدّين أمثال الشيخ أبي يحيى بن محمد المنياري، وهو أول من اشتغل به، ثم تولاه الشيخ يحيى بن يدير التدلسي[5] وكان قدومه إلى توات سنة 845هـ/1441م، وبعده جاءت عائلتي

---

[1] عصام محمد شبارو، القضاء والقضاة في الإسلام. لبنان: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1982م، ص ص: 32- 33.

[2] الزجلاوي محمد بن العالم، نوازل الزجلاوي. نسخة مصورة بمخبر المخطوطات بكلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية بجامعة وهران، و: 15.

[3] البلبالي، المصدر السابق، باب القضاء، و و: 617- 623.

[4] كان القضاة يشترون العبيد ليعلموهم مجموع اللّهجات التكرورية. وهي من اللّهجات الزنجية الموجودة في حوض السينغال الأسفل. ينظر: فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص ص: 46- 47.

[5] **يحيى بن يدير التدلسي(ت877هـ/1472م):** كان يدرس الصبيان مبادئ اللّغة العربية والقرآن الكريم، عكف على شرح مختصر خليل وفروع ابن الحاجب والمدونة، درّس علم العقيدة والتوحيد وكانت شهرته في الفقه، تخرج على يديه العديد من الشيوخ بتوات. التمبكتي، نيل الابتهاج، ج: 1، ص: 637.

العصنوني[1] والبكري[2] اللّتان احتكرتا هذا المنصب وأخضعاه لعامل الوراثة، ثم برزت عائلة البلبالي الّتي تولى القضاء فيها الشيخ محمد بن عبد الرحمن البلبالي[3] صاحب نوازل الغنية وابنه عبد العزيز[4] من بعده. ويعد منصب القضاء ذا أهمية دينية وسياسية، لذا استوجب أن يوافق السلطان على اختيار القاضي، وذكر القاضي الشيخ محمد بن عبد الرحمن أنّ توليته تمت بعد موافقة السلطان سليمان ثم أقره السلطان عبد الرحمن بن هشام بعد ذلك في منصبه[5].

ومن مهام القاضي النظر في المسائل الشرعية كالطلاق والنفقة والإرث والحلال والحرام، والفصل في المنازعات الّتي تحدث في البيع والشراء، كما يبحث في الشكاوي والدعاوى الّتي تعرض عليه، والمتعلقة بالغش والسرقة والقتل والضرب. ويتولى أيضا الإشراف على الموازين والمكاييل بالأسواق العامة، ويسهر على تطبيق القوانين الشرعية، وكانت كل الأسواق العامة والحوانيت التجارية تخضع لرقابته[6].

---

[1]- تنسب عائلة العصنوني إلى بني العباس القريشي وقيل إلى الحسين بن علي، وأول من تولى القضاء منهم الشيخ عبد الله العصنوني وأخوه بن أبي بكر وذلك سنة 862هـ/1457م. ثم تولى هذا المنصب سالم بن محمد المولود سنة 882هـ/1477م، تولى القضاء سنة 914هـ/1508م، وكان إذا أراد أن يقضي يتخذ رجلين يتلون عليه ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ الآية: 30 من سورة الزمر، ثم يقضي بين الخصمين بما أنزل الله. خلف ولدا اسمه أحمد بن سالم، تولى القضاء بمصر وهو بحر لا ساحل له. محمد الطيب، المصدر السابق، ص: 31،20.

[2]- **أولاد البكري:** هم أهل قضاء في الدولة الإسماعيلية، وآخر قضاتهم الأديب محمد عبد الحق بن القاضي محمد بن عبد الكريم المتوفى عام 1210هـ/1795م. له عدّة فتاوى وشكل مجلس الشورى بتوات الّذي يتكون من أربعة فقهاء لمشاورتهم في القضايا التي تستشكل عليه، وكان بيد كل فقيه سجل يقيد فيه أحكامه وفتاويه. فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 46. البكري بكري، المرجع السابق، ص: 64.

[3]- **محمد بن عبد الرحمن البلبالي(1155-1244هـ/1742-1828م)**: هو أبو عبد الله سيدي الحاج محمد بن عبد الرحمن البلبالي، ولد ليلة عرفة سنة 1155هـ/1742م فلقب بالحاج، من علماء توات. أخذ العلم عن محمد بن عبد الله الونقالي، ومحمد بن عبد الرحمن، تخرج علي يديه العديد من العلماء أمثال أحمد الحبيب بن محمد البلبالي، والشيخ عبد الله بن عبد الله بن عبد الكريم. تولى التدريس والخطابة بجامع أولاد علي بن موسى، كما تولى قضاء الجماعة التواتية، وله اعتناء بجمع ما تحصل عليه من أجوبة علماء توات، فجمع لنا نوازل غنية السائل. توفي ليلة الاثنين 7 جمادى الثانية سنة 1244هـ/1828م. البلبالي، المصدر السابق، و:1-3. وينظر: الملحق رقم:1، ص: 162. ولمعرفة الأبواب التي جاءت في نوازل الغنية ينظر الملحق رقم: 2، ص: 163.

[4]- **عبد العزيز البلبالي (1190-1261هـ/1775- 1845م)**: هو سيدي محمد عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمن البلبالي، ولد يوم الاثنين في شوال سنة 1190هـ/1775م بمسقط رأسه قصر ملوكة من قرى تيمي. نشأ بها وتفقه على يد والده، وعلى يد الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن عمر التنلاني، كان عالما ورعا وأديبا وشاعرا، له اعتناء بالنحو فلقبه والده بسيبويه، قام مقام أبيه في التدريس والقضاء، وخلف لنا فتاوى وأشعار عديدة. ينظر: البلبالي، المصدر السابق، و و: 1- 2. عبد العزيز سيدي عمر، المصدر السابق، ص: 26.

[5]- البلبالي، المصدر السابق، و: 1.

[6]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 47.

وله كتاب يسجل فيه كل القضايا والأحكام التي يصدرها بعد استشارته لغيره من الفقهاء، إلاّ أنّ قضاة العصر الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي استغنوا عن المشاورة واستقلوا بأحكامهم، مع أنّه لا يجوز للقاضي إصدار الحكم دون استشارة غيره من العلماء، إلاّ إذا كان عدلا من أهل الاجتهاد[1]. ويساعد القاضي في عمله الرسول الذي ينادي في الناس، فيأمر المتخاصمين حضور مجلس القضاء، ويتوعد القاضي بالعقاب الشديد كل من يتخلف عن الحضور. وكان النزاع يقع بين المتخاصمين حول الحاكم الذي تقع عنده المحاكمة، فيطلب أحدهم تغيير الحاكم مدعيا أنّه يعرف شهوده وغيره من الحكام لا يعرفونهم[2]، وجاء في إحدى النوازل: "أنّ شخصا ادعى المرض حتى لا يحضر مجلس القاضي للتحاكم في أمر يخصه". وإن صح مرض أحد المتخاصمين عليه أن يبعث بشهود يشهدون على صحة مرضه[3].

واتخذ العوام رفع الأحكام طريقا للتمرد والعصيان عن الحق، فمن لم يجد شهوته عند أحد طلب الرفع، وكان يحدث في حالات فردية أن يستأنف بعض الأشخاص الأغنياء الأحكام التي يصدرها قاضي الجماعة التواتية حينما يراها لا تتفق مع مصالحه في محاكم الاستئناف بتافيلالت[4]، وإذا امتنع السكان من التقاضي أمام القاضي المحلي يذهبون إلى القضاة الثمانية الذين عينهم السلطان المغربي سنة 1318هـ/1892م، وامتد نفوذ اثنان منهما إلى مجموع الواحات، ولم يكن يمثل هيئة استئنافية، فمثّل القاضي سيدي محمد البلبالي من كوسام جميع واحات احامد، بينما مثّل سيدي عبد الله البوداوي واحات سفيان، وذلك تبعا للتقسيم القبلي الذي عرفته المنطقة[5].

---

1 - أشار الشيخ أبو زيد إلى أنّ قضاة قطره وزمانه ابتعدوا عن المشاورة الواجبة عليهم، فنبه العوام لأخذ نسخة من الحكم ليتمكنوا من الإطلاع على أسماء الفقهاء الذين شاركوا في إصداره. ينظر: البلبالي، المصدر السابق، باب القضاء، و: 623.

2- المصدر نفسه، باب القضاء، و و: 629، 643.

3- المصدر نفسه، باب الشهادات، و: 670.

4- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 47.

5- Martin, Quatre Siècles D'Histoire Marocaine, P : 314.

وللقاضي بتوات مكانة سامية ومرموقة، فهو يتمتع باحترام وتقدير جميع الناس، ونظرا لأنّ الشخصيات الّتي تولت هذا المنصب تعد من أشهر رجال العلم والدّين، وتنحدر من أسر كبيرة شريفة أو مرابطة ذات نفوذ قوي لدى الأوساط التواتية الأمر الّذي دفع مشايخ توات ورؤسائها إلى رضاهم التام عنهم. ويتقاضى القاضي مقابل مهامه راتب سنوي من بيت المال، يوافق عليه شيوخ المقاطعات الّذين وافقوا على اختياره[1]. ومن خلال ترجمتنا للشخصيات الّتي تولت منصب القضاء تبيّن لنا أنّهم جميعا علماء وفضلاء، راسخين في العلم محبين للعدل عاملين على تحقيقه.

د- العلماء:

كانت توات منارة علم وسط الصّحراء، مدت بلاد السودان الغربي بالثقافة والحضارة الإسلامية، وأنجبت رجال جهابذة أسهموا في دعم الكيان الحضاري والعلمي. واشتهرت زواياها الّتي جمعت بين التعليم وتقديم المساعدات الخيرية للطلاب الّذين يرتادونها من البلاد البعيدة والقريبة. واهتم التواتيون إلى جانب العلوم الدّينية واللّغوية من فقه تفسير، وتوحيد وبيان، ومنطق ونحو، بتاريخ بلادهم فكتبوا في مناقب أهلها وتواريخها وتجارتها وحياتها العلمية.

فألف الشيخ السيد أحمد بن يوسف التنلاني صاحب زاوية "رزق الله الواسع لعباده النافع" تاريخا مطولا عن أصل أهل توات يقع في ثمانية نسخ، إلاّ أنّ هذه النسخ لم يعثر عليها والواقع أنّها نقلت من أولف إلى السودان[2]. ووصف لنا السيد عبد الرحمن بن عمر التواتي المجاعة الكبرى الّتي جرفت بالإقليم سنة 1070هـ/ 1659م، وكان سببها اكتساح أسراب الجراد الّذي قضى على الزرع ولم يترك شيئا به فحصد الموت الآلاف من السكان[3]. كما ألف الشيخ السيد محمد الطيب بن عبد الرحيم كتابا أسماه "القول البسيط في أخبار تمنطيط" تعرض فيه إلى ذكر القبائل

---

[1]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 45.

[2]- الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية، ص: 12.

[3]- Martin, Quatre Siècles D'Histoire Marocaine, P: 55.

البربرية والعربية التي نزلت إلى توات، وخصص فصلا خاصا أسماه علماء تمنطيط ترجم فيه لأشهر الشخصيات التي تولت القضاء.

وألف في علم التراجم الشيخ محمد بن عبد الكريم القاضي، فترجم في مؤلفه "جوهرة المعاني" لأبرز علماء وفقهاء توات. كما ترجم كل من السيد محمد بن عبد الكريم البكراوي في مؤلفه "درّة الأقلام"، وسيدي عبد العزيز بن عمر في كتابه "قطف الزهرات في أخبار العلماء توات" لأشهر الرجال الذين نبغوا في العلوم النقلية. وحضي العلماء بمكانة كبيرة في الإقليم التواتي، فكانوا يتولون شؤون الفتوى والمظالم بين مختلف عناصر السكان، وساهموا في تسيير شؤون ومصالح الناس، وخصوا بمرتبة عالية، وكانوا محل احترام وتقدير وموضع ثقة جميع الناس[1]، فهم رجال الدّين يسهرون على تنظيم شؤون العامة.

وبلغت شهرتهم الأفق فبرزوا في المجتمع السوداني ليعلموا أهله الدّين الصحيح والمنهج السليم، وكان حكام السودان يحترمون ويوقرون ويمجدون العلماء الوافدين إلى بلادهم، وعرف عن السلطان الحاج موسى أنّه كان يحرص بعد كل صلاة على الملاقاة بالشيخ أبا قاسم التواتي أشهر أئمة جامع سنكري بتمبكتو للتسليم عليه والتبرك به. وكان حضورهم في العواصم الإسلامية قويا كالشيخ أبو الأنوار بن عبد الكريم مفتي تمبكتو، ومحمد بن أحمد الإمام والمدرس ببلدة الأزواد شمال تمبكتو، والحسن بن محمد المدرس بجنوب ليبيا، والشيخ عمر بن عبد القادر الأستاذ بجامع القرويين بفاس، والشيخ عبد الله بن محمد التواتي معلما بمدرسة الباي أبي الحسن باشا تونس[2].

وأما ما ذكره العياشي في رحلته من أنّ توات كانت خلوا من أهل العلم والصلاح بحيث يقول: "لم أجد بتوات أحدا ممن ينتسب إلى ولاية أو صلاح، ولا من أهل العلم والفلاح، وغالب أهلها من عوام أهل التجارة"[3]. والواقع كما تبيّن لدينا أنّ توات كانت مركز إشعاع علمي، برز في كل مركز من مراكزها علماء أجلّة،

---

[1] -Martin, Quatre Siècles, P: 95.

[2]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص ص: 114- 115.

3- العياشي، المصدر السابق، ج: 1، ص: 20.

ساهموا بمؤلفاتهم القيمة في إثراء المكتبات والخزائن، واشتهرت كل من مراكز تمنطيط وبودة وتيمي وتنلان وملوكة بأنها مراكز تعليمية، كما تعد زاوية كنته وخزانة قصر ملوكة أغنى وأعظم مكتبة في المغرب، هذا إلى جانب الخزانات التي تمتلكها عائلة البكري بتمنطيط والتي تضم العديد من المخطوطات النفيسة.

هـ- التجار:

يعتبر موقع إقليم توات مركز تجاري ونقطة عبور القوافل التجارية بين مناطق الشمال، والمناطق المطلة جنوبا على الصّحراء، وكانت التجارة مزدهرة في الصّحراء تنتقل قوافلها باستمرار من شمال المغرب إلى السودان على طول القوافل المحادية لمنابع المياه. وواحات توات كانت عبارة عن ممالك وإمارات صّحراوية صغيرة يسيطر على أقدارها السياسية كبار التجار والأثرياء، وذوو الجاه والنفوذ الدّيني والاقتصادي. وكان التواتيون يشكلون جالية كبيرة تعمل في التجارة بمنطقة النيجر الأعلى، تتولى استقبال القوافل القادمة من الشمال وتوزيع بضائعها على مختلف المدن في السودان. وكانت الطرق التجارية وحجم المبادلات تتغير باستمرار بتغير الأوضاع الأمنية والاقتصادية والسياسية في مناطق العبور، وفي المحطات النهائية، وأزهى عصور التجارة الصّحراوية كانت خلال القرنين التاسع والعاشر الهجري الخامس عشر والسادس عشر الميلادي[1].

ويهتم الناس فيها بصورة خاصة بقوافل التجارة الصّحراوية التي تغدو وتروح بين موانئ الشمال الساحلية ومدينة تمبكتو في أعماق الصّحراء الجنوبية، ومن ضمنها القوافل التي تنطلق من وهران وتلمسان وفاس ومراكش، وتمر على واحات توات في ذهابها وإيابها[2]. وتبدأ القوافل رحلتها في بداية السنة، إذ يتجمع التجار في عدد كبير للسفر وذلك لغرض تأمين الحراسة اللاّزمة ضد هجوم القبائل

---

[1]- عبد الفتاح القاصح، واحات الجريد دراسة في الجغرافيا الزراعية. تونس: منشورات كلية الآداب بمنوبة، 1991م، مج: 2، ص: 39.

[2]- يحي بو عزيز، المرجع السابق، ج: 2، ص: 144.

الغازية، فتصفّف الجمال صفوفا وراء بعضها البعض، وبهذه الطريقة تعبر القوافل الصّحراء الموحشة[1].

ويتولى تجار توات رئاسة قوافلهم بأنفسهم بالاعتماد على الأدلاء والتوارق العارفين بمسالك الصّحراء الوعرة، ويأخذون مقابل ذلك عمولة يقدمها لهم التجار بمصادقة قاضي المدينة، وأغلبهم كانوا من قبائل أولاد زنان وأولاد المختار[2]. وتعد الجمال الوسيلة الوحيدة للسفر ونقل البضائع والسلع والأمتعة. وكان التجار التواتيين يزودون بلاد السودان بمختلف السلع المحلية وسلع الشمال من السكر والقهوة والملابس المطرزة والأسلحة والتّمور والحناء والشّمة، ويأتون بالعبيد وتبر الذهب وسبائكه وريش النعام وبيضه وملح الطعام والسمن ومادة النيلة للصباغة والجلود وبعض الأنسجة الملونة[3]، وغيرها من السلع والبضائع، وجميعها تعرض في أسواق توات للبيع.

ومن التجار من يواصل السير من السودان إلى تافيلالت وسجلماسة ومراكش ليبادل سلعه بالخيل والأسلحة والسيوف والفواكه المجففة والملابس المطرزة، ثم يعود بها إلى توات لعرضها في الأسواق. ويحضر التواتي من أسواق طرابلس[4] وغات القهوة والسكر والفلفل الأحمر. ومن أسواق التل الجزائري السكاكين والمرايا والمجوهرات. ومن بلاد التوارق وقبائل البربر الضاربة جنوب توات الإبل والحمير والخراف والماعز[5]. والسلعة الرئيسية التّي يرغب فيها تجار الشمال الجزائري هي التّمور التواتية بمختلف أنواعها من تين نقور وحرثان وتلمسو وتزرزي، وغيرها من التّمور ذات النوعية الجيّدة والرخيصة، ووصف العياشي في رحلته التّمور التواتية فقال: "وبها من التّمور أنواع كثيرة، ووجدنا التّمر فيها رخيصا"[6].

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج: 2، ص: 259.

[2]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 80.

[3]- يحي بوعزيز، المرجع السابق، ج: 2، ص: 144.

[4]- **طرابلس:** ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان. بيروت: دار صادر، ج: 4، ص: 25.

[5]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص ص: 70-71.

[6]- العياشي، المصدر السابق، ج: 1، ص: 20.

وكانت تجارة القوافل الصّحراوية في السودان الغربي جدّ مربحة، وفرت الرفاه والحياة الكريمة للتجار التواتيين، الّذين كان أغلبهم من فئة الأشراف والأحرار من البربر والعرب، وامتلكت هاتين الفئتين الإقطاعات الوفيرة من الجنان والبساتين والفقاقير، وبما أنّهم يفضلون التجارة على الزراعة قاموا بجلب العبيد لممارسة أعمال الفلاحة وغيرها من الأعمال الّتي يأبون ممارستها. ولتسهيل العمليات التجارية صك التجار العملة بعد ما كانوا يتعاملون بالمبادلة والمقايضة، فأصبحت تتم المعاملات التجارية عن طريق البيع بالنقد وعن طريق مبادلة السلع ببعضها، ومن العملات الّتي كانت متداولة المثقال الذهبي ويساوي 24 قيراطا أو24 خروبة، وهو ما يقابل 4 غرامات ونصف من التبر[1]. وتخضع التجارة بإقليم توات لرقابة القاضي، الّذي يشرف على الموازين والمكاييل الّتي يستخدمها التجار داخل الأسواق. وكان للتجار وكلاء في مدن السودان، وأحياء خاصة بهم في تمبكتو وعلى نهر النيجر[2].

ومن كبار التجار الّذين تزعموا القبائل القائد دحمان الّذي عاش في توات وارثا لرئاسة والده عابدين بن بيروك، وكانت قوافله كقوافل قريش تتردّد بين السودان وتمبكتو والساقية الحمراء ومراكش، وتصل أحيانا إلى جنوب مصر[3]. وكان للكنتيين أمثال أحمد الخليفة المتوفي سنة 1105هـ/1693م، وهو ابن أخ سيدي علي المتوفي سنة 1101هـ/1689م موهبة في التجارة، فجمع ثروة طائلة، إذ كان ينضم استغلال مناجم تغازة وتاوداني وتصديرها نحو توات والسودان. وكان لسيدي الأمين أخو احمد الخليفة الملقب بذي النقاب المتوفي سنة 1130هـ/1717م يعيش داخل المناجم ذاتها، ويشرف على عملية الاستغلال، كما برز الحاج بوبكر بن محمد الّذي كان ينضم ويحرس آزلاي نحو تغازة وتوات[4].

---

[1]- وضع التواتيون موازين ومكاييل لوزن البضائع، فالزكن يساوي لتران أو اثنان ونصف وهو أصغر وزن، والكصعة تساوي 12 زكن، والغرارة تساوي 35 زكن أو ثلاث قصعات، وأكبر وزن الحمل ويساوي غرارتان ونصف علوية. ينظر:

Martin, Quatre Siècles, P : 15.

[2]- أحمد الحمدي، المرجع السابق، ص: 61.

[3]- الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية، ص: 64.

[4]- بول مارتي، المرجع السابق، ص: 148.

والثراء الّذي حصّله التجار التواتيون من تجارة الذهب والعبيد استغل في أعمال الخير والبر والإحسان، وساهم الكثير منهم في تقديم المساعدات للمعوزين والمحتاجين من الفقراء والضعفاء والمساكين. فكانت الأسر الغنية تزود الأسر الفقيرة ــ عندما تنتهي مؤونتها ــ بالتّمر والحبوب[1]، واهتم الأثرياء أيضا بالتكفل والإنفاق على طلبة العلم الّذين يقصدون الزوايا من القصور البعيدة[2]، وكانت الزاوية مكانا لإقامتهم خلال فترة الدراسة. وبالرغم من أنّ المجتمع التواتي طبقي، إلاّ أنّ روح المؤاخاة والتعاطف والتكافل الاجتماعي تسود أفراده، فالجماعة التواتية هي جماعة موحدة في العادات والتقاليد، ذات قيم اجتماعية وأخلاقية ثابتة، وكل الرحالة الّذين زاروا توات لمسوا من أهلها الطيبة والكرم.

2- فئة العامة:

أ- أصحاب الماشية:

يعتبر إقليم توات مكانا غنيا بالمراعي الجيّدة، ورّعي الحيوانات مرتبط بالنشاط الزراعي. ويعتمد البدو الرّحل من البربر والعرب في معاشهم على الرّعي، فاهتموا بتربية أنواع مختلفة من الحيوانات كالأغنام والماعز والإبل، منتجعين مراعي الكلأ في مجموع الصّحراء. ويعد اللّحم غذاءهم الأساسي، أما شرابهم فهو الألبان. ويصنع من اللّبن الزبدة والجبن والسمن. ويعتبر لبن الناقة من المشروبات الجيّدة، وكان التواتيون يذبحون الجمال الكبيرة في السن ليقتاتوا منها، وتتميز لحومها بالصّلابة[3]. وأدى الجفاف إلى نقص الثروة الحيوانية، لذا لجأ التواتي إلى تغذية مواشيه بالعلف المستخرج من التّمر، وبعض الحشائش والنباتات الّتي يتم زرعها في الحقول. ويمتلك التواتيون الماعز بأعداد كثيرة، وهي توفر لهم الحليب الكثير، ويفضل الأهالي لحم الدّمّان(الضأن الحضرية) على لحم إسداو(وهي الغنم

---

[1]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 35.
[2]- الصديق حاج أحمد، المرجع السابق، ص: 47.
[3]- أحمد الحمدي، المرجع السابق، ص: 66.

المستوردة من مالي)[1]. وتعتبر الجمال العنصر الرئيسي في المنطقة بحكم أنّها المصدر الأساسي في الغذاء والمواصلات، وكانت أعدادها متوسطة ليست بكثيرة[2]، وأدى ذبح الجمال لتوفير اللّحوم إلى نقص أعدادها. ويعتمد أهل توات في سد العجز والنقص على الاستيراد، فيؤتي بالخرفان والماعز من الشمال، وباللحوم المجففة من بلاد السودان الغربي[3].

ولا يستطيع البدو تربية نسبة كبيرة من رؤوس الأغنام والماعز والأبقار والإبل، مما جعلهم يقتاتون من جميع أنواع الحيوانات وجلودها. وكان الجوع حليفهم، وتدهورت أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية وأصبحت حياتهم جد قاسية وصعبة، فمهنة الرّعي لم تعد توفر لهم حياة الكفاف والاستقرار كما في الماضي، واضطرت إثر ذلك معظم القبائل الرّعوية إلى الهجرة، كما ترك العديد منهم حياة البدو واتجهوا نحو المدن للعمل في الزراعة والتجارة مع بلاد السودان[4].

ب- المزارعون:

تمثل الزراعة المورد الاقتصادي لدى غالبية سكان إقليم توات، ويتم سقي المزروعات بمياه الفقارات، لأن الأمطار نادرا ما تسقط بالصّحراء. وتشكل الزراعة مصدرا أساسيا للعيش، كما ساهمت في إيجاد بعض الحرف الموسمية كتجهيز التّمور والحناء والتبغ للتخزين، ومن سعف النخيل كانت تصنع مختلف الأدوات والوسائل المستعملة في الحياة اليومية من القفف والسلال والحصير والحبال والمكانس. ومعظم الأراضي الخصبة يمتلكها الأشراف والمرابطين والأحرار، وهم لا يمارسون حرفة الزراعة لما في ذلك من التحقير والحط من قيمتهم ومكانتهم الاجتماعية، لذا يفضلون التجارة مع بلاد السودان الغربي فهي جد مربحة.

وتضم فئة المزارعين الحراثين والعبيد، فهاتين الفئتين مسخرتان لخدمة القصور والأراضي الفلاحية وحفر الفقارات، وهي من الأعمال الشاقة التي تتطلب

---

[1] -Selka, Op.Cit, P: 550.

[2]- أحمد العماري، المرجع السابق، ص: 35.

[3]- J. Despois .R. Raynal, Op.Cit, P: 452.

[4] -Martin, Les Oasis Sahariennes, P: 356.

جهد عضلي كبير. ويعتبر الحرثاني أرفع شأنا من العبد، يقوم بالإشراف على جميع الأعمال. وأهم منتوج تنتجه الواحات التواتية هي التّمور بمختلف أنواعها وأحجامها، ذات جودة عالية تغطي معظم الاستهلاك اليومي للسكان، وإلى جانب التّمور يزرع بالواحات القمح والشّعير وقليل من الذرة، وهما أساس الوجبات الغذائية لعامة الناس، كما تزرع بعض الخضراوات والفواكه مثل الجزر واللّفت والفول والفلفل والكرنب والبصل والطماطم والقرنبيط والقرع والعدس والبازلاء والكمون والبرسيم وحبة الرشد والرمان والتين والعنب والبطيخ[1]. ومن المنتوجات الأساسية التي تصدر إلى الخارج الحناء والتبغ[2].

ولم تلق زراعة القطن[3] أي اهتمام من قبل المزارعين، كما لم يهتموا بتحسين وتنويع منتجاتهم كإدخال بذور جديدة إلى الإقليم، باستثناء زراعة اللّوز التي أدخلت بمقاطعة تيمي وتمنطيط[4]. وكانت وضعية الحراثين الاجتماعية والاقتصادية سيئة جدا، فهم أشبه بوضعية العبيد من حيث الاستغلال.

وعانى التواتيون العديد من المشاكل الّتي كانت تواجههم من حين لآخر، وتمثلت في مرض خطير يصيب النخيل يعرف بـــ"البيوض" الّذي يشق جدع النخيل وينتقل هذا المرض عن طريق غرس الفسائل المصابة، وعن طريق عمليات الحرث، كما ينتشر أيضا عن طريق الأدوات المصنوعة من أجزاء النخيل كالحبال والسلال. ويتسبب البيوض في هلاك النخيل، مما يؤدي إلى هجرة السكان من الواحات المصابة وزحف الرمال عليها[5].

---

[1]- Selka, Op.Cit.P: 550.

[2]- **التبغ:** هو نبات حولي، يصل طوله نحو 1.2 إلى 1.8م، ينتج حوالي 20 ورقة يبلغ طولها من 60 إلى75 سم، وعرضها من 35 إلى 45 سم، ولونه أخضر فاتح إلى الغامق. يزرع في توات الوسطى وزاوية كنته، والّتي تعد السوق الرئيسية له، يستعمل للشّم ويدخن في الغليون. الموسوعة العربية العالمية، ج: 7، ص: 79. Martin, Les Oasis, P: 310.

[3]- **القطن:** تأتي زراعته في المرتبة الثانية بعد زراعة النخيل والحبوب، يزرع في جميع المقاطعات، ويصنع منه الملابس القطنية. ينظر: Martin, Op.Cit, P: 310.

[4] -Selka, Op.Cit, P: 550.

[5]- عبد الفتاح القاصح، المرجع السابق، ص: 224.

وكان لمناخ توات الصّحراوي الجاف تأثير سلبي على الحياة الاجتماعية والاقتصادية، فندرة تساقط الأمطار وارتفاع درجات الحرارة يؤديان إلى حدوث الجفاف، فتتقلص بذلك نسبة الأراضي المزروعة، ولولا نظام الفقارة لما استمرت الحياة بالإقليم. وشهد الإقليم خلال فترات متعاقبة هجوم أسراب الجراد، الّذي كان يقضي على جميع المحاصيل من التّمر والحبوب، لتحل بعد ذلك المجاعات والأوبئة، ويبدأ الموت بحصد الفقراء والمساكين رجالا ونساء وأطفالا.

ومرت توات بفترات ضيق وشدة في حياتها الاقتصادية، نتيجة للعوامل الطبيعية كالجفاف الّذي يعقبه قحط ومجاعة، أو نزول أمطار طوفانية في وقت جني التّمور فتفسد غلتها، أو رياح إعصارية تطيح بعدد من النخيل، وأخطر شيء تعرض له الإقليم هو هجوم الجراد من حين لآخر، والّذي يتكاثر مع ارتفاع درجات الحرارة فتحسن الجو يؤدي إلى تزايده وتكاثره، كما أنّ الرياح كانت تحمل عددا هائلا منه، وتطرح الأسراب الأولى الغازية البيض، وخلال عشرة أيام تأتي مرحلة التّفقيص ويصعب معالجة ومكافحة جميع البؤر الموبوءة. ولا بأس أن نتعرض لذكر بعض هجماته خلال العصر الوسيط ثم نبيّن أهمها خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، فاكتسح الواحات سنة 778هـ/1376م وتسبب في إحداث مجاعة رهيبة، ومات الكثير من الأهالي جوعا[1].

والظاهرة نفسها تكررت سنة 795هـ/1392م، بحيث لم يعد يتوافر إنتاج التّمور وغاب نهائيا من الواحات، وحسب ما ذكره العموري أنّه: "أصبح بتوات نخلتان تنتجان التّمر واحدة بنومناس بتمنطيط، والأخرى بركّان". وحلت بتيمي سنة 839هـ/1435م مجاعة رهيبة، وأكل الجراد كل المحصول وبيع التّمر والشّعير بنصف مثقال ذهب، ووقع سنة 900هـ/1494م وباء قاتل[2]. وشهد الإقليم سنة 1017هـ/1608م محنة عصيبة فتكت بالأهالي، وحلّت مجاعة قاتلة، ومات الناس

---

[1] -Martin, Les Oasis Sahariennes, P: 113.
[2] -Ibid, PP: 115- 125.

على إثرها جوعا، فبتيمي توفي حوالي 460 شخصا، واضطر الباقي إلى أكل لب النخيل[1].

وهذا يبيّن أنّ الأهالي لم يكونوا يتخذوا التدابير اللاّزمة لمواجهة الكوارث الطبيعية الّتي كانت تعصف بهم من حين لآخر، فهم لا يعملون على تحسين وتنويع إنتاجهم، ولا يوفرون منه شيء، كما أنّ التواتيين يعملون فقط على توفير حاجاتهم اليومية، ولا يحسبون حسابا ليوم الشدة بعد كل تلك الأزمات الّتي مروا بها، فهم يعملون بالمثل القائل: "أعطيني فطوري أترك لك عشائي"، ويعتقدون أنّ الإنسان آيل للموت والفناء فلا ضرورة للتوفير والتفكير في المستقبل، كما استمروا في بيع محاصيلهم قبل نضجها وبأثمان بخسة[2]، و الجدول التالي يبين ذالك.

السعـــــر الحقيـــقي	الـــــــــوزن	0.40 إلى 0.50 زكن	القمح
1.20	2.800		
1.20	2.200	0.20 إلى 0.25 زكن	الشّعير
0.20	2.000	0.05 زكن	التّمر
0.50	/	0.25 كغ	الحناء

واكتسح الجراد الواحات سنة 1070هـ/1659م وبقي بها لمدة أربعة أشهر يأكل التّمر، ولم يترك شيئا بالجنان والبساتين، وارتفع بذلك سعر التّمر وبيع الرطل بمثقال ونصف ذهب. واستمر تواجده بالإقليم لمدة ثلاث سنوات متتالية، أكل فيها الرطب واليابس، حتى سعف النخيل لم يسلم من ذلك. وخلال هذه الفترة لم يقم الفلاحون بجني أي محصول من التّمر والحبوب[3]، وتسبب الجراد في إحداث أزمة اقتصادية حادّة. ومسّ الأهالي خاصة منهم الفقراء والمساكين والمحتاجين ضائقة،

[1]- Martin, Les Oasis Sahariennes, P: 125.
[2] -Selka, Op.Cit, P: 545.
[3] -Martin, Quatre Siècles, P: 54.

وحلت المجاعة بسائر مقاطعات توات، وكانت من أكبر المجاعات التي عصفت بالإقليم.

ونقل لنا أحداث هذه الكارثة الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن عمر التواتي نقلا عن أبي بكر بن بلقاسم الزقلاوي، وهو من رجال أواخر القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي[1]. فقال: "إنّ المجاعة مست مقاطعة بوده وتيمي وتمنطيط وتامست، ومات الناس جوعا، ففي تيمي مات من الرجال والنساء والأطفال حوالي ألف شخص وذلك في بضعة أيام فقط، وبمكرة كان يموت يوميا خمسين رجلا ومائة وعشرون امرأة من العامة وأكثر من ثلاثمائة وسبعين من فئة الحرّاثين والعبيد، والرجال أكثر من النساء. وارتفعت نسبة الوفيات وتكدس الموتى ولوثت نتنهم الجو، وأكل الناس كل أنواع الحيوانات وجيف الإنسان، كما قطعوا النخيل وأكلوا لبه"[2].

وهاجرت القبائل إثر ذلك إلى الدغامشة والقورارة، وفي العام التالي من الكارثة قدمت قوافل الخنافسة من وادي ميزاب وورقلة وتقرت وبسكرة، أحمال من التّمور فباعوها بأثمان بخسة، ثم توالت قوافل قبائل عريب وعرب آخرين من درعة في نحو ألف جمل يحملون التّمور والشّعير والأصواف. وتواردت أفواج الفلاليين حاملين أعدادا كبيرة من النّوق مثقلة بالشّعير، مع أعداد من الحمير والأغنام. ورغم الضيق الّذي كان يعاني منه أهل الواحات، لم يتوان المعتدون من غزو الإقليم، إذ جهزوا حملة وأغاروا على بوده وخربوا قصورها، ونهبوا وسلبوا واسترقوا السكان، وأبادوا قصورا لم تقم لها قائمة منذ ذلك العهد، كقصر بني دحيان، وقصر حلوان، وبني الأحمر، وقصر بني دحمان. وبعد هذه الأزمة أتى الفرج من عند الله، فأزيحت الغمة وأثمرت أشجار النّخيل، وغرست البساتين بالحبوب والخضر، وعادت الحياة لسكان الواحات من جديد[3].

---

[1]- الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية، ص: 144.

[2] -Martin, Les Oasis Sahariennes, P: 356.

[3]- Martin, Quatre Siècles, P: 55.

وعملت السلطات على منع التواتيين من بيع محاصيلهم قبل نضجها، وذلك بأن تترك حتى تنضج، ثم تباع بسعرها الحقيقي[1]. وعاود الجراد هجومه من جديد على الأهالي في 14 شوال 1174هـ/19 ماي 1761م وقام بالتهام كل محصول القمح ولم يترك بالنخيل أي شيء، لتحل بعدها مجاعة قاتلة في سائر الإقليم التواتي، خاصة في بوده وتيمي وتمنطيط وفنغيل وتيسابيت بالقورارة، وهاجر العديد من الناس إلى الدغامشة ودلدول، ومات الكثير من الفقراء والمساكين الّذين لا يستطيعون شراء ما يلزمهم من المواد الضرورية[2].

وقام أهل الواحات بتقديم المساعدات الضرورية لجيرانهم المتضررين، فقدمت من تافيلالت قافلتان محملتان بالقمح والشّعير، وتبعتها أخرى محملة بالتّمور، كما أحضر أهل الدغامشة وأوقروت والخنافسة التّمور أيضا. وهذا يبين مدى كرم أهل الواحات وطيبتهم، فهم يتسارعون إلى مساندة جيرانهم رغم الخصومات والنزاعات الّتي كانت قائمة بين مختلف القبائل، إلاّ أنّ هذا لم يمنع من تآزرهم وتوحدهم أثناء الشدة. ومع نهاية ربيع 1075هـ/1762م تحسن محصول الحبوب وعاد الخير ليعم جميع القصور التواتية وانبعثت الحياة من جديد[3].

وتكررت المجاعات والمآسي نظرا لطبيعة المناخ الحار، إذ كانت الرياح الحارة الّتي تعصف بالإقليم من حين لآخر تتسبب في حرق سعف النخيل وأوراق الحبوب. فحلت أزمة اقتصادية حادة سنة 1278هـ/1861م بسبب رداءة إنتاج التّمور، الّذي أثر سلبا على الاقتصاد[4]. وهبت خلال هذه السنة رياح حارة أتلفت المحاصيل الزراعية من التّمر والحبوب، فيبست أزهار النخيل وهي في بداية تلقيحها، وتبعت هذه الرياح مجاعة فتكت بالعديد من الفقراء والضعفاء. ومن خلال ما رواه سكان

1- Selka, Op.Cit, P: 545.
2- Martin, Quatre Siècles, P: 55.
3- Martin, Les Oasis Sahariennes, P: 98.
4- Martin, Quatre Siècles, P: 182.

القصور فإن جثث الموتى كانت ملقاة في الأزقة والشوارع، وأصبحت وجوه الناس شاحبة[1].

والكارثة نفسها تكررت سنة 1323هـ/1905م بأسفل توات، ولكي يتحسن الإنتاج كان على الأهالي الانتظار مدة سنتين أو ثلاث كاملة[2]. واقتحم الجراد مرة أخرى الواحات إثر الموجة الحارة من الرياح التي عرفها الإقليم، فغزا الجراد أسفل ميقدن وواد مسعود، وبعد مرحلة تفقيس البيض انتشر بكامل الواحات، وابتداء من مارس إلى جوان من عام 1342هـ/1906م أعلنت حالة الطوارئ في مقاطعة تينركوك، وكان الجراد قد قضى على جميع المحاصيل بهذه المنطقة، وشهدت باقي مقاطعات القورارة خرابا كبيرا، وكانت الخسارة أقل بتوات. وعاد الجراد من جديد في السنة الموالية، وحسب ما ذكره شاهد عيان: "أنّه ألحق كارثة عظمى"[3].

ومن خلال التجربة استنتج أهل الواحات أنّ الجراد يغزو الواحات كل ثمانية سنوات، لذا أصبحوا يعرفون سنة قدومه، ويستمر وجوده بالمنطقة من سنتين إلى ثلاث. وكانت كل غزوة تختلف عن الأخرى من حيث العدد والمدة الزمنية وقيمة الخسائر المترتبة، فتارة تكون الأضرار كبيرة، وأحيانا أخرى تكون أقل ضررا. وكانت النسوة والأطفال يحبون أكله ويكثرون منه، بخلاف الرجال الذين كانوا يحتقرونه ويقتاتون منه فقط لسدّ رمق الجوع لأنّه لا يملئ البطون[4].

ج- الحرفيون:

مارس التواتيون العديد من الحرف والصناعات اليدوية داخل بيوتهم ودكاكينهم، وأهم حرفة اشتهر بها الإقليم غزل ونسج الصوف والقطن، وهو عمل تقوم به النسوة داخل منازلهن. وبرع الصناع في صناعة الملابس الصوفية والقطنية من البرانس والحياك، كما برعوا في صناعة الأبسطة والأغطية المختلفة الأشكال

---

[1]- Martin, Les Oasis Sahariennes, P: 364.
[2]- Ibid, P: 364.
[3]- Ibid, P: 365.
[4]- Ibid, PP: 365-366.

والمقاسات والألوان، و التي تعرف بالدكالي[1]، واكتسب شهرة داخل وخارج توات، وكانت تصنع تقريبا في جميع المقاطعات التواتية في قصور تيمي وبودة وتمنطيط وبوفادي. وبرزت حرفة شعبية بسيطة تزاول في المنازل، وهي صناعة القفف والسلال والحصير والمروحات والمكانس والحبال، ويعد شجر النخيل وسعفه مصدرا أساسيا لصناعة هذه الأدوات. وكانت تستخدم أشجار البلبال والطلحة الموجودة بالمجاري المائية، ومن النخيل غير المثمر في تحضير الفحم النباتي لاستعماله في أغراض الاشتعال والتدفئة، وتميزت جميع هذه الصناعات بالجودة والمتانة[2].

واكتسبت صناعة الفخار أهمية خاصة، سواء من حيث حجم الاستهلاك، أو من حيث تنوع الأدوات المصنوعة، فمن الطين المستخرج من السّباخ تصنع أواني الأكل والشراب من القسري[3] والجلاس[4] والجداح[5]. ويصنع من الطين الخوابي لخزن التّمر والسمن. كما برع التواتيون في الصناعات الجلدية كصناعة الأحذية، وتجليد الكتب والسيوف، والعلب الجلدية[6]. وانتشر في الأسواق التواتية الحرفيون الذين يزاولون في الحوانيت مختلف الحرف، من الحدادة والنجارة والصياغة والعطارة والجزارة. ويتواجد في كل قصر صانع يزاول مهنته الحدادة يسمى بحداد القصر، وهو مكلف بصيانة جميع الآلات اليدوية الزراعية من المناجل والفؤوس، كما يقوم بصنع الحدوات للدواب، وله في نهاية كل موسم زراعي حصة من التّمور[7]. ومن الصناعات الحديدية الفؤوس والسيوف والمناجل والمطارق[8].

---

[1]- يأتي دكالي توات في المرتبة الثالثة بعد دكالي تنركوك وتيميمون بالقورارة، فهو أقلهم خاما وفنا، مقسم إلى أشرطة أفقية، تبدأ بالأشرطة الكبيرة ذات اللون الأحمر، وتتبعها أشرطة أقل عرضا صفراء اللون. ينظر: فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 43.

[2]- المرجع نفسه، ص: 61.

[3]- **القسْري:** هو اسم لإناء مصنوع من الطين، يصنع فيه الكسكس. ينظر: محمد باي بلعالم، الرّحلة العلية، ج: 2، ص: 341.

[4]- **الجلاس:** هو بمثابة الطبق الذي تتناول فيه العائلة الوجبات.

[5]- **الجداح:** يستعمل لتبريد وحفظ الماء. ينظر: Selka, OP.Cit, p: 549.

[6]- محمد باي بلعالم، التعريف ببعض الجوانب من منطقة توات، ص: 55.

[7]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 62.

[8]- محمد باي بلعالم، المرجع السابق، ص: 55.

وكان الدلالون يجوبون بيوت الناس لعرض وبيع سلعهم للأشخاص الّذين لا يستطيعون الخروج إلى الأسواق. وجاء في نوازل الغنية أنّ الدلال إن ادعى تلف بعض السلع الّتي في حانوته عليه ضمانها، إلاّ في حالة ما إذا كان معروفا بالخير والصلاح فلا شيء عليه، والشيء نفسه بالنسبة للسماسرة والمأمورين والوكلاء فهم لا يضمنون شيئا لأنّهم أمناء وليسوا بصناع سواء كانوا أرباب حوانيت أم لا[1].

ويستخدم أصحاب الدكاكين الحراثين للقيام بكل الأعمال الّتي يأبون القيام بها. وتخصص اليهود في حرفة صياغة الذهب والفضة، فيشترون الذهب الخام من القوافل القادمة من بلاد السودان ليصنعوه ويحولوه إلى أساور[2] على اختلاف أنواعها وأشكالها، وإلى خلائل وخواتم وقلائد، ويتواجد الصاغة اليهود بأسواق المدن الكبرى كأسواق تمنطيط وأدرار وأولاد اوشن وأولاد إبراهيم وتطاوين[3].

د- العبيد:

أصبحت تجارة الرقيق هي التجارة الرئيسية بتوات إلى جانب تجارة الذهب، وتعتبر بلاد السودان المورد الرئيسي للعبيد المجلوبين إلى توات، وأهم المدن الّتي يكثر بها الرقيق تمبكتو وبورنو وكوبر، وعرف عن ملك بورنو أنّه كان يستبدل العبيد بخيول تجار البربر، فهو يدفع ثمن كل شيء بالعبيد بدل الذهب، ويأخذ التجار مقابل كل فرس خمسة عشر أو عشرين رقا[4].

وكانت رحلة العبيد عبر الصّحراء شاقة وطويلة تصحبها أخطار عديدة كهجمات قطاع الطرق وتقلبات الطقس من العواصف الرملية وشدة الحر والبرد القارص، إلى جانب التعب الشديد وقلة الزاد والمؤونة، وكلها كانت تؤدي إلى موت العديد من الرقيق قبل وصولهم إلى توات وكانوا يعرضون مباشرة بعد وصولهم إلى البيع، ويباع العبد الصغير في السن والإماء بثمن باهض، أما العبد الكبير في السن

---

[1]- البلبالي، المصدر السابق، باب الإجارة والأكرية، ص ص: 447- 448.

[2]- **الأساور:** تعرف بتوات باسم "دباليز". ينظر: Selka, Op.Cit, P:551.

[3] -Martin, Les Oasis, P: 549.

[4]- الحسن الوازن، المصدر السابق، ج: 2، ص: 177.

فغالبا ما يكون ثمنه منخفضا[1]. وبادر أعيان توات إلى تهذيب وتعليم الرقيق بهدف دمجهم في المجتمع التواتي، ونالت الجواري تكوينا منوعا ورفيعا، وارتقى بعض العبيد إلى درجات عليا. وتواجد بتوات نساء عجائز عملن على تعليم الجواري فن الغناء والرقص، ويشترط في المغنية أن تحسن الضرب على الطبل أو آلة أخرى[2].

وللعبيد أحياء خاصة بهم بينها وبين القصور التّي يقيم بها أسيادهم مسافة فارغة لا يسكنها أحد[3]. وتزايدت أعدادهم بعدما كانوا شريحة قليلة، ومن خلال إحصائيات 1323هـ/1905، تبيّن لنا مدى ارتفاع عددهم، وكانت نسبة الذكور مرتفعة عن نسبة الإناث[4].

جنس ذكر	
524	طفل من0 – 12 سنة
396	شاب من13–18 سنة
1،056	شاب من19–28 سنة
619	كهل من 29–45 سنة
300	شيخ من 45 وما فوق
جنس أنثى	
377	طفلة من 0–13 سنة
156	شابة من 14–20 سنة
467	شابة من 21–29 سنة
320	كهلة من 30–45 سنة
159	عجوزة من 45 وما فوق

[1]- أحمد الحمدي، تحديد وضعية عبيد توات من خلال الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان لأحمد بابا التمبكتي. أعمال الملتقى المغاربي الثاني للمخطوطات المنعقد يومي 29– 30 نوفمبر 2004، جامعة منتوري قسنطينة، ص: 5.

[2]- المرجع نفسه، ص: 6.

[3]- أحمد الحمدي، محمد بن عبد الكريم المغيلي، ص: 26.

[4] – Martin, Les Oasis Sahariennes, P: 220

III- المبحث الثالث: العلاقات الاجتماعية

عرف الإقليم التواتي منذ العصر الوسيط لغاية العصر الحديث فتنا وحروبا واضطرابات سياسية، تسببت في إشعالها القبائل التواتية، التي كانت متناحرة فيما بينها من أجل الزعامة والرئاسة، ومما زاد في تدهور الأوضاع الأمنية والاقتصادية الانقسام والتفكك الذي عرفه الإقليم، إذ انقسمت القبائل التواتية إلى قسمين يدعى القسم الأول بقبائل ياحمد، والثاني بسفيان، وشمل هذا التقسيم سائر القطر التواتي. ولم يكن سلاطين المغرب الأقصى يكترثون بأوضاعه الأمنية والسياسية، ولم يدركوا خطورة الأمر إلى مع ظهور أطماع فرنسا اتجاه الصّحراء الكبرى[1].

1- العلاقات الداخلية للقبائل التواتية:

أ- صراع القبائل التواتية:

شهدت مدينة تمنطيط عاصمة الإقليم التواتي صراعا مريرا على السلطة والزعامة، تسبب في إثارته القبائل البربرية والعربية، فكل قبيلة كانت تسعى إلى الاستحواذ على السلطة والرئاسة، وكان الجميع يريد بسط نفوذه على الآخر، واستطاعت قبيلة أولاد علي بن موسى أن تستولي على السلطة بتمنطيط، واستمر ذلك في عائلتهم إلى أن ذهب عنهم على عهد الشيخ بحم، إذ تفرقت الكلمة ولم تستقم لأحد[2]. وكان بين أولاد علي بن موسى وأولاد نسلام خصومات ومنازعات وملاطمات، كما كان بين أولاد يحي وأولاد نسلام صراعات أيضا، بحيث قام هؤلاء بالهجوم على أولاد يحي بغتة في ديارهم بتجعفرت، فصالحهم أولاد علي بن موسى وأسكنوهم بديارهم. وانتزعت قبيلة أولاد غنوم الرئاسة من قبائل تمنطيط، إلا أنّ الحكم لم يطل بأيديهم لأنّ أولاد ملوك اغتصبوا ذلك منهم[3].

وإثر الصراعات القبلية حول الزعامة والقيادة تحولت العاصمة إلى تيمي في نهاية القرن الحادي عشر السابع عشر الميلادي. وكانت تحدث بين القبائل التواتية

---

[1]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 7.
[2]- محمد الطيب، المصدر السابق، ص: 25.
[3]- البلبالي، المصدر السابق، باب الغصب وسائر العدا، و: 362.

صراعات وخصومات حول الفقارات المائية، وترفع الاشتباكات والمرافعات إلى القاضي، إذ تدعي كل قبيلة أنّ الفقارة ملك لها.

ونذكر على سبيل المثال الصراع الّذي نشب بين أولاد الحاج محمد من أهل تمنطيط والمرابطين أولاد السيد البكري، من أجل فقارة كان يخدمها ويرعاها أولاد الحاج محمد، فأرسل أولاد البكري إليهم يطلبون منهم رفع أيديهم عنها ويدعون أنّها من ممتلكاتهم، إلا أنّ أولاد الحاج امتنعوا عن ذلك وزعموا أنّ الفقارة لهم، فترافعوا لدى القاضي عام 1223هـ/1808م، وكانت قد شهدت جماعة أولاد علي بن موسى أنّ الفقارة كان يخدمها السيد عبد الكريم بن السيد محمد بن الشيخ البكري، وهذا معناه أنّ الفقارة ملك لأولاد البكري. وعرف عن هؤلاء المرابطين أنّهم كانوا يخافون من أهل تمنطيط ويتقونهم، فإذا قدم شخص منهم على المدينة لقضاء حاجة ما تعرضوا له وأذوه وضربوه، كما يقومون بطرده ظلما وعدوانا، كذلك أولاد علي بن موسى كانوا يخافون من أولاد البكري، وإذا هموا بأذيتهم وظلمهم فإنّهم لا يرفعون ذلك عنهم ولا يقومون بمعاقبتهم وردّعهم[1].

وكانت القبائل القوية ذات السطوة تعتدي على القبائل الضعيفة، فتنهب أموالها ومتاعها ومواشيها، وإذا اشتكوا إلى كبير قوم المعتدين تعصب لقبيلته، وذلك بعدم تأنيبهم عما بدر منهم من سوء معاملة جيرانهم. وإذا ظفر المعتدى عليهم بالقوم الّذين سلبوهم أغراضهم، أخذوا كل مواشيهم من الغنم نكاية بهم وانتقاما عما فعلوه بهم[2]. وكان اللصوص منتشرين في كل مكان بتوات، ينهبون كل ما يقع بين أيديهم. وورد في نوازل الغنية: "أنّ شخصا اكترى جمالا ليحمل عليها سلعا من فاس إلى توات، فلما بقي له نحو ثلاثة أيام ليصل تعرض له اللصوص وأخذوا الجمال بما فيها"[3].

---

[1]- البلبالي، المصدر السابق، و: 362.
[2]- المصدر نفسه، باب الحرابة والدماء، و: 719.
[3]- المصدر نفسه، باب الإجارة والأكرية، و: 450.

ب- صراع قبائل ياحمد وسفيان:

عصفت بالإقليم التواتي نعرات عصبية خطيرة كادت أن تفتك به، إذ انقسم البلد الواحد إلى قسمين: ياحمد وسفيان، وكل مقاطعة من مقاطعات توات العشر أصبحت تابعة لأحد الصفين، فسبع مقاطعات تابعة لسفيان، وثلاثة لياحمد[1] الذي معظم أتباعه من العرب، بخلاف سفيان فأكثرهم من البربر[2]. وكانت تيمي أكبر مقاطعات توات تابعة لياحمد وكذلك تامست، بينما بوده وتمنطيط وبوفادي وزاوية كنته فهم لسفيان[3]، وهذا التّقسيم وضع على أساس قبلي وليس على أساس عرقي.

وكانت رئاسة قبائل سفيان بيد الشيخ البركة بن بالقاسم بن الحاج، وهو حفيد الشيخ الحاج، ينتسب إلى قبيلة أولاد شبل العربية، وهم قسم من أولاد دليم[4]. قدموا من الساحل وكان نزولهم أول الأمر بأولف بإقليم تيديكلت، ثم انتقلوا إلى قصر المنصور ببودة في منتصف القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي. وانتقلت الرئاسة والزعامة بعد وفاة الشيخ البركة إلى أخيه محمد، ثم إلى ابن أخيه محمد سالم. أما شيوخ تيمي ياحمد فيرجع أصلهم إلى قبيلة دوي منيع، وكان اسم جدهم الأول حمو سومان من قبيلة أولاد عايد، نزل بقصر السبع، ثم انتقل إلى تيمي ليستقر بها[5]، ولم تذكر المصادر سنة قدومه إلى توات.

وأدى النزاع المحتدم بين القبائل التواتية إلى ضرورة اجتماعهم لدراسة الأوضاع الأمنية التي كانت تمر بها المنطقة، خاصة بعد أن أفسد الرحل بالإقليم. ومن بين المجتمعين أولاد يعيش وأعيان أقبور وأعيان أولاد سعيد، والقائد بن الحاج العباس، وأهل توريرت، وأهل تيميمون، وأولاد راشد، وأهل تمنطيط، والخنافسة،

---

[1]-L.Rouire, Op.Cit, P: 363.

[2]- Bajoli,La Question Saharienne, P: 152.

[3] -Selka, Op.Cit, PP: 529-542.

[4]- **أولاد دليم:** يقطنون الساحل الجنوبي حول الدخلة ووادي الذهب، وهم كعرب الجزيرة ينتجعون الكلأ ويربون الإبل، وكانوا يغيرون على القبائل الأخرى لاستياق الإبل، وهم مقاتلون أشداء. يتنقلون في أنحاء الصّحراء للتجارة، ويتبارزون في الفروسية وروح الإثار والسخاء. وأصلهم من القبائل التي كانت تسكن صّحراء السوس، ثم نقل بعضهم إلى مراكش أيام السعديين، وهم من نقلوا إلى الصّحراء لغة الضاد وشيم النجدة والشجاعة والكرم. ينظر: محمد سليمان الطيب، المرجع السابق، مج: 1، ج: 2، ص: 82. الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية، ص: 48.

[5] -Martin, Quatre Siècles, P: 124.

وكان تجمعهم بزاوية سيدي أحمد بن عثمان بتيميمون سنة 1213هـ/1798م. واتفق الجميع على أن يقوموا بتوحيد قواهم لمواجهة جميع المفسدين الّذين كانوا يتربصون بهم خاصة من القبائل المجاورة، كما بادر من جهتهم قبائل ياحمد وسفيان إلى عقد معاهدة سلام في آخر شهر صفر من عام 1224هـ/1809م، وجاء في الاتفاقية عدم تشابكهما، وأن يلتزموا بالمعاهدة المبرمة. كما تقدم كل منهما بالاعتذار عما وقع لأهل تيمي وأهل بودة سنة 1223هـ/1808م، بحيث كان قد قتل من أولاد أحمد وأولاد عرسة وبني تامر بتيمي ستة وعشرون شخصا، ومن أهل بوده عشرين شخصا[1].

واجتمع كل من أعيان بوده سنة 1235هـ/1820م، وقام بتمتيلهم الشيخ البركة بن بالقاسم والشيخ الحسن بن البربوشي، ودرس الطرفان بالاجتماع كل القضايا والمشاكل التي تخص مقاطعتهم من قصر المنصور إلى الكنوس[2]. واتفق المجتمعون على احترام القوانين واتباعها، وكل من يخرج على هذه الاتفاقية فيدفع غرامة مالية، ومن يقوم بجرح شخص فعليه عشرة مثقال، ومن جرح شخصا فيدفع خمسين مثقالا ومن يقتل فمائتي مثقال[3].

وبالرغم من جميع هذه الاتفاقيات المبرمة من أجل تحقيق السلم والصلح بين أهل القصور، اندلعت حرب دامية بين ياحمد وسفيان وكان سببها أنّ رجلا من بوده وآخر من أولاد الحاج قاما بقتل رجل من ياحمد كان في إحدى جنان باعمر بتامست. فتجهز جميع ياحمد للانتقام من قبائل سفيان، ونفس الشيء قام به الآخرون، إذ تكتلوا فيما بينهم، والتحق أهل بوده بأولاد الحاج، والتقى الطرفان سنة 1243هـ/1828م بنومناس[4] في موضع يقال له "الرحال"، وبعد قتال طويل مات من أهل بوده وأتباعهم خمسة وتسعون رجلا[5].

---

[1]-Martin, Quatre Siècles, PP: 124-125.

[2]- **الكنوس:** هو قصر قديم كانت تنتهي به بودة من الشمال ولا أثر له اليوم. Ibid , p:129.

[3]-Ibid, P: 129.

[4]- **نومناس:** هو موضع بتمنطيط يقصده المسافرون للمبيت، فهو بمثابة مأوى. ينظر: Ibid, P: 134.

[5]- Ibid, P: 134.

ولم يحضر الموقعة شيخ بوده البركة بن بالقاسم، إذ كان غائبا في تافيلالت، ولما سمع بما حصل لقبائل سفيان، وأنّهم تكبدوا خسائر كبيرة في الأرواح عزم على أن ينتقم من جميع ياحمد، فاستنجد بقبائل البربر وأحضر معه مائتي رجل من الرحل بقيادة رئيسهم الشيخ إبراهيم أوخزنة، وكانوا ذوي قوة وشجاعة وصلابة. نزلوا بمقاطعة تيمي فخرج أهلها للدفاع عن أنفسهم بمساعدة قافلة من عرب الشمال كانت مخيمة بالقرب من الواحات، واستولى البربر في حملتهم على فنغيل، وأرغموا شيوخ القصر على دفع المغارم، ثم توجهوا إلى أولاد سيدي حم بن الحاج، وواصلو تقدمهم إلى غاية قصر تيلولن بانزجمير. ورفض الشيخ أوخزنة التقدم أكثر كما امتنع عن إيذاء الأشراف خاصة المقيمين بمقاطعة سالي[1].

وتابع البربر هجومهم على أهل الواحات ياحمد، فهجموا على قصر تطوان بأولاد سيدي حم بن الحاج وعلى انزجمير. وصمد ياحمد أمام المهاجمين الذين ألحقوا خرابا كبيرا بهم، بحيث قاموا سنة 1243هـ/1828م بتخريب قصر الأحمر لأولاد يحيي بمقاطعة تامست، وقتلوا بالقصر الأخير تسعة وعشرون شخصا. كما اقتحموا قصر تتاف، وفرضوا المغارم على أهل تاسفاوت، وقاموا بتجهيز حملة أخرى ضد بن تامر الذين واجهوهم بكل قوة وشجاعة، وفقدوا من رجالهم حوالي ثمان وتسعون شخصا. وإثر عودة البربر إلى تافيلالت قاموا بتخريب قصر تنلان بتيمي[2].

ومن خلال ما مر معنا تبيّن أنّه لم يسلم أي قصر من الهجوم والتخريب، وعانت بذلك قبائل ياحمد الكثير من الصعاب والضيق، فقتل العديد من رجالهم وخربت قصورهم وفرضت عليهم الإتاوات، ومع ذلك انتظروا رجوع البربر إلى مواطنهم، ثم جهزوا أنفسهم للانتقام من قبائل سفيان، خاصة من الشيخ البركة الذي استقدم تلك الحملة. فتجمع سنة 1244هـ/1829م جميع ياحمد من تامست والخنافسة

[1]- Martin, Quatre Siècles, P : 134.
[2]- Ibid, P: 135.

وعمور وملوك وعين صالح[1] وأولاد زنان، وقاموا بحصار الشيخ البركة بن بالقاسم لمدة تسعة أيام، ولما قبضوا عليه وهو مختبئ داخل البئر قطعوا رأسه ونزعت قواطعه العليا[2].

ولم تهدأ الحرب بين الطرفين إذ تجهز سفيان مرة أخرى بقيادة أخي البركة محمد الذي تكفل شخصيا بتأديب صف ياحمد الذين قتلوا أخاه، واستنجد بقبيلة بني محمد البربر وبدوي منيع والغنانمة[3]، ووصلت جميع هذه الجموع إلى توات عام 1245هـ/1830م، ولما علم أهل تيمي بوصولهم تجهزوا للتصدي لهم[4]. وإثر الصراع الطويل والعنيف بين الفريقين وما أحدثته تلك الفتنة من خراب ودمار واضطراب، قام أعيان ووجهاء أهل توات بالكتابة إلى سلطان المغرب يطلبون منه التدخل لحل الأزمة التي يواجهها إقليمهم، كما أكدوا عليه ضرورة ردع ومحاربة كل المفسدين الذين عاثوا فسادا في أرضهم. فكتب السلطان سنة 1248هـ/1833م رسالة يأسف فيها عما ألحقه الرّحل بمساعدة سفيان من دمار لقصور ياحمد[5].

وعاود سفيان هجومهم على ياحمد سنة 1262هـ/1847م، بحيث كانت بين سكان تيميمون وبني مهلال البربر مخاصمة ومنازعة، فأرسل صف سفيان إلى أتباعهم في جميع المقاطعات يدعونهم إلى الخروج لقتال ياحمد في ديارهم، وتوحد الجميع تحت قيادة رئيسهم أخي البركة. وأول عمل قاموا به تخريب القنوات المائية والجنان والبساتين التي يمتلكها بنو مهلال، فسارع هؤلاء إلى طلب التعويض من سفيان، وقدرت القيمة بأربعين مثقالا، إلاّ أنّهم رفضوا تقديم أي تعويض، فدب الغضب في قلوب بني مهلال وأقسموا على أن ينتقموا منهم، فخربوا لهم جناناتهم، وعاود أهل تيميمون إفساد زرعهم، ثم اشتبكوا في معركة عنيفة قتل فيها أربعة

1- **عين صالح:** تقع في شرق إقليم توات، وهي تمثل قاعدة إقليم تيدكلت، ومن قصورها: أولاد المختار، وأولاد القاسم، وأولاد الحاج، والساهلا، احتلها الفرنسيون عام 1317هـ/1899م. ينظر: التقييد، ص: 10.

2 -Martin, Quatre Siècles, P: 135.

3- **الغانمة:** هم قبائل رّحل، متواجدين بإقليم فجيج، تمثل قصورهم طريق الذهاب والإياب من إقليم توات وإليه، ومن قصورهم: ابن عباس، وبوخلوف، وابن يخلف، والزاوية الكبرى، وزاوية كرزاز، والمنصور. ينظر: التقييد، ص: 10.

4- Martin, Op.Cit, P: 142.

5- Ibid, PP: 153-154.

أشخاص من سكان تيميمون. واستمرت العداوة بين القبائل التواتية، إذ قام سفيان بتحريض أتباعهم ضد بني مهلال، فقاموا بقطع نخيلهم. وكتب شيخ تيمي محمد بن الحاج إلى أعيان تيسابيت يدعوهم إلى ضرورة وضع حد للقبائل المعادية، وبالفعل لبت القبائل دعوة الشيخ، واجتمعوا بقصر الهابلا وأعلنوا الصداقة والصلح فيما بينهم، وتقرر في الاجتماع رد كل ما سلب ونهب واغتصب[1].

وشمل النزاع والخصام في هذه المرحلة جميع قبائل ياحمد وسفيان من قصر السبع[2] إلى قصر المحارزة، وكانت بين الطرفين معارك عديدة، قتل فيها حوالي أربعة مائة وخمسون شخصا، ونهبت خلالها العديد من القصور، وأصبحت جلها مخربة كقصر السبع وقرارة وتسابيت والدغامشة[3].

وهدأت القبائل بعد تلك الحروب لتعقد معاهدات سلام، فاجتمع سنة 1264هـ/ 1847م أعيان الواحات وشيوخها بزاوية سيدي البكري بتيمي لوضع حل للأزمة التي فتكت بإقليمهم، والتي راح ضحيتها الآلاف من الأبرياء. وكان ممن حضر الاجتماع أهل تيميمون، وأولاد طلحة، وأولاد يعيش تحت رئاسة الشيخ محمد عبد الرحمن من تيميمون، والخنافسة بزعامة الشيخ قدور بن عبد الله، وأهل دلدول برئاسة الشيخ محمد عبد الله بن الحاج المهدي، وأهل تسابيت برئاسة الشيخ محمد المكي، وأعيان بودة وتمنطيط. ومثل أولاد الحاج الشيخ محمد من بودة، وأهل تيمي الشيخ محمد بن الحاج الحسان، واحتكم الجميع على كتاب الله، واتفقوا على أن يكونوا يدا واحدة في السراء والضراء، وصرح الشيوخ والأعيان على أن يوحدوا جهودهم وقواهم لمواجهة الأخطار الخارجية التي كانت تتعقبهم[4].

ويتضح لنا من خلال المعاهدة التي عقدت أنّ أهل الواحات لن يعودوا إلى النّزاع والخصام، لكن هذا ما لم يحدث، إذ بعد فترة هدوء قصيرة عاد التّوتر

---

[1]-Martin, Quatre Siècles, P: 165.

[2]- **قصر السبع:** يوجد بمقاطعة السبع وهو تابع لقبائل ياحمد، كان يسكنه قديما اليهود، ونجد أيضا بهذه المقاطعة قصر قرارة. ينظر: Selka, Op.Cit, P P: 529-530.

[3]- **قصر الدغامشة:** من قصور منطقة القورارة الجنوبية، وأهم قصورها: أولاد راشد، وأولاد علي، والقراشة، والساهلا، والمطرفة. ينظر: التقييد، ص: 6.

[4]-Martin, Op.Cit, P: 167.

والاضطراب من جديد، بحيث تشكل من جهة فريق يدعى باسم "يحيى" ويضم كل من سكان تيمي وسالي وأولاد زنان وعمور وملوك وسكان الساحلا وابرنكان، ومن جهة أخرى توحد كل من أهل بودة وتمنطيط وأولاد الحاج والقدوية فيما بينهم. واندلعت بين الطرفين حروب غير منتهية، قتل فيها حوالي مائة شخص من قبائل سفيان، واستطاع أهل بودة وأتباعهم من حصار المطارفة من قصور الدغامشة، وقاموا بقطع نخيل الواحات، كما نهبوا وخربوا قصر شروين[1]، واستولوا على أوقروت واشتبكوا مع أهل تيمي وأولاد يعيش، وخلال هذه الحروب خربت العديد من القصور والجنانات والبساتين[2].

وكل مرة كان يعود أهل الواحات إلى عقد اتفاقيات سلام وصداقة فيما بينهم بعد أن أنهكت قواهم، فاجتمع سكان أهل تيمي وأهل العايد وحماد وابرنكان وأهل الساحلا والمعيز بتيسابيت لإقرار السلام من جديد، إلاّ أنّ أهل ابرنكان خرقوا الاتفاقية المبرمة، وجهزوا حملة ضد أهل المعيز، فنهبوهم بغتة بديارهم وقاموا بقطع نخيلهم[3]. ووجه السلطان الحسن الأول رسالة إلى أهل قصور توات يعيب فيها عليهم تنافرهم فيما بينهم، وجاء في رسالته: "...ثم بلغنا الآن أنّكم سرتم تتبعون حمية الجاهلية وتتباغضون فيما بينكم، وتتقاتلون وما أعظمها بلية إذ بتنافركم يحصل لكم الخلل في الدّين والأرزاق، وتفتنون به في نفوسكم وصبيانكم وأراملكم وربما يقع به الحداق"[4].

ودعت قبائل سفيان جميع القبائل التواتية إلى الصلح، فأرسلوا إلى أهل سالي، وأولاد سيدي حم بلحاج، وأولاد الحاج بتمنطيط، وأهل بودة وتيمي، ولبت القبائل الدعوة السلمية. وكان للشرفاء دور هام ورئيسي في هذه المعاهدة فعلى شرفهم عقد الصلح[5]، ولا ننسى أنّ الأشراف كانت لهم مكانة سامية ومرموقة لدى جميع أهالي

---

[1]- **شروين:** من قصور منطقة القورارة الواقعة في الجنوب الغربي بتيميمون، وفي القصر زاويتان تاسفوت الكبرى والصغرى. ينظر: التقييد، ص: 4.

[2] - Martin, Quatre Siècles, P: 167.

[3] - Ibid, P P: 168-169.

[4]- ينظر: التقييد، ص: 17.

[5]– Martin, Op.Cit, P: 169.

فهم محل ثقة واحترام يقومون بالفصل في الخصومات والنزاعات، ونظرا انتهم وشرف نسبهم فالجميع كان يرضى بحكمهم وفصلهم.

وضربت هذه الاتفاقية عرض الحائط، فما كاد الأعيان والوجهاء يعودون سورهم، حتى بادر سفيان بالهجوم على قبيلة المعيز وأخضعوهم إلى دفع ك كما قاموا بعدة أعمال تخريبية أخرى، كهدم المنازل، وقطع النخيل، وردم [1]. وسارع أهل آبرنكان بتاسبيت بالهجوم على سكان الهابلا فنهبوهم ا لهم جناناتهم وبساتينهم، وتدخل شيخ تيمي لوضع حد لهذه الأزمة سنة ـ/1854م، طالبا من قبائل سفيان وقف هجومهم وكف أيديهم عن القبائل، كما يعقد الصلح بين أهل آبرنكان وشرفاء الهابلا[2].

وجددت معاهدات الصداقة عام 1257هـ/1870م بين أهل بوده وتمنطيط الحاج وأولاد ملوك وأولاد حم بلحاج وأهل زاوية كنتة وشرفاء ركّان ة القدوية وأهل بوفادي، وأقسم الجميع على تحقيق الوئام والسلام[3]، واتفق عون على تحقيق النقاط التالية:

1- أن تكون جميع القبائل التواتية يدا واحدة وجماعة واحدة.

2- أن توحد جميع الصفوف والجهود ضد المعتدين.

3- أن تكون ثروات أهل توات ثروة واحدة، فيعين بذلك الغني المحتاج، وأن الحروب أسفرت عن تخريب الجنان والبساتين، فحلت بذلك أزمة دية عانى من جرائها أهل الواحات. ومن جهتهم أكد دوي منيع أنّهم سيتكفلون المساعدات لقبائل سفيان[4].

بموجب الاتفاقية الأمان والاستقرار، فأصبح بإمكان القبائل التواتية الدخول رج دون خوف، فالطرق باتت آمنة لبعض الوقت. وفي العام الموالي جددت ة بين أهل بوده ودوي منيع، واجتمع كذلك في نهاية 1258هـ/1871م الغنانمة،

---

[1]- Martin, Quatre Siècles, P: 169.
[2]- Ibid, P: 171.
[3]- Ibid, P: 198.
[4]- Ibid, P: 199.

وأولاد سيدي حم بلحاج، وجماعة بوده، وتمنطيط، وأولاد الحاج في زاوية كنتة، وتكفلوا برد كل ما قد ينهب ويسلب من أهل الواحات[1]. كما جدد سفيان الصداقة فيما بينهم سنة 1313هـ/1895م، وحضر المعاهدة قائدان من قواد السلطان وهما: القائد سيدي محمد سالم بن عبد الرحمان من تيميمون، والقائد سيدي محمد عبد القادر بن بلقاسم من بودة، كما حضر شرفاء أولاد سيدي حم بلحاج، واتفق الجميع على تحقيق السلم والوئام، وعلى ضرورة التوحد من أجل مواجهة الأخطار الخارجية[2].

وكان لصراع ياحمد وسفيان تأثير كبير على الحياة الاجتماعية، إذ ترسخ الكره والعداء بين القبائل التواتية، رغم اتفاقيات السلام التي كانت تعقد من حين لآخر، وكان لهذا العداء تأثير فعال في عادات وتقاليد واحتفالات أهل توات، وبرزت ظاهرة خطيرة في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف بمنطقة بوعلي بزاوية كنتة، فكان الناس أثناء الاحتفال يصطفون صفين متقابلين، صف ياحمد في جهة وصف سفيان في الجهة المقابلة، ثم يطلقون البارود في السماء[3]، وهذا يبيّن مدى الكره الذي استحكم في قلوب الناس.

2- العلاقات الخارجية:

تعتبر معظم قبائل توات عنصرا مستقرا بالصّحراء، يعتمدون في معاشهم على الزراعة والصناعة والتجارة، ويعيشون على ما ينتجه نخلهم من تّمور مختلفة الأنواع والأحجام، وما توفره بساتينهم من قمح وشّعير. واتسمت العلاقات الاجتماعية بين القبائل التواتية والقبائل المجاورة تارة بالصداقة والسلم والمحبة، وتارة أخرى بالسوء، فتندلع الحروب وتحل الفوضى بكامل الإقليم التواتي، وتنهك الأعراض والأموال. وبما أنّ توات مكان استراتيجي هام، وممر للقوافل التّجارية الذّاهبة والآيبة من وإلى بلاد السودان، كان مطمع قبائل الرّحل، الّذين يعتمدون على النهب

---

[1]- Martin, Quatre Siècles, P: 203.
[2]- Ibid, PP: 278- 279.
[3]- الصديق حاج أحمد، المرجع السابق، ص ص: 41- 42.

والسلب في توفير حاجياتهم الضرورية، فأصبح الإقليم مهددا وباستمرار من القبائل الغازية التي عاثت فسادا ودمارا بأهل الواحات.

وبادر سكان توات بعد الخسائر التي تكبدوها في الأرواح والممتلكات إلى عقد معاهدات سلام وصداقة مع القبائل الضاربة بالصّحراء من بربر وعرب، لكن الصلح لم يكن يستمر طويلا، فالرّحل كانوا يخرقون جميع المعاهدات المبرمة، ويعودون إلى الغزو كلما سمحت لهم الفرصة بذلك، فيستولون على القوافل التجارية المحملة بالبضائع النفيسة، مما جعل أهل توات يتذمرون منهم، فيوجهون شكاويهم إلى سلطان المغرب الأقصى ليمنع عنهم ذلك، لكن تلك القبائل لم تكن تكترث بتهديدات السلطان.

وتسببت القبائل الصّحراوية في بث الفوضى بالإقليم، فكانوا يغزون المنطقة ويستولون على كل ما يقع بين أيديهم من الجمال والتّمور والأموال. ورغم الأوضاع العصيبة التي مر بها أهالي توات كالجفاف والجراد، الذي تسبب في إحداث المجاعات والأوبئة، إلاّ أن الرّحل لم يكفوا أيديهم عنهم. فبعد مجاعة التي لحقت بمقاطعة بودة وتيمي وتمنطيط وفنغيل سنة 1175هـ/1767م، قامت قافلة من الساحل سنة 1193هـ/1779م، وتضم قبائل السكارنة وعبدة وأولاد دليم وعريب والبرابيش بالمتاجرة مع أهالي توات، فاشتروا التّمور ثم حملوها على جمالهم، وعندما استّعدوا للرجوع إلى وطنهم، قاموا بالهجوم على تامست، وخربوا عدة قصور منها قصر أولاد يحي الفوقانية وباعمر وسيدي يوسف، واتجهوا أيضا صوب فنغيل، وخربوا قصبة الأحرار وعزّي واعباني وتسفاوت، وبعدها عادوا إلى موطنهم[1].

كما قام البرابيش عام 1211هـ/1796م، بالاستيلاء على جمال أهل تيمي، فاجتمعت الجماعة التواتية لدراسة الوضع، وكتب مولاي حشم إلى المولى سليمان يخبره بما فعله البرابيش بأهل تيمي، فأرسل السلطان من تافيلات القائد حمو الشّرادي وكلفه بمهمة إرجاع الجمال المسروقة، كما قامت جماعة تيمي بكراء رجل من أولاد أهمالي من قصر الجديد بتامست، وتمثلت مهمته في إرجاع الجمال إلى

[1] -Martin, Quatre Siècles, P: 99.

أصحابها مقابل عشرين مثقالا. وفي العام الموالي عاد السكارنة إلى توات وكان عددهم حوالي خمس وستين رجلا، فقاموا بغزو واحات تمنطيط، وقتلوا من أهلها ستة أشخاص، وفقدوا من رجالهم ثلاثة، واستولوا على ممتلكات الأهالي، فأخذوا ستة ماعز وسبعة من العبيد وعشرة من الحراثين. وأمام الصراعات القائمة بين مختلف القبائل التواتية لم تقدم أي مساعدات لأهل تمنطيط، وذلك بإبعاد الغزاة عنهم[1]، وبدل من أن توحد الجهود في ردع المفسدين، كانت القبائل التواتية تتناحر فيما بينها.

وساءت العلاقات من جديد بين قبائل توات وقبائل الرّحل، فتعرض أهل تيمي لهجوم الغنانمة الساكنين بواد الساورة سنة 1232هـ/1816م، فنهبوا قصورهم وخربوها. وبعد ثلاث سنوات من الحملة عاودوا هجومهم على أهل الواحات، فخيموا برّكان، واقتحموا قصور أولاد باحمو وأنزكلوف وسالي، كما خربوا قصر تيلولن، واستولوا على قصور تطوان وتدماين وأنزجمير، ثم واصلوا هجومهم على قصر تتاف وتامست وسيدي يوسف، وزاوية عبد القادر، وقصبة الأحرار وتاسفوت. واجتمع شيخ تيمي بسكان المقاطعة، وأمرهم بتوحيد جهودهم وقواهم لمواجهة الأعداء، والتقى الطرفان في معركة قتل فيها ستون رجلا من الغنانمة[2].

وعقدت معاهدة صلح بين أهل بودة وبربر آيت عطا سنة 1237هـ/1821م، وكانت قد سبقتها معاهدة صداقة بين أعيان عطا وقبائل ياحمد وسفيان سنة 1224هـ/1809م، ثم تبعتها اتفاقية أخرى سنة 1245هـ/1830م بين البربر وشرفاء زاوية ركان وكنته، ومثّل البربر الشيخ إبراهيم وتكفل شخصيا بإقرار الصلح والوئام مع جميع الأشراف[3]. وكان قد بعث أعيان ووجهاء توات إلى السلطان يخبرونه بما فعله الرّحل بهم، وما سببوه من خسائر وأضرار، فأرسل إليهم سنة 1249هـ/1833م مؤكدا فيها أن أهل توات، والقوراراة، وتيدكلت جزء لا يتجزأ من شعبه، كما وجه

1- Martin, Quatre Siècles, P: 108.
2- Ibid, P: 126.
3- Ibid, PP: 124-130.

اللوم لقبائل الرّحل، و حرر رسالة أخرى في السنة نفسها إلى شرفاء توات يسأل فيها عن أحوالهم، و يجدد إعفاءهم من جميع المكوس والإتاوات[1].

وجددت الصداقة بين القبائل التواتية، فالتقى الأعيان ومن جميع المقاطعات لتوقيع الصلح، وكان ممن حضر الاجتماع شرفاء أولاد سيدي حم بلحاج، ومولاي علي بن مولاي عبد الرحمن، والشيخ الحاج بن عمر بن خليف بن دراعو من بوده، وسيدي محمد بن عبد الله من تمنطيط، وعبد الله بن محمد من أعيان أولاد الحاج، كما حضر أعيان القدوية وأهل ركّان، واتفق الجميع على ضرورة مواجهة الأخطار التي كانت تتربص بهم[2].

وما كادت الأوضاع الأمنية لتهدأ، حتى باشر البربر بحملة أخرى، فنزلوا بواد الساورة، ثم اتجهوا جنوب العرق الكبير وقاموا بنهب واحة تب[3]، وقصر تاسفوت، وقصر سيدي موسى، وسيدي عباد، وجنتور والأحمر، وفرضوا الإتاوات على أهلها. وعادوا عام 1250هـ/1843م ليلحقوا الضرر بأهل أقبور وأوقروت، فقطعوا نخليهم وأشعلوا النيران بالواحات وفرضوا عليهم المغارم. وجددت معاهدات الصداقة بين أهل الواحات والقبائل المجاورة لهم، فالتقى أعيان آيت عطا وآيت خباش[4] وآيت عيسى بأهل تيسابيت سنة 1272هـ/1855م ليعلنوا الصداقة والصلح معهم، كما اجتمع الغنانمة بأهل فنغيل وتاسفوت للغرض نفسه. وأبرمت أيضا معاهد صلح مع أهل تسفاوت في 1274هـ/1857م بالقورارة، على أن يقدم أهل تسفاوت للغنانمة غرامة قدرت بأربعة مثاقيل، وحمل من التّمر، وقصعة من القمح سنويا. وتلتها اتفاقية أخرى سنة 1276هـ/1859م، جمعت كل من أعيان تيمي من زاوية سيدي البكري إلى وينه تحت رئاسة الشيخ الحاج محمد بن الحاج الحسن[5].

1- Martin, Quatre Siècles, P: 153.

2- Ibid, P: 153.

3- **واحة تب:** من قصور طلمين الواقعة جنوب قصور تبلكوزة بإقليم القورارة، ومن قصورها: تاغزى، ونعمة، وأولاد عيسى، والشرقي، وأجدر الغربي. ينظر: التقييد، ص: 4.

4- **آيت خباش:** يسكنون في الجنوب الشرقي للمغرب ولا يخضعون لسلطة المخزن. الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية، ص: 40.

5- Martin, Op.Cit, PP: 154-171.

وكان الهدف من وراء هذه المعاهدات تحقيق السلام والأمان لمقاطعة تيمي التي شهدت غارات وحملات عديدة، ومع ذلك هاجم البربر قصر تنلان وخربوه، كما تعرضوا لأملاك الأهالي، فاقتحموا المنازل ونهبوا أغراض الناس، وأخذوا البنادق والسيوف والحمير، واستولوا أيضا على ستة عشر رجلا من الحراثين، وأربعة من العبيد. وتوجهوا بعد ذلك نحو سالي وفرضوا المغارم على أهلها، وبعدها رجعوا إلى مواطنهم[1].

ومن جهتهم كتب الأشراف إلى المولى عبد الرحمن يعلموه بما حصل لهم، فطلب من البربر تقديم التعويضات وإرجاع كل ما أخذوه من أهل الواحات، فلم يهتموا لأوامره[2]، وهذا يدل على أنّ المخزن لم يكن له سلطة مطلقة على قبائل الرّحل الضاربة في الصّحراء. واستمرت حملاتهم على أهل الواحات، إلى أن بادروا بإعلان الصداقة مع جميع المقاطعات التواتية، فاجتمع أعيان سيدي حم بلحاج، وأعيان بودة، وأعيان تمنطيط عام 1276هـ/1859م. وفي العام الموالي اتفقت جماعة آيت عطا وبني محمد على تحقيق الصلح والوئام، كما تحققت الصداقة بين الغنانمة وشرفاء فنغيل برئاسة الشريف مولاي سعيد بن علي. وعقد أيضا مرابطوا زاوية سيدي البكري الصلح مع الغنانمة سنة 1281هـ/1864م، وتكفل المرابطون بدفع إتاوة سنوية لهم قدرت بستة مثقال، على أن لا يتعرضوا لهم بسوء[3].

وتدخل المولى سيدي محمد في قضايا الصّحراء، إذ كان يقلقه الوضع الأمني الذي آل إليه الإقليم، خاصة بعد أن بسط الرّحل أيديهم، وأرغموا الأهالي على دفع المغارم والإتاوات. وعين المولى الرشيد قائدا على إقليم توات، كماأرسل نصيبا من المال إلى أبناء السكان المحتاجين[4] سنة 1577هـ/1862م، وتم توزيعه على الأطفال، فأخذ كل طفل درهما واحدا، وكان عدد الأطفال الإجمالي 5856 طفلا، وقدر المبلغ

1-Martin, Quatre Siècles, P: 172.
2- Ibid, P: 175.
3- Ibid, P: 176.
4- Ibid, P: 177.

ومع أنّ أهل توات كانوا يحسنون استقبالهم ووفادتهم، إلاّ أنّهم وجهوا حملة ضد أولاد مولات[1] سنة 1283هـ/1866م بمساعدة أولاد جرير واستولوا على كل ثرواتهم من الجمال، واستنجد هؤلاء بأعيان بودة، فسارع شيخهم إلى تقديم المساعدة. وقام دوي منيع أيضا بالهجوم على تمنطيط سنة 1286هـ/1869م، وكان البلد قد تعرض سنة لغزو أولاد باحمو من تيدكلت 1285هـ/1868م. ووجه المولى سنة 1286هـ/1869م رسالة توبيخية يؤنب فيها قبائل سفيان، يتهمهم فيها بأنّهم يقومون بمساعدة الغزاة، وأكد لهم ضرورة مساعدة قبائل ياحمد والتوحد معهم لصد جميع الهجومات الخارجية[2].

وجددت في هذه الفترة علاقات الصّداقة بين أهل توات والرّحل، فاجتمع الغنانمة، وأولاد مولاي أحمد بن رشيد بتدماين بتوات الحناء، وبموجب الاتفاقية عمل الرّحل على تحقيق الأمن والحماية للأشراف. كما أبرم الصلح بين الغنانمة وأهل تامزغت[3]، ووقع بربر آيت عطا الصداقة مع أهل فنغيل، ودفع أولاد مولاي هارون إتاوة سنوية قدرت بثمانية مثاقيل. وتوالت معاهدات السّلام إذ وقع المرابطون بزاوية سيدي البكري الصلح مع دوي منيع، الّذين مثلهم الشيخ بن عثمان. وفي سنة 1294هـ/1877م عقد الصلح بين المرابطين ودوي منيع، على أن يدفعوا لهم ثلاثة مثاقيل مقابل عدم التّعرض لهم والتكفل بحمايتهم. كما عقد الغنانمة الصلح مع أهالي قصر الجديد بتامست سنة 1295هـ/1878م [4].

وعكف الرّحل على تحسين علاقاتهم بأهالي الواحات بعد ما بدر منهم من سوء المعاملة وخرقهم للمعاهدات الّتي كان الغرض منها إنهاء الحروب وتحقيق الأمن، فباشر آيت عطا وأهل تيمي بتجديد الصلح سنة 1301هـ/1881م. كما اجتمع كل من شيخ تيمي الحاج محمد بن الحاج الحسان وجماعته، وأعيان آيت عطا،

---

[1] **أولاد مولات:** قبيلة صغيرة من الرّحل، منتشرون على طول الواحات، وأصلهم من عرب الهلالية، قدموا من الشرق ليستقروا بتوات، واستقر قسم منهم بوادي ريغ. وهم ثلاثة أقسام: أولاد بوركزية، وأولاد سالم، والحمايد. ينظر: Martin, Quatre Siècles, P : 187.

[2]- Ibid, P: 188.

[3]- Ibid, P: 200.

[4]- Ibid, P P: 205-206.

الموزع بستة مائة مثقال، موزعة على تيمي وتمنطيط وبوفادي وأولاد سيدي حم بلحاج وفنغيل وتامست وأنزجمير وسالي و بودة وركّان [1].

وتوترت العلاقة بين أهل توات والرّحل من جديد، فضربت جميع المعاهدات عرض الحائط، وفي الظاهر أنّ الرّحل لا يستطيعون العيش من دون الغزو والنهب، كما أنّهم ليسوا بأهل ثقة وأمان، يعقدون الصلح ثم يخرقونه. واستهدفت تيمي هذه المرة أيضا، فقافلة تجارية كانت لأهل تيمي بالقورارة لغرض التجارة، تعرضت عند رجوعها إلى تيمي للسلب من قبل الغنانمة في مقاطعة تسابيت، واستطاع سبعة أشخاص من القافلة اللّجوء إلى قصر الهابلا والاختباء به، فحوصروا من قبل الغنانمة. وتجهز أهل تيمي لتحرير القافلة، واجتمعوا تحت إمرة الشيخ باحسون بن الحاج محمد، وقرر الجميع الذهاب إلى قصر الهابلا لفك الحصار عن إخوتهم، ولما علم الغنانمة بوصولهم تحصنوا بجدار في جنان الكرارة، ولعدم حصانته تمكن أهل تيمي من اقتحامه، واشتبكوا معهم في معركة دامية قتل خلالها أربعة وعشرين شخصا من الغنانمة [2].

وقدم عام 1281هـ/1864م ثلاثون فارسا من أعيان قبيلة بني محمد، وتوجهوا إلى زاوية ميمون وعقدوا الصلح مع أهل تيمي، كما عقدوا الصلح مع جميع ياحمد بالقورارة ومع المحازرة، ومثل صف ياحمد الشيخ الحاج محمد بن الحاج الحسن، في حين مثّل قبيلة بني محمد الحاج إدريس بني نعيمي[3]. وقدم في العام الموالي دوي منيع برفقة بني محمد، واستقبلهم أهل توات استقبالا حسنا رغم ما بدر منهم من سوء المعاملة، وسمح لهم الأهالي بالمتاجرة مع أهل القورارة ومع الخنافسة والمحارزة بضمان من الشيخ الحاج محمد بن الحاج الحسان من تيمي، وقدّم لهم هذا الأخير هدية تمثلت في ستين ملحفة[4].

1- Martin Quatre Siècles, P P: 177-179.
2- Ibid, P P: 184-185.
3- Ibid, P: 185.
4- Ibid, P: 185.

ومع أنّ أهل توات كانوا يحسنون استقبالهم ووفادتهم، إلاّ أنّهم وجهوا حملة ضد أولاد مولات[1] سنة 1283هـ/1866م بمساعدة أولاد جرير واستولوا على كل ثرواتهم من الجمال، واستنجد هؤلاء بأعيان بودة، فسارع شيخهم إلى تقديم المساعدة. وقام دوي منيع أيضا بالهجوم على تمنطيط سنة 1286هـ/1869م، وكان البلد قد تعرض سنة لغزو أولاد باحمو من تيدكلت 1285هـ/1868م. ووجه المولى سنة 1286هـ/1869م رسالة توبيخية يؤنب فيها قبائل سفيان، يتهمهم فيها بأنّهم يقومون بمساعدة الغزاة، وأكد لهم ضرورة مساعدة قبائل ياحمد والتوحد معهم لصد جميع الهجومات الخارجية[2].

وجددت في هذه الفترة علاقات الصّداقة بين أهل توات والرّحل، فاجتمع الغنانمة، وأولاد مولاي أحمد بن رشيد بتدماين بتوات الحناء، وبموجب الاتفاقية عمل الرّحل على تحقيق الأمن والحماية للأشراف. كما أبرم الصلح بين الغنانمة وأهل تامزغت[3]، ووقع بربر آيت عطا الصداقة مع أهل فنغيل، ودفع أولاد مولاي هارون إتاوة سنوية قدرت بثمانية مثاقيل. وتوالت معاهدات السّلام إذ وقع المرابطون بزاوية سيدي البكري الصلح مع دوي منيع، الّذين مثلهم الشيخ بن عثمان. وفي سنة 1294هـ/1877م عقد الصلح بين المرابطين ودوي منيع، على أن يدفعوا لهم ثلاثة مثاقيل مقابل عدم التّعرض لهم والتكفل بحمايتهم. كما عقد الغنانمة الصلح مع أهالي قصر الجديد بتامست سنة 1295هـ/1878م [4].

وعكف الرّحل على تحسين علاقاتهم بأهالي الواحات بعد ما بدر منهم من سوء المعاملة وخرقهم للمعاهدات الّتي كان الغرض منها إنهاء الحروب وتحقيق الأمن، فباشر آيت عطا وأهل تيمي بتجديد الصلح سنة 1301هـ/1881م. كما اجتمع كل من شيخ تيمي الحاج محمد بن الحاج الحسان وجماعته، وأعيان آيت عطا،

---

[1]- **أولاد مولات:** قبيلة صغيرة من الرّحل، منتشرون على طول الواحات، وأصلهم من عرب الهلالية، قدموا من الشرق ليستقروا بتوات، واستقر قسم منهم بوادي ريغ. وهم ثلاثة أقسام: أولاد بوركزية، وأولاد سالم، والحمايد. ينظر: Martin, Quatre Siècles, P : 187.

[2]- Ibid, P: 188.

[3]- Ibid, P: 200.

[4]- Ibid, P P: 205-206.

واعتذروا لجماعة تيمي عما بدر منهم من هجوم وغزو وما سببوه من أذى وضرر وتخريب، وتكفلوا بتقديم التعويضات اللاّزمة[1].

وجهز الشّعانبة[2] حملة ضد تيط وأقبلي وأولف وتدماين وأنزجمير وسالي سنة 1301هـ/1883م، ثم توجهوا مع أولاد مولات لغزو تاودني[3]. ومن جانبهم الأشراف بفنغيل من أولاد مولاي هارون، وأولاد أحمد بن رشيد، وأولاد مولاي زوين توحدوا فيما بينهم سنة 1303هـ/1885م، وانضم إليهم أهل تسفوت ونومناس وقصبة الأحرار وزاوية سيدي عبد القادر وعزّي، ومثّل جميع الأشراف الشريف مولاي حسان بن مولاي علي. وتم تعيين لكل قصر رئيسا يمثل جميع سكانه، ويعرف الرئيس باسم الدّهمان، فكان مولاي العربي رئيسا على قصر أولاد رشيد، ومولاي الطاهر بن محمد على قصر أولاد مولاي عمر، ومولاي الطاهر بن عبد القادر على زاوية سيدي عبد القادر، ومولاي عبد الرحمن على قصر مولاي حسان، ومولاي جلول على مكرة التحتانية، ومولاي فضيل على مكرة الفوقانية، وسيدي محمد بن عبد الله على قصر بني همي وأودغاغ، والحاج مبارك بن بوبكر على نومناس، وسيدي مبارك بن عبد اللّطيف على قصبة الأحرار. ويتولى الدهمان الإشراف على القضايا والمنازعات الّتي كانت تحدث بين سكان القصر[4].

وجدد من جهتهم بربر بني محمد وأهل بودة معاهدة الصداقة سنة 1305هـ/ 1887م[5]. وساءت العلاقات من جديد بين أهل الواحات وجيرانهم، ليقوم هذه المرة

1- Martin, Quatre Siècles, P: 206.

2- **الشّعانبة:** منذ القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي قطنوا بجهات ورقلة، وضموا عدّة عشائر من أهمها: شّعانبة أولاد سعيد المعروفين بالقبالة أو مواضي القليعة نظرا لتوطنهم جهات القليعة، وشّعانبة هب الريح جنوب ورقلة، وشّعانبة متليلي المعروفين بالبرازقة في النواحي الغربية من ورقلة. وأهم هذه الفروع في حياة منطقة ورقلة فرع شّعانبة بوروبة أو شّعانبة الشرق، الّذين سكنوا بالبور، ويجوبون العرق الشرقي الكبير. ويقول عبد الرحمن بن إدريس التواتي التنلاني: "رأيت في شّعانبة متليلي البرازقة من الخدمة والطاعة، وبينهم وبين أهل مزاب من الحرب والقتال ما لا يوصف، ويعتقدون أنّ قتال بني مزاب مثل جهاد الكفار، ولا يعدون الرجل منهم رجلا حتى يقتل رجلا من بني مزاب، وهم يفتخرون بذلك، فيقول القاتل: قتلت بحمد الله سبعة، ويقول آخر قتلت ثلاثة". ينظر: رحلة عبد الرحمن التواتي التنلاني، نسخة مصورة بخزانة كوسام بمنطقة تيمي بإقليم توات، و: 1، وجه وظهر. ويراجع الملحق رقم: 6، ص: 167. ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، الجزائر. المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م، ص: 282.

3- Martin, Quatre Siècles, PP: 217- 219.

4- Ibid, P: 228.

5- Ibid, P: 237.

أولاد مُولات بغزو أهل سالي، فأخذوا منهم بمنطقة الغابة بتدكلت جميع الجمال التي كانت ترعى هناك، وهي ملك لأشراف سالي وأهل تدماين وأنزجمير وتيطاون والأخرس ومورابطي تيلولين. وعاود دوي منيع هجومهم على قصر أنزكلوف وتمادنين سنة 1307هـ/1889م، وأخذوا ثمانية وعشرين شخصا من أهل أنزكلوف، وخمسة آخرين بواحة تمادنين، وباعوهم في سوق النخاسة كعبيد، كما أقدم الغنانمة على غزو قصر وينه بتيمي وأخذوا عشرة أشخاص من سكان القصر، لكن الأهالي تمكنوا من ملاحقتهم وقتل ثلاثة أشخاص منهم[1].

والتقى البربر وبني محمد بأهل تيمي ليجددوا معاهدة السلام وتحسين علاقاتهم فيما بينهم سنة 1314هـ/1896م، وحضر هذه الاتفاقية القاضي محمد بن محمد بن الحبيب من كوسام بتيمي[2]. ولم يسلم أهل الواحات من غزو الرّحل رغم المعاهدات التي عقدت من حين لآخر لوقف الحروب، خاصة وأنّ الغنانمة والشّعانبة في إقليمهم، بعدما كل ما ألحقوه بهم من أضرار. ففي أواخر القرن 13هـ/19م قام دوي منيع بالهجوم على أهل القورارة وتادميت وسالي، واستولوا بالقرب من قصر السبع على قافلتين تجاريتين لأولاد سيدي حم بلحاج، مما جعل أشراف زاوية كنتة يجمعون قواهم للانتقام منهم، فلحقوا بهم والتقوا بهم بتسابيت بين عمور وأبرنكان، واشتبكوا معهم في معركة دامية قتل فيها ثمانية أشخاص من الأشراف، من بينهم نقيبهم مولاي توهامي بن محمد[3].

ونهب دوي منيع سنة 1316هـ/1898م قافلة تجارية كانت لأهل زاقلو، واستولوا عليها ما بين قصر السبع وكَبرْتن، وكانت القافلة متجهة إلى القورارة. كما أقدم أولاد مولات على غزو قافلة لأولاد زنّان كانت قادمة من السودان، إلاّ أنّ هؤلاء لحقوا بهم وقتلوا ثلاثين شخصا منهم وشردوا الباقي منهم في القفار، والظاهر

1- Martin, Quatre Siècles, P: 239.
2- Ibid, PP: 287- 288.
3- Ibid, P: 290.

لة قد أبيدت عن آخرها في هذه الموقعة، ومن تبقى منهم انتشروا في تافيلالت
رعة، واختفى اسم القبيلة كليا من توات[1].

وكان المخزن يصب غضبه دوما على الرّحل ويبدي تذمره تجاههم، لأنّهم
وا يلتزمون بالمعاهدات التي أبرموها مع الأهالي، فوجه المولى الحسن الأول
سنة 1316هـ/1898م إلى أعيان الغنانمة والشّعانبة ودوي منيع، يأمرهم فيها
غزواتهم على أهل الواحات[2]. وسارع بعد ذلك الغنانمة إلى تحسين علاقاتهم
ل الخنافسة بالقورارة، ومع أهل توات وأهل تيدكلت، وكان قد قدم حوالي 170
منهم يطلبون المصالحة والصداقة. وفي الفترة نفسها جاء أمر من السلطان
أهل الأقاليم الثلاثة إلى استقبالهم ومسامحتهم، وبالفعل أحسنوا وفادتهم وأبرموا
ح معهم، ومع أنّهم جاءوا لهذا الغرض، إلاّ أنّ جماعة منهم تخاصموا مع أولاد
حم بلحاج، وخرّبوا قصر سيدي يوسف وأخذوا عبدا من قصر باعمر[3].

لاحظنا من خلال الوقائع التي مرت معنا أنّ العلاقات الاجتماعية بين أهل
ات والقبائل الضاربة بالصّحراء من الرّحل كانت سيئة ومضطربة، فحياتهم
مليئة بالحروب والفتن والفوضى ولم تكن مستقرة ولا آمنة، هذا ما دفع بأهل
إلى عقد ميثاق الصداقة مع البدو لتفادي غزواتهم المستمرة على الإقليم، إلاّ أنّ
ح سرعان ما كان يتلاشى بعودة الرّحل إلى الغزو والهجوم. والظاهر أنّ الرّحل
ذوي قوة وشجاعة وبأس، بينما لم يكن لأهل الواحات جيش منظم ومجهز
لحة، يعمل على محاربة ومكافحة الغزاة، بل كل قبيلة تعتمد على رجالها أثناء
ب، فأهل توات مسالمون، لذا كانوا مطمع الجميع.

وقد انفرد المؤرخ الفرنسي مارتان بدراسة العلاقات الاجتماعية بين سكان
والقبائل المجاورة لهم خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين
ت دراسته دقيقة ومفصلة، واعتمد في تدوين كتابه على مصادر مخطوطة
ها بالمنطقة، ولسوء الحظ فقدت هذه المصادر، منها ما ضاع ومنها ما استولى

1- Martin, Quatre Siècles, P: 310
2- Ibid, P: 311.
3- Ibid, P: 319.

الفصل الثاني

مظاهر الحياة الاجتماعية بإقليم توات

1- الأسرة التواتية

2- عادات وتقاليد واحتفالات سكان توات

3- المأكل والملبس والمسكن

عليه الاستعمار الفرنسي، ومنها ما هو مخبأ بخزائن أصحاب الزوايا. وكان يشير للوثائق التي اعتمد عليها في الهامش، كما اعتمد أيضا على الرواية الشفوية لحكام المنطقة وشيوخها. ومن خلال ترجمة ما جاء به يتبادر إلى أذهاننا أنّ الحياة السياسية بإقليم توات كانت تسودها الفوضى، إذ لم تفارقهم الحروب والصراعات، مما جعل الأهالي لا يأمنون على حياتهم وممتلكاتهم في ظل غياب السلطة وانعدام الأمن، إلاّ أنّ أهل توات كانوا يتوحدون فيما بينهم أثناء الأزمات الاقتصادية والبشرية.

I- المبحث الأول: الأسرة التواتية

الأسرة هي الركيزة الأساسية في بناء المجتمع، ومن عناصرها المرأة. وحضيت المرأة التواتية في إقليمها بالاحترام والتقدير، وشاركت إلى جانب الرجل في كسب العيش، من خلال الأعمال والحرف اليدوية التي كانت تمارسها في بيتها من غزل ونسج الصوف. وتميزت الأسرة التواتية بالتماسك والترابط والتلاحم.

1- المرأة:

المرأة هي نواة المجتمع وأساسه، وبرزت التواتية كغيرها من النساء في العالم الإسلامي، فكانت لها مكانة سامية ومرموقة، وحضت باحترام الرجل لها، وشاركت إلى جانب زوجها في بناء الأسرة وتأسيسها، وعملت على تطور وتقدم إقليمها من خلال الحرف والصناعات التي كانت تقوم بها. وتتمتع المرأة التواتية بالنفوذ والسلطة والحرية[1]، وتحضى الشريفة التي يطلق عليها لقب لالة[2] بكثير من الاحترام والتقدير.

ويؤدي نظام القرابة دورا رئيسيا في شعور كل مجموعة بانتمائها السلالي، وتعتز الشريفات بشرف أنسابهن للبيت النبوي الشريف، والذي يستمدن منه الاعتبار والتقدير. والشريفة لا تنكح إلا شريفا، أو حرا من نفس طبقتها ومستواها الاجتماعي والاقتصادي، ولا يسمح لها أن تنكح من هو أقل منها نسبا ومكانة من عامة الناس، خاصة من فئة الحراثين والعبيد، فالحراثون بصفة عامة رغم وضعهم المادي لا يتميز عنهم الشرفاء والعامة من الملاكين في شيء، ماعدا نظرة هؤلاء الاستعلائية إزاءهم، التي تقرها الأعراف الجماعية في الجنوب بوجه عام. ورغم المكانة الاجتماعية التي حازها بعض هؤلاء، حيث ظهر منهم المدرسون في الكتاتيب[3]،

---

[1]- البلبالي، المصدر السابق، باب الحبس وسائر العطايا، و: 379.

[2]- **لالة:** لقب يقصد به السيدة الشريفة بالمغرب الأقصى، وانتشر هذا اللقب لغاية أقصى الجنوب وما وراءه. ولالة أيضا هو لقب يطلق على مربي أولاد الوزراء والأمراء والكبراء بالشام، وهو غير عربي. ينظر: الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية، ص: 171.

[3]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 86.

وملاك بعض الإقطاعات الصغيرة[1]، إلاّ أنّ نظرة الشرفاء تجاههم لم تتغير كفئة اجتماعية من الدرجة الثانية.

وتبين لنا من خلال دراسة نوازل البلبالي والزجلاوي أنّ المرأة التواتية ذات حزم وقوة وشدة، فهي تملك السلطة الكلية والمطلقة على زوجها، ولها الحق في اشتراط ما شاءت من الشروط أثناء عقد نكاحها، وإذا لم يلتزم الزوج بجميع شروطها لها أن تملك نفسها. وجملة ما تشترطه المرأة على الزوج عدم إخراجها من بلدها، أو التزوج عليها والتسري بالإماء، واتخاذ أم ولد. فجاء في إحدى النوازل أنّ "رجلا خطب امرأة فشرطت عليه شروطا وهي: أنّه إن تسرى عليها، أو تزوج، أو أخرجها من بلدها فأمرها بيدها"[2].

والجدير بالذكر أنّ المرأة كانت تتولى أمور زوجها، فهي تقوم محله وتتصرف في كل شؤونه واختصاصاته اليومية، دون أن تأخذ رأيه ومشورته، فهو تابع لرأيها ولا يتصرف في شيء دون أن ينال موافقتها ورضاها، فتباشر كل أعمال وأشغال زوجها الزراعية مثل الحرث والحصاد وما إلى ذلك. كما كانت تتولى الإنفاق على أولادها، وتأمر زوجها إن كان كثير المال والعقارات أن يترك لها وصية، أو يجعلها وصيا على أولاده حتى تتمكن من بسط يدها على ممتلكاته، وتحرم بذلك بقية الورثة من حقهم الشرعي في الميراث. وتفيد النازلة في هذا السياق "أنّ رجلا توفي وجعل زوجته وصيا على ابنتيه، ولم يخلف من الأولاد غيرهما، إحداهما متزوجة والأخرى بكر، فقام عليها أولاد أخويه يطلبون ميراثهم، فأظهرت الزوجة رسما يتضمن تحبيس بعض أصوله عليها وعلى ابنتيه، وحبس عبدين من عبيده، فنازعها العصبة"[3]. ويتضح من خلال النازلة مدى قوة وسيطرة المرأة التواتية على زوجها.

1-Selka, Op.Cit, P: 523.

2- البلبالي، المصدر السابق، باب النكاح وتوابعه، و: 81.

3- المصدر نفسه، باب الحبس وسائر العطايا، و: 379.

وتمتعت المرأة الشريفة والحرة باتساع الأملاك، فملكت البساتين والجنان والدور والعبيد، وحظيت بمكانة مرموقة وعالية، إلاّ أنّ الكثير من الأسر الشريفة والحرة تحولت مع أواخر القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي إلى وضع متردد بسبب تأثير القحط والمجاعات وهجوم أسراب الجراد، الّذي كان يقضي على كل الإنتاج قبل نضوجه. وبهجرة العبيد نحو مدن الشمال إثر إلغاء قانون الرق في الصّحراء[1]، توقف عمل حفر الفقارات، الّتي كانت تستلزم وجود الآلاف من العبيد للخدمة في الحفر، وأصبحت الفقارات القديمة تقريبا كلها موات، وانسدت بتراكم الرمال عليها، وهذا ما أثر سلبا على الزراعة وعلى الحياة ككل بالصّحراء. ومع ذلك كانت الأسر الشريفة والحرة ترفض العمل وتحتقره، فهي تعتمد على جهد الحراثين، مما تسبب في تردي وضعها الاجتماعي والاقتصادي.

وشاركت المرأة إلى جانب الرجل في كسب العيش، فاشتغلت في الحرف اليدوية ومارست العديد من الصناعات داخل بيتها، وكان غزل ونسج الصوف والقطن من الأعمال الّتي تباشرها يوميا. والعادة المعروفة والمنتشرة بين النسوة في إقليم توات هو تعاونهن على النسج، فتعين هذه الأخرى حتى تفرغ من النسج، وتعينها الأخرى[2]. وكثيرا ما كان يحدث النزاع والخصام بين الزوجين بسب كثرة ترداد الزوجة إلى غرفة الغزل في دار جيرانها بدون علم زوجها، فكان الزوج يخيرها بين البقاء في البيت أو في الغرفة، فإذا اختارت الغرفة طلقت[3].

1-J. Dèspois René, OP.Cit, P: 452.

2- البلبالي، المصدر السابق، باب الطلاق وما تعلق به، و: 109.

3- المصدر نفسه، و: 110.

ومن الصوف والقطن يصنع النسوة أشياء عديدة منها الأبسطة[1] والأغطية[2] والملابس المختلفة كالبرانس[3] والحياك[4] والازارات[5]. ولاقت هذه الصناعة العديد من الصعوبات والمشاكل نظرا لقلة المواد الخام من الصوف والقطن، والسبب راجع إلى قلة أعداد الحيوانات الّتي تربى بتوات ورداءة صوفها، زيادة على ذلك عدم اهتمام التواتيين بزراعة القطن[6]، لذا استوجب استيراد هذه المادة من خارج توات، فكانت تشترى من القوافل التجارية القادمة من الشمال والمتوجهة إلى السودان.

وكانت شجرة النخيل مصدرا لإنتاج العديد من الأدوات المستعملة يوميا، فإلى جانب الجذوع الّتي تصنع منها أخشاب السقوف وأبواب المنازل والبساتين يحول النسوة سعف النخل إلى قفف وحصير وسلال ومكانس وحبال[7]، وهي حرفة شعبية بسيطة تزاول في المنازل، ولا تحتاج إلى أي وسيلة تقنية في العمل أكثر من أصابع اليدين. وصناعة السلال كانت لها أهمية كبيرة، ففيها تحمل التّمور وغيرها من الأغراض، كـــ"تسقات"[8]، و"القفيفة" وهي أصغر حجما من الأولى، يحملها الحرثاني معه أثناء قطف التّمور، واستعملت بعضها كوحدة للكيل كـــ"العلوية"[9]. وساهمت المرأة بعملها في تنشيط الحركة التجارية وتطويرها على المستوى الداخلي، فازدهرت الأسواق وتنوعت منتجاتها بفضل الصناعات اليدوية النسوية.

وكانت المرأة تستأجر الرجل ليقوم بخدمتها في بيتها، وورد جواب لنازلة في هذا السياق تفيد بأنّه يجوز للرجل أن يستأجر امرأة لتخدمه في بيته، كما يجوز

---

[1]- **الأبسطة:** يطلق عليها الدكالي، ويمتاز دكالي توات بالجودة والمتانة، وبألوانه المتناسقة مما اكسبه شهرة داخل وخارج توات. ويصنع الدكالي بقصور تيمي وبودة وتمنطيط وبوفادي وميراجن، وله ثلاث مقاسات: عرض: 1،75×5 م طول/ 1،50×3م/ 1×2م. فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 60.

[2]- **الأغطية:** تعرف باسم فاتيس وتريضانت وكلها تصنع في قصور المقاطعة تينركوك (قصور تبلكوزة، وعين حمو، وطهطاس، وزاية الدباغ). المرجع نفسه، ص: 60.

[3]- **البرانس:** جمع برنوس، يلبسه التواتي في فصل الشتاء ليقيه من برودة الطقس، ويصنع من الصوف.

[4]- **الحياك:** جمع حايك، يتكون من جزء واحد، يصنع من الصوف ويتميز بالخشونة، تستعمله المرأة للمشاوير القصيرة.

[5]- **الإزار:** لباس رقيق ويتكون من جزئين سفلي وعلوي، تستعمله المرأة للمشاوير البعيدة، ويكون أبيض اللون، يغطي جميع جسدها ما عدا العينين، وإزار توات يختلف عن إزار موريطانيا الذي يكون مكشوفا.

[6] - Martin, Les Oasis Sahariennes, P P: 309-310.

[7] - Ibid, P: 313.

[8]- **تسقات:** هي إسم لقفة تصنع من السعف. محمد باي بلعالم، الرّحلة العلية، ج: 2، ص: 341.

9- Martin, Quatre Siècles D'Histoire Marocaine, P: 15.

للمرأة غير المتزوجة والكبيرة في السن أن تقوم باستئجار رجل يقوم بخدمتها وقضاء حوائجها بشرط أن يغض بصره، مقابل أجرة يتقاضاها[1].

وحظيت المرأة الثرية بجميع حقوقها من حرية اختيار الزوج، وحرية التصرف في مالها وممتلكاتها. بينما عوملت المرأة الفقيرة بكثير من الظلم والتعسف، كاحتقار الزوج لها وحرمانها من جميع حقوقها وعرضتها للإهانة والذل، فكان الزوج يأخذ صداقها[2]، ولا ينفق عليها[3]، ويقوم بسلب حاجياتها وممتلكاتها، وكانت عرضة للضرب والسب والشتم والهجران، مما يجعل النسوة يعايرنها ويسخرن منها[4].

ومن الأعراف الجارية بإقليم توات أنّهم لا يدخلون في الميراث إلاّ الذكور، ولا حق للأنثى إلاّ بنص صريح[5]. فالأنثى لا تدخل في الوصايا والتحبيس إلاّ بنص وذلك هو العرف. ومن أوصى لولد الولد فلا يقصد منه إلاّ الذكور[6] -أي تمنع منه الإناث- إلاّ أنّ بعض العائلات التواتية كانت تخص بناتها بالوصايا والعطايا والهبات[7].

ويعتبر الاهتمام بشكل المرأة ومظهرها الخارجي أهم شيء بالنسبة لها، فكانت تتفنن في إبراز جمالها وإظهار زينتها، وأهم عقاقير الزينة المستخدمة بالإقليم الحناء[8]، وهي أهم نبتة تغرس في الإقليم التواتي، هذا إلى جانب الكحل والطيب والحلي بأنواعه المختلفة من الأساور والقلائد والخواتم والخلاخل من الفضة

---

[1]- البلبالي، المصدر السابق، باب الشهادات، و: 666.
[2]- المصدر نفسه، باب الطلاق، و: 84.
[3]- المصدر نفسه، باب النفقات، و: 125.
[4]- المصدر نفسه، الوكالة في الطلاق، و: 100.
[5]- المصدر نفسه، مسائل الأوصيا والوصايا، و: 770.
[6]- المصدر نفسه، و: 736.
[7]- المصدر نفسه، باب الحبس وسائر العطايا، و و: 511- 596.
[8]- **الحناء:** تزرع في واد الحناء بمقاطعة أنزجمير، وهي عبارة عن صبغة حمراء وبرتقالية اللون يتغيرر لونها مع المادة المضافة إليها، وشجيرات الحناء أوراقها صغيرة خضراء اللون، يتراوح طولها ما بين 40 إلى 50 سم. وتستخدم للزينة وللتطبيب، وتعتبر أهم منتج زراعي يصدر إلى مدن الشمال وبلاد السودان. الموسوعة العربية العالمية، ج: 9، ص: 560. Martin, Les Oasis Saharienne, P: 308

والذهب، وهي حرفة تخصص بها اليهود. وكانت الحناء تطلى على اليدين والرجلين فتعطيهما لونا جميلا، وتطلى أيضا على الشعر فيتم صبغه، أما الكحل فيستعمل لتجميل وتزيين العينين. والماشطة هي التي تتولى تصفيف الشعر، ويستغرق هذا العمل وقتا طويلا مقابل حصة سنوية من التّمر، وبجانب التصفيف كانت الماشطة تقوم بتزيين الوجوه[1].

إنّ عدم وجود وسائل ترفيهية في الصّحراء جعل الحياة بها مملة، وانعكس هذا على الحياة اليومية للأهالي، لذا كان لا بد من إيجاد وسائل للترفيه عن النفس. والمرأة شأنها شأن الرجل كانت لها وسائلها الترفيهية الخاصة بها، فتقضي معظم أوقات فراغها في غزل ونسج الصوف مع الجيران، ويسمى المكان الذي كان يتم فيه الغزل بـــ"الغرفة"[2]. والبعض الآخر من النساء تقضين أوقاتهن في صناعة القفف والسلال والحصير، وغيرها من الصناعات اليدوية، ومنهن من تفضلن الذهاب إلى الحمام[3]، وهو من الأماكن التّي يجتمع فيها عدد كبير من النساء للاغتسال ولتبادل أطراف الحديث عن كل ما يحدث بالقصور من زواج وطلاق، وغيرها من الأمور التي كانت تشغل اهتمام الناس. والجدير بالذكر أنّ غالبية النساء تمضين معظم الوقت بالجلوس فوق سطوح المنازل للتسامر[4].

وعن بروز المرأة التواتية في المجال الفكري والثقافي، فبرزت الشيخة "نانة عائشة بنت سيدي محمد المبروك البوداوي" (ت: سنة 1280هـ/1863م) من مقاطعة بودة، وكانت لها أشعار عديدة[5]. ومن خلال الكتاب الشهير الذي ألفه الشيخ "سيدي محمد بن المختار الكنتي" في التاريخ والذي سماه "الطرائف والتلائذ في معرفة مناقب الوالدة والوالد" يدل على أنّ والدته كان لها اعتناء بالعلم. وبرزت أم الخير

1- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 38.
2- البلبالي، المصدر السابق، الوكالة في الطلاق، و: 109.
3- المصدر نفسه، و: 110.
4- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 38.
5- أحمد الحمدي، محمد بن عبد الكريم المغيلي، ص: 118.

بنت محمد كرومي المولودة في 1290هـ/1873م والمتوفاة في 1422هـ/2001م، والتي عرفت في حياتها بالتقوى والصلاح[1].

2- الزواج:

الزواج في إقليم توات لا يختلف عنه في بقية المجتمع الجزائري ما دام القرآن الكريم والسنة هما المصدران الأولان لكل المسلمين. والزواج كما عرفه الفقهاء هو: "عقد يفيد حل الاستمتاع لكل من العاقد بالآخر على وجه المشروع"[2]. ومن مقدمات الزواج أن تكون هناك خطبة ممهدة لتستوثق العاقد من أن يحقق العقد فيقدم عليه، وإلاّ فيعرض عنه. لقوله صلى الله عليه وسلم لشعبة بن المغيرة: "انظر إليها فإنه أحرى أن يُؤدم بينكما"[3]. والدّين أذن بالخطبة كمقدمة للزواج، وأمر الخاطب أن ينظر إلى مخطوبته. والمرأة تستشار قبل عقد الزواج في اختيار الزوج بالقبول أو الرفض، كما ثبت في الصحيح لقوله صلى الله عليه وسلم: "البكر تستأمر والثيب تشاور، قيل يا رسول الله البكر تستحي، قال: "سكوتها رضاها"[4]. وذكرت عدّة آيات تحث وترغب المسلمين على الزواج منها قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"[5]، وقال أيضا: "وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[6].

أ- الخطبة:

يتضح من نوازل النكاح التي أوردها الشيخ البلبالي في مخطوطه الغنية العديد من الحقائق والإشارات المتعلقة بالزواج والحياة الأسرية في إقليم توات،

1- أحمد أبّا الصّافي جعفري، المرجع السابق، ص: 351.
2- أبو زهرة محمد، محاضرات في عقد الزواج وآثاره. القاهرة: دار الفكر العربي، 1971م، ص: 43
3- ابن العربي المالكي، عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي. بيروت: دار الباز للطباعة والنشر، دار الكتب العلمية، ج: 4، باب النكاح، ص: 304.
4- المصدر نفسه، ص: 13.
5- سورة الروم، الآية رقم: 21.
6- سورة النور، الآية رقم: 32.

فيفيدنا بأنّه من أراد الزواج عليه أن يخطب أولا وذلك بأن يبعث كبيرا من مواليه أو شاهدا يخطب له[1]، وبحصول الموافقة والتراضي بين أهل العروسين يعقد "الجُبَال"[2] بحضور بعض أعيان القصر[3]، فيؤمر ولي الزوجة أن يستدلي بالإيجاب فيقول: "زوجتك وليتي من فلان بشرطها وصداقها على فرائض الله وسنة رسوله" – صلى الله عليه وسلم– ويقول آخر: "قبلتها"[4].

ويقول العلامة الشيخ أبو زيد[5]: "إنّ الخطبة بتوات هي بمثابة العقد"، وبذلك كان يفتي. بينما أفتى غيره من العلماء أنّ الخطبة ليست بعقد، والدليل على ذلك أنّ من أراد منهما الرجوع قبل ذلك فله، ولو كانت الخطبة عقد نكاح لما كان الرجوع لمن أراد منهما جبرا للآخر[6]. وعلاقات المصاهرة والزواج بتوات تتبع التصنيف المادي والعرقي، فلا ينكح الأشراف والمرابطون والأحرار من هم أقل منهم مستوى كالحراثين والعبيد. وتجنح الأسر الغنية إلى مصاهرة من هم في نفس مستواها، إذ نظرة المجتمع تجاه الحراثين لم تتغير كونهم فئة اجتماعية من الدرجة الثانية، وهم يكونون فئة مغلقة في إطار المصاهرة، بحيث يتزاوجون فيما بينهم ولا سبيل إلى زواج حرثاني بامرأة شريفة أو حرة من العامة لأنّ ذلك يلحق بها المعرة والإهانة، ليس بها فقط بل بعائلتها أيضا.

---

[1]– البلبالي، المصدر السابق، باب النكاح وتوابعه، و: 56.

[2]– **الجبال:** تعني الخطبة.

[3]- Selka, Op.Cit, P: 551.

[4]– الزجلاوي، المصدر السابق، و: 13. وينظر الملحق رقم: 4، ص: 165.

[5]– **الشيخ أبو زيد (ت1189هـ/1775م):** هو أبو زيد سيدي عبد الرحمن بن عمر التنلاني، تفقه على يد علماء توات، أخذ العلم عن عبد الرحمن الجنتوري، والشيخ سيدي عمر بن عبد القادر التينلاني، والشيخ محمد بن أب الزموري. وتخرج على يده علماء أجلاء نذكر منهم: ابنه سيدي محمد بن عبد الرحمن، والقاضي عبد الحق بن عبد الكريم البكري الأمريني، والشيخ محمد بن عبد الرحمن البلبالي، والزجلاوي. ووصفه صاحب "الدرة الفاخرة" فقال: "أنّه كان عالم عصره". ومن بين مؤلفاته: "مختصر السمين في إعراب القرآن الكريم"، وتقاييد أخرى، وكتب تقييدا ذكر فيه طلبه للعلم وأشياخه وتلاميذه، وبعض رحلاته. توفي بمصر ودفن بالقرافة الصغرى عام 1189هـ/1775م، ورثاه الشيخ سيدي محمد بن المبروك البوداوي الجعفري. عبد العزيز سيدي عمر، المصدر السابق، ص: 37، الصديق حاج أحمد، المرجع السابق، ص ص: 87، 88.

[6]– البلبالي، المصدر السابق، باب النكاح وتوابعه، و: 55.

وقد أفتى ابن عرفة[1] في القرن الثامن الهجري بهذا الشأن فقال: "أنّه لا بد من مراعاة المعرّة في البلاد، ولو فتح هذا الباب للزم منه أمر عظيم، إذ لا يشاء أحد من الموالي فضلا عن الأحرار إلاّ وتزوج شريفة"[2]. ونادرا ما كان يقع زواج الأحرار بفئة الحراثين للسبب المذكور أعلاه، فتفيد نازلة: "أنّ امرأة حرة خطبها حرثاني فرضيت به وامتنع إخوتها من تزويجها منه لما سوف يلحقهم من المعرة في ذلك، ثم زوجها عمها منه"[3]. وهنا نرى أنّه كان يتم زواج الأحرار بالحراثين، ولكنها من الحالات الخاصة والنادرة.

ومن الأمور الشائعة بتوات أنّ الزواج يكون بين الأقارب، فالعائلات التواتية كانت تحرص على أن تبقى علاقات المصاهرة والزواج في نطاق العائلة[4]. ويسمح للخاطب في توات بزيارة خطيبته في بيت أهلها، كما يمكنه مشاركة ذويها في الوجبات[5] كوجبة الفطور أو العشاء، وهذا ما لا نجده في عادات المجتمع الجزائري، إذ لا يسمح للخطيب برؤية خطيبته حتى يوم الدخول[6].

ومن الأعراف الجارية أثناء فترة الخطوبة أن يهادي العريس عروسه، كأن يقدم لها حليا من الذهب أو الفضة، ويقوم والده بالإنفاق والإهداء عليها. وإذا فسخت الخطبة يطالب الخطيب وذويه بإرجاع كل ما أنفقوه وأهدوه[7]، وعلى أهل المخطوبة رد كل ما قدم وأنفق على ابنتهم بخلاف ما استهلك من مأكول ومشروب، وإن كان

1- **ابن عرفة(716- 803هـ/1316-1400م):** هو أبو عبد الله محمد بن محمد الشهير بابن عرفة الورغي نسبة إلى قبيلة ورغة بالجنوب التونسي، تولى الإفتاء والإمامة والخطابة بجامع الزيتونة، دفن بأعلى مقبرة الزليج، وضريحه معروف إلى اليوم. ينظر: ابن فرحون إبراهيم بن نور الدين، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب. تحقيق مأمون بن محي الدين الجّنان. لبنان: دار الكتب العلمية، ط:1، 1996م، ص ص: 419، 420.

2- البلبالي، المصدر السابق، و: 70.

3- المصدر نفسه، و: 69.

4- أحمد الحمدي، محمد عبد الكريم المغيلي، ص: 56.

5- Selka, Op.Cit, P: 551.

6- وردت نازلة تفيد بأنّ رجلا خطب امرأة يتيمة لابنه وهي عند والدتها فأعطتها له وفرضت لها الصداق بحضور أبناء عمها، ودفع الخاطب على ولده بعض الصداق، وكان الولد يدخل ويخرج في دار المخطوبة على العادة إلى أن ماتت البكر المخطوبة. ينظر: الزجلاوي، المصدر السابق، مبحث مسائل النكاح، و: 22.

7- ذكرت نازلة: " بأنّ شخصا يدعى سيّدي مبارك البلبالي قام بمطالبة أهل الخطيبة بإرجاع الهدية التي قدمها ابنه الخاطب لخطيبته بنت ولد السّيد المحفوظ، وهذا بعد فسخ الخطبة، وطالبت أم الخطيب أيضا باسترجاع ما أنفقته وأهدته. ينظر: البلبالي، المصدر السابق، باب النكاح، و: 67.

الفسخ من قبل أهل المخطوبة فيرجع بما انفق وأهدي مطلقا، أما في حالة وفاة أحد الخطيبين فيثبت الإرث بينهما ويسقط الصداق[1].

ب- الصداق:

صداق الزوجة بتوات معروف مقدر لا يزيد بالجمال ولا ينقص بالقبح، ومن عادات البوادي في المغرب أنّهم لا يسمون صداقهم ولا يشهدون عليه وقت العقد ولكن عند البناء[2]. والعرف الجاري بالإقليم أنّ كثرتهم لا يكتبون رسم الصداق ولا يدفعونه كاملا عند الدخول، وإنما يدفع القليل منه والكثير يؤخر[3]، فالمهر معروف على عاجله وآجله، إذ يدفع المعجل عند الدخول والمؤجل لا يطلب إلا بعد فراق أو موت، وعليه فإنّ صداق المرأة ينقسم إلى معجل ومؤجل كما هو عليه الحال اليوم.

والشائع في صداق النساء أنّه يدفع حوائج فضة وذهبا وعروضا[4]، وتتفاوت قيمة المهور على حسب إمكانيات الأفراد ومستواهم المعيشي، فالأغنياء يدفعون مهورا مرتفعة ويقدمون الهدايا والعطايا المختلفة، بخلاف الفقراء الّذين لا يسمح لهم وضعهم المادي بدفع مهر كبير[5]. وجاء في إحدى النوازل أنّ رجلا خطب امرأة وأعطته نفسها على خيار سيّدها ورضاه، وفرض لها كساءً وشَرْبية[6] وريميَة[7]، ودخل بها[8]. ويتضح من خلال النازلة أنّ صداق هذه الزوجة كان ممثلا في بعض الأغراض الّتي كانت تستعملها المرأة التواتية من لبس ونعل، وهي أشياء جد

---

[1]- الزجلاوي، المصدر السابق، و: 14.

[2]- الونشريسي أحمد بن يحي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب. خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي. لبنان: دار الغرب الإسلامي، ط:1، 1415هـ/1981م، ج: 3، نوازل النكاح، ص: 305.

[3]- البلبالي، المصدر السابق، و: 55.

[4]- الزجلاوي، المصدر السابق، و: 15.

[5]- نخص بالذكر فئة الحراثين والعبيد الذين لا يقدرون دفع مهور مرتفعة بسبب وضعهم المتردي. ينظر: Selka,Op.Cit, P: 551.

[6]- **شربية:** أو "الشرابية"، وهو عبارة عن غطاء للرأس ويكون مشرشب.

[7]- **ريمية:** نعل نسائي يلبس في المناسبات والأفراح، وأما الرجال فينتعلون "القرق".

[8]- الزجلاوي، المصدر السابق، و و: 21- 22.

بسيطة. واليتيمة تفرض لها والدتها الصداق بحضور أشقائها وأبناء عمومتها، أما الإيماء فيفرض لهن أسيادهن المهر[1]، لأنّ زواج العبيد والإيماء رهن سلطة السّيد.

ويتم عقد القران في أحد الجوامع أو المساجد على يد القاضي، وفي المواضع البعيدة عن الحاضرة، كالقرى والضياع فإمام المسجد هو الّذي يتولى عقد قران الزوجين دون إذن من القاضي لبعد المسافة بينهما، وإن تعذر وجود الإمام فأهل العروسين أو الوكيل أو جماعة المسلمين يقومون مقامه[2].

وتجهز المرأة التواتية الشّريفة والحرّة جهازا يليق بمقامها ومكانتها الاجتماعية، وجملة ما تتجهز به الفراش والثياب والمجوهرات، ويكون الفراش من القطيفة[3]، فالحرة لا تتزوج إلاّ بفراش القطيفة -وهي نوع من القماش- هذا إلى جانب المجوهرات وتكون من الفضة والذهب الخالص، وذلك حسب الإمكانيات المادية للزوج. ومن جملة المجوهرات الّتي توضع في الجهاز الأساور والقلائد والخلاخل والخواتم[4].

ويُشّور[5] الأب ابنته شِوارا يوازي أو يفوق ما ساقه إليها زوجها، فبعض الآباء من الأسر الغنية كانوا يهبون بناتهم ديارا عند نكاحهن[6]، هذا إلى جانب العطايا والهبات المختلفة. فوردت نازلة أنّ رجلا جعل لبناته حمل تّمر واثني عشرة قصعة لكل واحدة منهن، ولآخر وهب ابنته ثيابا وحليا[7]. وجرى العرف بالإقليم أن يخرج الزوج أو الأب ضمن الجهاز بعض الثياب الثمينة والمجوهرات على أن تُسترد بعد الزفاف، فهي "عارية" وليست عطية، ووضعت في الجهاز بهدف التزيين والتباهي والافتخار أمام الناس[8]. والعارية في الجهاز كان ينتج عنها الكثير من

---

[1]- البلبالي، المصدر السابق، و: 56.

[2]- الزجلاوي، المصدر السابق، و: 15.

[3]- البلبالي، المصدر السابق، و: 53.

[4]- Selka, Op.Cit, P: 552.

[5]- **يشور**: الشورة بفتح الشين يقصد بها المتاع وما يحتاج إليه البيت، وأما الشُورة بالضم فهو الجمال. البلبالي، المصدر السابق، باب النكاح وتوابعه، و: 80.

[6]- المصدر نفسه، باب الحبس وسائر العطايا، و: 596.

[7]- المصدر نفسه، باب الحبس، ص ص: 500، 593.

[8]- المصدر نفسه، باب النكاح، و:61.

الخصومات والنزاعات بين أهل العروسين[1] خاصة إذا لم يبين الطرفين ما هو ملك وما هو غير ملك، والنكاح الّذي يعقد على هذه العادة هو مدعاة لفساد الأنكحة، لذا دعا العلماء والفقهاء إلى ضرورة تقدير الصداق وتبيين مقدار الجهاز[2].

وللمرأة أن توكل من يعقد عليها النكاح من غير وليها، كأن توكل أخاها أو رجلا أجنبيا[3]، وإذا غاب وليها يزوجها إخوتها فإن امتنعوا من تزويجها فلجماعة المحل وعدوله توكيل من يعقد عليها النكاح[4]. وتجدر الإشارة إلى أنّ هناك من كان يلتزم لزوجه خصوصا إذا كانت من طبقة الخاصة الثرية بأن لا يتزوج عليها، ولا يتسرى، ولا يتخذ أم ولد بغير إذنها وموافقتها، وإن حصل ذلك فالداخلة عليها بنكاح طالق[5]، وبالرغم من ذلك كان الأزواج يتسرون بالإيماء، ويتخذون أم ولد في السر خوفا من تفريق الشمل[6].

وللزوجة الحق في اشتراط ما شاءت من الشروط أثناء العقد، كما لا يمنعها زوجها من زيارة أقاربها وجيرانها، وأن لا يخرجها من بلدها[7]. وبعض الزوجات كن تطالبن من أزواجهن تحريم جميع النساء ما دمن على قيد الحياة، أو يقول لها هو: "المرأة الّتي تأتيني في الحلال فهي حرام ما دمت في عصمتي"[8]. وتشترط

---

[1]- وردت نازلة في هذا الشأن حول اختلاف أهل الزوجين على القطيفة الّتي دفعت في الجهاز، فشخص يدعى عبد الرحمن بن الشيخ عبد الله بن أبي الخير تخاصم مع بابا حم بن علي على القطيفة الّتي دفعها ولد بابا حم كصداق لابنة عبد الرحمن، بحيث أعيدت له القطيفة غير الّتي دفعها كصداق، وزعم أنّها له وليست لابنه، ولما وجهها الأب لدار ابنته علم بأنّ القطيفة كانت عارية، فتخاصم مع والد الزوج، وذكر بأنّه لو علم بذلك ما قبل بذلك. البلبالي، المصدر السابق، و: 60.

[2]- المصدر نفسه، باب النكاح، و: 61.

[3]- المصدر نفسه، و: 68.

[4]- سئل الشيخ محمد الزجلاوي عن نازلة وقعت في هذا الشأن، وهي: "أنّ امرأة شريفة القدر لها أخ حاضر وأخ غائب بنحو مسافة يومين، تراكنت مع خاطب لها وطلب العقد عليها من الأخ الحاضر فامتنع حتى يفاصله في منازعة كانت بينهما، أو حتى يأتي الله بساعة خير، ثم حضر جماعة المحل وعدوله ووكلوا من عقد عليها منهم". المصدر نفسه، و: 68.

[5]- المصدر نفسه، و: 81.

[6]- المصدر نفسه، و: 67.

[7]- المصدر نفسه، و: 69.

[8]- الزجلاوي، المصدر السابق و و: 18- 19.

المرأة كذلك على الزوج تطليق زوجته الأولى أو القديمة حتى ترضى هي به وتتزوجه[1].

وكان أهل توات يحرصون على ألا تتزوج اليتيمة إلا بعد البلوغ وبموافقتها، ويتأكد الشهود من ذلك عند النظر إلى وجهها و قدها، وإذا خيف عليها من الضياع فإنها تزوج قبل البلوغ[2]. وكذلك البكر غير اليتيمة إن غاب عنها وليها دون أن يترك لها النفقة لضعف حاله، تزوج نفسها دون مطالعة وموافقة أبيها لأنّه يخشى عليها من الضيعة والفساد[3].

ج- مراسيم الزواج:

إنّ الاتفاق على موعد الزفاف كان يتم بعد الانتهاء من إعداد الجهاز، ويقوم الزوج بإرسال بعض المال لزوجته ويأمرها أن تشتري طعاما تطعم به أقارب العروسين ليلة الزفاف[4]. وتقام الولائم التي يتم فيها دعوة كل أعيان القصور، وتستمر تلك الولائم مدة ثلاثة أيام. ويحتفل أهل الزوجين احتفالا كبيرا يتم فيه دق الطبول ونفخ المزامير والقيام بالرقصات، وخلال الحفل يختلط الرجال بالنساء، وترمى الدراهم للراقصين، وفي اليوم الأخير من الاحتفال يؤخذ العريس إلى المسجد وتوضع له الحناء في يديه[5]، وبعد انتهاء الحفل يشيع العريس إلى بيته برفقة زملائه وهم يقرؤون البردة، ويكرمهم بالطعام والشاي[6]، ويقيم مدة سبعة أيام في دار البناء، وثلاثة بالنسبة لفئة الحراثين والعبيد[7]. ومن العادات في الزواج، أنّه إذا حلت عشية البناء لا يتكلم العريس، ويجعل في فمه قطعة من فضة ويبقى صامتا حتى يرى النجوم في السماء، ومنها أيضا اختلاط الرجال بالنساء في ليلة العرس[8].

---

[1]- الزجلاوي، المصدر السابق، و: 19.
[2]- البلبالي، المصدر السابق، و: 60.
[3]- الزجلاوي، المصدر السابق، و: 15.
[4]- البلبالي، المصدر السابق، و: 51.
[5]- أحمد الحمدي، محمد بن عبد الكريم المغيلي، ص ص: 46- 47.
[6]- محمد باي بلعالم، الرّحلة العلية، ج: 2، ص: 292.
[7]- Selka, Op.Cit, P: 552.
[8]- محمد باي بلعالم، التعريف ببعض الجوانب من منطقة توات، ص: 57.

وتتجهز العروس يوم الدخول شأنها شأن غيرها من النساء في المجتمع الجزائري، فكانت المرأة التواتية تحرص على إظهار جمالها، وتتفنن في تزيين نفسها، والماشطة أو المزينة هي التي تتولى مهمة تجميل وتزيين العروس، فتسرح لها شعرها، وتضع أدوات الزينة من الكحل والسواك على وجهها، والطيب على جسدها، وتنقش الحناء على يديها وقدميها -والظاهر أنّ الحناء من أدوات الزينة التي لا يستغني عنها بالواحات الصّحراوية- ويستغرق تجميل العروس وقتا طويلا.

وذكر "سلكه" "Selka" في مقاله عن توات: "أنّه من بعض عادات التواتيين في الزواج أن يقوم العريس بحمل سيفه ليلة زفافه"، وفسر أهل توات هذه الظاهرة بأنّها تطرد الأرواح الشريرة عن الزوجين، كما فسرها البعض الآخر بأنّ الزوج من خلال حمل سيفه يبين لزوجته بأنّها محمية ومصانة من جميع الأخطار[1]. أما السكن فكان على الزوج توفيره، وإن كان للزوجة سكن خاص بها أقام معها على أن يؤدي لها الكراء وهذا إن لم تمتعه فيه[2].

وإذا أنجبت العائلة الجديدة مولودا تكون فرحة الأسرة كبيرة، بحيث يتم إعلام جميع أفراد العائلة لحضور قطع حبل سرته، ومن لم يحضر يمنع من رؤية المولود مدة ثلاثة أشهر كاملة[3]، وكانت تسمى المرأة بـــ"النفساء"[4]، ومن العادات أن تطلق طلقة بارود تفاؤلا بأن يكون شجاعا، ويغرز مسمار في المكان الذي سقط فيه المولود، ولا يغسل إلاّ بعد مرور سنة، ولا يحلق شعره إلاّ بعد مرور أربعين يوما، ولا يراه أحد إلاّ إذا كان من أهله مدة أربعين يوما، معتقدين أنّه يصاب بمكروه[5]. ويقوم والد الطفل بإقامة الآذان في أذن المولود، وهذه عادة سارية في كافة أنحاء العالم الإسلامي. وفي اليوم السابع من الولادة أي يوم العقيقة يقام احتفال يستدعى

---

[1]- Selka, Op.Cit, P: 552.

[2]- البلبالي، المصدر السابق، و: 131.

[3]- أحمد الحمدي، المرجع السابق، و: 47.

[4]- عاشور سرقمة، التراث الشعبي بمنطقة توات، ص: 1. http:// www. Rezgar.com

[5]- محمد باي بلعالم، التعريف ببعض الجوانب من منطقة توات، ص: 57.

فيه أعيان القصر لوضع اسم للمولود، وعادة ما يسمى الطفل باسم جدّه لأبيه وكذلك البنت[1].

ويحضر طلبة المدرسة القرآنية –الكتاب– لتلاوة القرآن، ويتناولون في الحفل التّمر والحليب، وعندما ينتهون يدعون له بالصحة وطول العمر والصلاح[2]. ومن العادات يوم العقيقة، أن يقوم أهل المولود بطبخ الربع الأمامي من الشاة دون فصل العظم عن اللّحم، ثم يتناوله الأبوان فقط، وتعلق العظام في سقف حائط الدار أو في نخلة[3]، ويعطى رأس الشّاة وجلدها للقابلة أجرة لها[4]. وبعض القبائل التواتية كانت تمنع الماء عن الرضيع أربعين ليلة، وتكتفي بإعطائه حليب الشاة، وبعدما يصبح عمر الطفل سنة يحمل كل رموز قبيلته كأن يحلق نصف شعر رأسه ويبقي الشعر في النصف الآخر، أو يتم وضع صدفة في أذنه اليسرى[5]، وهذه الفعلة نهى عنها الرسول "صلى الله عليه وسلم" لما فيها من تشبه باليهود. وإذا صار الولد يمرض كثيرا يباع للعبيد، فيأتي العبيد ويأخذون في الرقص، ويطلقون عليه اسما من أسماءهم، ثم يطلبون من أبيه أن يعاهدهم على أن لا يأكل هذا المولود شيئا من الأطعمة المباحة، فتارة تكون الكبد مثلا أو الرأس، ويزعمون أنّ هذه الفعلة الشنيعة تزيد في الأعمار وتشفي الأسقام[6].

وتعدد الزيجات بتوات قليل، ويرجع السبب في ذلك إلى عدم سماح المرأة التواتية للرجل بالتزوج عليها، فهي تشترط شروطا أثناء العقد تفي بعدم التعدد، كما أنّ الفقر وتدني المستوى المعيشي للأفراد جعل فكرة التعدد شبه مستحيلة، فالزوج لا يستطيع أن يعيل أسرة واحدة فكيف باثنتان أو ثلاث. ويجمع الزوج جميع زوجاته في بيت واحد، إلاّ من امتنعت عن السكن مع الزوجة الثانية أو الثالثة فلها أن تسكن لوحدها دون وجود ضرة لما في ذلك من الغيرة، وهذا أمر معروف وارد، وللزوج

1– أحمد الحمدي، المرجع السابق، ص: 47.
2– عاشور سرقمة، المرجع السابق، ص: 1.
3– محمد باي بلعالم، التعريف ببعض الجوانب من منطقة توات، ص: 57.
4– محمد باي بلعالم، الرّحلة العلية، ج: 2، ص: 286.
5– أحمد الحمدي، المرجع السابق، ص: 47.
6– محمد باي بلعالم، التعريف ببعض الجوانب من منطقة توات، ص: 57.

أن يجبر الزوجة الأولى على العيش مع الزوجة الثانية، وإن امتنعت عن ذلك خاصة إذا كانت من الطبقة الخاصة الثرية ذات مال ونفوذ، تسقط عنها النفقة والكسوة ويأخذ الزوج مالها نكاية بها[1].

ومن المسائل التي كانت تشغل المرأة التواتية هي غياب زوجها دون معرفة مكان وجوده، فطول الغيبة مع عدم ترك النفقة يجعل الزوجة تشتكي من ضرر الوطء والإنفاق، فتقوم لدى القاضي تطلب النفقة، فيبعث القاضي إلى الزوج الغائب إن علم مكانة يعلمه بشكوى زوجته ويأمره بالقدوم إلى بلده أو يقوم بتطليق زوجته، فإن حضر وثبت أنّ لا مال عنده ينفقه على زوجته وعياله ضرب له أجل شهرين، وإن أيسر فيهما طلقت، وإذا كان له مال وأخفاه ومنعه عن امرأته للحاكم سجنه وتأديبه عقوبة له [2].

وإذا طالت غيبة الزوج أو فقد ولم يعلم مكانه، تتولى زوجته الوصاية على بناته، ويتكفل العم بتزويجهن بعد أن تأذن له الأم بذلك لاحتمال وفاة الأب، وإذا كان لهن أخ بالغ فهو أولى بعقد نكاحهن[3]. والغائب عن ذويه إذا لم يترك النفقة وله ببلده أرض أو دار أو عقار يسمح القاضي للزوجة ببيع عقارات زوجها، وإنفاق ثمنها على أبناءها، ومن التكافل الاجتماعي أن يقوم أقارب الزوج بالنفقة على عائلته مدة غيبته[4].

3- الطلاق:

الطلاق هو حل العصمة المنعقدة بين الزوجين أو فك عقد التزويج وحل الوثاق، وهو الإرسال والترك، وقيل هو صفة حكيمة ترفع حلية متعة الزوجة لزوجها موجبا تكررها مرتين للحرة ومرة للأمة من قبل الزوج[5]. لقوله تعالى:

---

[1]- البلبالي، المصدر السابق، و: 73.

[2]- المصدر نفسه، و: 127.

[3]- المصدر نفسه، باب النفقات، و: 127.

[4]- المصدر نفسه، و: 128.

[5]- الثميني ضياء الدين عبد العزيز، شرح كتاب النيل وشفاء العليل. محمد بن يوسف أطفيش. بيروت: دار الفتح، ط:1، 1392هـ/1972م، ج: 7، ص: 28.

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾[1]. وقال أيضا: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾[2]. وقال عليه الصلاة والسلام: "أبغض الحلال إلى الله الطلاق"[3]. وقوله أيضا:"ما أحل الله شيئا أبغض إليه من الطلاق"[4].

ومن خلال قراءتنا لكتب النوازل، استطعنا إبراز أهم المشاكل والخصومات التي كانت تتعقب الأزواج وتفضي إلى وقوع الطلاق، ومن بين هذه النزاعات تعهد الزوج لزوجته بعدم إخراجها من بلدها فإذا أخرجها يقع الطلاق[5]، وإذا تزوج عليها واحدة من الإيماء، أو اتخذ أم ولد دون رضاها وموافقتها فرق شمل عائلته، فالمرأة التواتية كما مرّ معنا تشترط شروطا أثناء العقد على زوجها، وإن لم يلتزم بها بعد الدخول لها أن تطلق نفسها.

ثم إنّ دخول وخروج المرأة لزيارة أقاربها أو جيرانها أمر لا يحبّذه الأزواج خاصة إذا كانت من الطبقة الخاصة[6]، وكذلك خروج المرأة لغزل ونسج الصوف مع جيرانها دون علم زوجها من الأمور التي كانت تغضب الزوج، فيخيرها بين البقاء بالبيت أو الطلاق[7]، فإن اختارت البقاء والمكوث معه بقيت، وإلا طلقت. وكان الطلاق يقع أيضا لأتفه الأسباب، كأن يحلف الزوج على زوجته بالطلاق إن هي أعطت حاجة أو أخرجت شيئا من بيته[8].

ومن بين المشكلات العائلية مسائل الشرف، كاتهام الزوج امرأته بالخيانة مع عدم وجود دليل يثبت صحة ما يدعيه، فيقوم بتطليقها لمجرد الشك والظن. وقد ورد

---

[1]- سورة البقرة، الآية رقم: 229.
[2]- سورة الطلاق، الآية رقم: 1.
[3]- القزويني أبو عبد الله محمد بن يزيد، سنن ابن ماجه. مصر: دار الكتاب المصري، لبنان: دار الكتاب اللبناني، كتاب الطلاق، ج: 2، ص: 651.
[4]- أبو داود سليمان السجستاني، سنن أبي داود. علق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد. بيروت: لبنان، دار إحياء الثرات العربي، ج: 2، ص: 261.
[5]- البلبالي، المصدر السابق، و: 69.
[6]- المصدر نفسه، و و: 59- 60.
[7]- المصدر نفسه، و: 51.
[8]- المصدر نفسه، و: 106.

في إحدى النوازل أنّ: "رجلا قام بتطليق زوجته بسبب تهمة اتهمها بها، وذلك أنّها كانت بدار أختها وجاءت أمة أختها تسأل عنها فلم تجدها، وبعودة الزوج إلى داره أخبرته زوجته الثانية بما وقع، فطلقها ثم تبين له أنّها كانت بدار بعض أقاربها"[1].

والجدير بالذكر أنّ عدم إنفاق الزوج على زوجته يؤدي إلى وقوع العديد من الخلافات والنزاعات، بحيث تقوم الزوجة برفع شكوى ضده لدى القاضي الّذي يجبره على النفقة أو الطلاق، وإن تولت هي مهمة النفقة على نفسها وعياله حرمته من حقوقه الزوجية من أن تشركه الفراش[2].

ومن الإساءة للزوجة عدم تكلم الزوج معها أي ترك كلامها، كما يقوم بهجرانها وعدم التقرب منها، وينام خارج بيته فيضيق صدرها بذلك، وإذا علمت نساء القصور بذلك عايرنها وسخرن منها[3]. والمعروف بتوات أنّ المرأة لا ترفع دعواها ضد زوجها إلى القاضي، لأنّها ترى في ذلك معرة وفسادا مع زوجها، لذا كانت تقوم إلى عدول بلدها وإلى الثقاة من جيرانها[4].

وكثيرا ما كانت تتعرض المرأة التواتية للاعتداء من قبل زوجها، فيقوم بشتمها وضربها، وسلب أغراضها من ثياب وأثاث، ولا يكتف بذلك بل يضعها على فرسه ويرسل بها إلى أهلها[5]. ومن الأزواج من يمثل بزوجته كأن يفقع عينها[6]، وفي هذه الحالة كان للزوجة الحق في طلب الطلاق لأنّ زوجها شديد يخاف عليها منه. وتتعرض الزوجة أثناء الطلاق إلى التهديد من قبل الزوج، كأن يمتنع من تطليقها إلاّ إذا تركت له نصيبا من الصداق، كأن يقول لها: "أعطيني كذا وكذا طلقتك"، أو: "أتركي لي شيئا من الصداق"[7]. وإذا طلق الزوج زوجته طلقة واحدة ثم لقي شخصا

---

[1]- البلبالي، المصدر السابق، و: 98.
[2]- المصدر نفسه، و: 124.
[3]- المصدر نفسه، و: 100.
[4]- المصدر نفسه، و: 133.
[5]- المصدر نفسه، و: 93.
[6]- المصدر نفسه، و: 725.
[7]- المصدر نفسه، و: 86.

وسأله عن سبب الطلاق فيظن أنّه يريد أن يأمره بردها إلى عصمته فيقوم بتطليقها ثلاثا[1]، فلا تحل له بعد ذلك إلا إذا نكحت زوجا غيره.

ويقع الطلاق أيضا لأسباب بسيطة، فمثلا شخص ترك دراهم في بيته ثم لم يجدها في مكانها اتهم زوجته وحلف عليها بالطلاق أنّه ما أخذها غيرها. وإذا تشاجر رجلان في مسألة ما يحلف كليهما بالطلاق[2]. ومن الآباء من كان يحلف على ابنه أنّه لن يكلمه حتى يقوم بتطليق زوجته، وكذلك السّيد يحلف على غلامه ويأمره بتطليق زوجته، وإن امتنع الغلام عن إيقاع الطلاق يطلب منه سّيده تطليقها على أن يردها له بعد ذلك، لأنّه أوقع الحلف[3].

والزوجة الناشز يفرض عليها زوجها في كل يوم من أيام نشوزها أربعة مثاقيل[4]، والمفروض أنّها لا تدفع ذلك لأنّ هذا لا يلزمها وعليها الإثم فقط، وللزوج أن يحرمها من النفقة والكسوة كونها حرمته من حقوقه الزوجية. وقد ورد في رحلة العياشي نص يفيد أنّ أحد طلبة توات ممن يثق به أخبره أنّ: "من عادات أهل توات أنّه من نشزت زوجته وطلقها يأتي إلى شهود يسترعيهم ويقول اشهدوا أنّي ما طلقت امرأتي الّتي أكسوا من سورتها وشدّتها، فمتى أرادت التزوج استظهر بذلك الرسم فلا يتزوجها أحد حتى ترجع إليه"[5].

والظاهر من هذا النص أنّ الزوج قام بتطليق زوجته، ثم ادعى عكس ذلك مع إحضار شهود يشهدون معه على أنّه ما طلق زوجته، فيقوم لدى الناس مصرحا أنّه ما طلق امرأته، وليثبت صحة ذلك يحضر الشهود ليشهدوا معه حتى يصدقه الناس، والغرض من فعله هذا هو إلحاق الأذى بزوجته نكاية بها على نشوزها فلا يقصدها الخطاب ولا تتزوج فتعود إليه.

---

[1]- الزجلاوي، المصدر السابق، و: 30.
[2]- البلبالي، المصدر السابق، و: 30.
[3]- المصدر نفسه، و و: 110-111.
[4]- المصدر نفسه، و: 133.
[5]- العياشي، المصدر السابق، ج: 1، ص: 24.

***- العدة والحضانة:**

أ- العدة:

تعتد المطلقة ببيت زوجها أو أهلها ولها حق النفقة على زوجها طيلة مدة العدة، وعدة الحرة ثلاثة أشهر لقوله تعالى: ﴿والمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [1]. أما أم الولد فحيضة واحدة، وبانتهاء فترة العدة للمرأة أن تخطب وتنكح. وكانت المرأة غير المتفقهة في الدّين تتزوج قبل إتمام عدتها أي بعد حيضة أو حيضتين، لذا كان الزوج يسأل ويتحرى عن ذلك قبل وقوع العقد والدخول، وإذا تم الزواج واعترفت له الزوجة بأنّها تزوجته بعد حيضة واحدة أو اثنتين، أوقع عليها الطلاق وطالبها بإرجاع الصداق[2]. وعرف عن التواتيين أنّهم كانوا يحذرون المطلقة من أن تقبل على الزواج دون إتمام عدتها، ومع ذلك كانت تقبل على ذلك. والمعتدة بدار طليقها تخرج منها مباشرة بعد انقضاء العدة، إلاّ إذا كانت حاملا فتبقى إلى أن تضع حملها. ومن اتهم طليقته بالكذب والافتراء له أن يريها للنساء حتى يتأكد من صحة أو كذب ما ادعته، فإن وجدها حاملا تركها وإلاّ أخرجها[3].

ب- الحضانة:

تكون حضانة الطفل للأم، وإذا أبت وامتنعت عن حضانته يكفله والده، فإن رآه كثير البكاء على أمه خاصة إذا كان رضيعا ردّه إليها[4]. وللأب أن ينتقل بولده من بلد لآخر إذا حضنه، وإن رفضت والدته خروجه من البلد وطالبت بحضانته، يرده لها على أن تكسوه وتنفق عليه وتتركه يتعلم في الكتاب[5]. والمطلقة طلاقا خلعيا يمنعها طليقها من التزوج في مدة إرضاع ولده، ويطالبها بأن ترضعه سنتين وتكفله أربع سنوات، فإن مات هو في هذه المدة فأبوها ضامن لنفقته حتى يستكمل

---

[1]- سورة البقرة، الآية رقم: 228.

[2]- تشير إحدى النوازل أنّ: "رجلا تزوج من امرأة طلقها رجل من قبله، ثم استراب في أنّه نكحها قبل تمام عدتها فما زال يسألها حتى اعترفت أنّها تزوجها قبل حيضتين". البلبالي، المصدر السابق، و و: 75- 120.

[3]- المصدر نفسه، و: 121.

[4]- المصدر نفسه، و: 128.

[5]- المصدر نفسه، و: 136.

ست سنين، ويشترط عليها إذا لم يكن أصل هذا الصلح جائز فله الرجعة عليها أي يردها إلى عصمته. ومن كانت زوجته حاملا وطلقها لا ينفق عليها حتى تضع مولودها، فإذا وضعته تسلمه له، وإن امتنعت فنفقته ورضاعته عليها حتى تفطمه، وان لم تلتزم بذلك فهي زوجته[1].

II- المبحث الثاني: عادات وتقاليد واحتفالات سكان توات

سادت منطقة توات عادات وتقاليد إيجابية وسلبية، منها ما اضمحل بفضل التوجيهات الدّينية، ومنها ما بقي لدى بعض الجهلة، والعادات كثيرة ولا يمكننا أن نذكرها كلها، لذا اخترنا البعض منها.

1- العادات والتقاليد:

أ- العادات والتقاليد المتعلقة بالفقاقير:

تتمثل الموارد المائية بتوات في الفقاقير، و بدأ السكان في حفرها في وقت مبكر، واستمرت الأجيال تحافظ عليها لأنّها الوسيلة الوحيدة للحصول على الماء، وتعد الفقاقير المائية وتشييدها، والمحافظة عليها، وطريقة توزيع مياهها من الأعمال الهندسية الرائعة نظرا للطريقة الفنية الّتي يتم فيها تنفيذ هذه المراحل.

***- تعريف الفقارة:**

اشتق اسم الفقارة من "الفقر" الّذي هو الحفر، قولك "فقر" أي "حفر"، و"الفقاقير" جمع "فقارة"[2]. وجاء في تاج العروس أنّ "فق" معطوف على حجر أو على نقر يجمع الماء[3]، والفقاقير أي "الفكارات"، وهي "الخطاطير" بلهجة مراكش، وهو الأنسب لأنّها أبار متعددة يفقر من جنب كل واحد إلى الآخر فيبرز ماؤه[4].

---

[1]- البلبالي، المصدر السابق، و: 86.

[2]-Jacob Oliel, OP.Cit, P: 43.

[3]- الزبيدي محمد مرتض، تاج العروس من جواهر القاموس. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ط:1، 1306هـ، مج:1، ص: 98.

[4]- الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية، ص: 162.

والفقارة عبارة عن سلسلة من الآبار بين كل بئر والآخر مثل درجات السلم نفق يبدأ العمل فيها من مكان عال وينحدر من أعلى إلى أسفل[1].

***- إنشاء الفقارة:**

اختلفت الآراء حول من أنشأ الفقارة، فصاحب كتاب "البسيط في أخبار تمنطيط" لمحمد الطيب بن عبد الرحيم المنياري، وهو غير مؤلف "القول البسيط في أخبار تمنطيط" يرجع إنشاءها إلى الأقباط فيقول: "إنّ تمنطيط كانت عامرة في عهد الفراعنة، ومن سكانها القبط، وهم المهندسون لبنائها وأصحاب فكرة إنشاء الفقارة، ولا تزال بعض الآثار الدالة عليه باقية مثل الفقارة المسماة هَنُ وهو اسم لأحد آلهة الفراعنة القدامى"[2].

و يقول السيد عمر بن عبد الرحمن المهداوي:"إنّ اليهود هم أول من أسس الفقارة"[3]، وإلى هذا الرأي يذهب جاكوب إذ كتب يقول:"إنّ اليهود اللاجئين من السيريناك هم من أدخل الفقارة إلى الصّحراء، وأصل الفقارة من الشرق وهي معروفة باسم قناة في كل من ايران والسعودية، ووجدت بإقليم توات نظرا لحاجة الناس إلى الماء"[4]. وذكر الحاج أحمد بن يوسف التنلاني: "أنّ عرب القدوية الّذين جاءوا من مصر واستقروا بتوات في نهاية القرن الثالث الهجري العاشر الميلادي ترجع إليهم فكرة حفر الفقارة"[5].

والواقع أنّ الأقباط لم يسكنوا توات، ولم يذكر المؤرخون في كتاباتهم حول توات عن وجودهم بالواحات الصّحراوية، ويرجح محمد باي بأنّ اليهود هم الّذين حفروا الفقاقير لأنّها كانت موجودة في المدينة ومعروفة باسم الشراج[6].

---

[1] – محمد باي بلعالم، الرّحلة العلية، ج:1، ص: 70

[2]– البكري بكري، المرجع السابق، ص: 62.

[3]– محمد باي بلعالم، التعريف ببعض الجوانب من منطقة توات، ص: 55.

[4]- Jacob Oliel, Op.Cit, P: 44.

[5]- L. Herbaut, Op.Cit, P: 561

[6] – محمد باي بلعالم، الرّحلة العلية، ج: 1، ص: 71.

***- طريقة حفر الفقارة:**

ذكر ابن خلدون طريقة تشييدها حيث قال:"وفي هذه البلاد الصّحراوية إلى وراء العرق غريبة في استنباط المياه الجارية لا توجد في تلول المغرب، وذلك أنّ البئر تحفر عميقة بعيدة الهوى وتطوى جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلدة، فتحت بالمعاول والفؤوس إلى أن يرق جرمها، ثم تصعد الفعلة ويقذفون عليها زبرة من الحديد تكسر طبقتها عن الماء، فينبعث صاعدا فيفعم البئر، ثم يجري على وجه الأرض واديا، وهذه الغريبة موجودة في قصور توات وتيكورارين وورغلا وريغ"[1].

والواضح أنّ حفر البئر يتم من منطقة مرتفعة تحدد نسبيا بعد التأكد من وجود الماء بباطنها، ويصل عمقه إلى أكثر من أربعين قدما، ثم تمدد من البئر قناة باطنية تتجه نحو المصب على أن يراعى ميلها التدريجي الّذي يسمح بجريان ماء البئر وانحدارها ببطء، وتقام فوق هذا النفق فوهات أسطوانية للتهوية كل ثلاثين مترا، وفي نهاية هذا النفق تتجمع المياه في أحواض يسمى الواحد منها الماجل، لتخرج مرة ثانية من فتحات منحدرة تسمى المشطة، وهي الّتي تحدد نصيب الفرد من ماء الفقارة[2]. وبفضل الفقارة أحدثت قصور عديدة بالإقليم، وماء الفقارة ملك جماعي توزع حصصه بطريقة عادلة، حسب ملكية الأفراد والجماعات لحباة الماء.

***- قياس الماء وتوزيعه:**

كان أهل الصّحراء يستعملون المكاييل خاصة لتقدير مياه السقي، وكانوا في البداية يعيرون بالعين دون مكيال، وفي عهد مولاي الرشيد العلوي[3] جاء الجابي المسؤول عن إحصاء مقادير المياه من أجل تحديد الزكوات والأعشار بلوحة من

---

[1]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج: 7، ص: 68.

[2]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 40.

[3]- **مولاي الرشيد (1040ـ1082هـ/1630-1671م.):** بويع بيعة عامة ودخل في طاعته الأحلاف وبنو يزناسن سنة 1075هـ/1664م، فتح تازا وحاصر سجلماسة مدة تسعة أشهر ودخلها، كما حاصر فاس مرتين سنة 1076هـ/1665م وفتحها، وكان أميرها يدعى أبو عبد الله الدريدي، وفتح مراكش في 22 صفر سنة 1079هـ/1668م. شيّد قنطرة وادي سبو خارج فاس سنة 1080هـ/1669م. توفي يوم الخميس وكان يوم النحر عام 1082هـ/1671م، دفن بمراكش بالقصبة وعمره يناهز الإثني والأربعين سنة. الناصري، الاستقصا، ج: 7، ص ص: 32- 44.

نحاس مثقوبة لتقدير المياه[1]. وقد تبلغ الفقارة منتهى الارتفاع قبل الحصول على كمية الماء المرغوب فيه أو يصعب الحفر في الاتجاه المستقيم لها، فيضطر الخبير إلى توقيف الامتداد، فيخطط سلسلة آبار أحد جانبي الفقارة تسمى "الفرع" أو "الكراع"[2]، ويمر الماء بالساقية ليتجه إلى مدخل القرية أين يتم توزيعه، وعند نهاية الساقية تنصب القسرية، وهي عبارة عن ممرات مستطيلة تنحت بعناية وحسابات على قطعة حجر مستطيلة تسمح بتوزيع الماء حسب الحصص المطلوبة[3].

ويعد توزيع الماء عملا هندسيا يقوم به كيال الماء، وهو رجل أمين وخبير[4]، يجيد عملية الحساب والخطوط المختلفة، يساعده في عمله أرباب الفقارة. وإلى جانب الكيال يوجد خبير آخر، يكمن عمله في معالجة التغييرات والضرر الذي يلحق بالفقارة من جراء سقوط أجزاء منها، مما يؤدي إلى نقصان كمية مائها. ويتم قياس الماء بآلة الحلافة وكانت تسمى في بعض الجهات بـــ"الشققة"[5]، ويستعمل في منطقة تيمي مصطلح "القيراط"، أما مصطلح "الصبع" فكان تداوله في ناحية تسابيت، في حين كان يستعمل مصطلح "الثقب" في منطقة اولف[6].

وكان عدد القسمات أربعة وعشرون قسمة، كل واحدة منها تضم عدد متغير من الماجن، وهو بدوره يتجزأ إلى أربعة وعشرون جزءا، كل جزء يسمى قيراط صغير أو حبة صغيرة، وذلك حسب المناطق[7]، وكل قيراط يجزأ إلى أربعة وعشرون جزءا يسمى قيراط القيراط، والقيراط الكبير يكون صحيحا أو كاملا كلما كان ماء الفقارة غير ناقص من أصله، وينقص كلما نقص ماؤها، ويضطر أرباب

---

[1]- الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية، ص: 201.

[2]- الكراع هي آبار خارجية عن سلسلة الفقارة وتصب فيها، وتسمى الزيادة في الماجل بالكراع. محمد باي بلعالم، الرّحلة العلية، ج: 2، ص: 347.

[3]- L.Herbaut, Op.Cit, P: 567.

[4]- Ibid, P: 566.

[5]- **الشققة:** هي عبارة عن صحيفة معدنية مستطيلة تصنع من الحديد أو النحاس، بها ثقب دائري الشكل بأحجام مختلفة، وكل ثقبة وحجمها، فمنها الحبة أوالصبع، وترسم على الأرض هكذا(/// ///) ستة خطوط في كل خط أربعة قراريط، والقيراط يرسم هكذا (*) وقيراط القيراط هكذا(-- -- --). محمد باي بلعالم، التعريف ببعض الجوانب من منطقة توات، ص: 55.

[6]- الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية، ص: 201.

[7]- L.Herbaut, Op.Cit, P: 566.

الفقارة إلى بيع كمية من الماء بهدف صيانتها لزيادة مائها، فتباع مواجن من أصل الماء وتحسب للمشتري دون أن يتغير العدد الأصلي. وفي سجل خاص يدعى بـــ "زمام الكيل" كان يتم تقييد كل أسماء أرباب الفقارة، كما كان يتم تقييد عمليات التوزيع والكيل –نصيب كل فرد من الماء–، ويعرف الزمام أيضا باسم "جريدة الفقارة"، وتباع مواجن الماء وتورث، ولكن البيع يبقى في نطاق القبيلة والعائلة، إذ لا يسمح ببيعه للأجانب[1].

وكان يسخر الآلاف من العبيد لحفر الفقارة[2]، ويعتبر هذا النشاط من الأعمال الشاقة يعتمد على المجهود العضلي، وعلى وسائل بدائية تقليدية، تقتصر على فأس حجرية صغيرة، وقفف من سعف النخيل، تملأ بالتراب المنحوت من صخر كلسي صلب، وتمد من يد إلى أخرى إلى أن تصل إلى سطح الأرض. ويتحتم تنظيف وصيانة الفقارة باستمرار وبصورة دائمة، لأنّها مهددة بالانسداد لتراكم الرمال بالمجرى، وكان يقوم بهذا العمل الحراثين والعبيد[3]. وعلى أرباب الفقارة قياس منسوب مائها في بداية كل موسم زراعي حتى إذا انخفض منسوب الماء بها تحتم تنظيف الأنبوب أو تعميقه أو تزويده بأنابيب جانبية [4].

وكانت مياه توات تقسم حسبما جرت عليه عاداتهم، فلكل فرد نصيبه من الماء. وحدثنا صاحب كتاب "القول البسيط" أنّ اللمتون كان لهم فقارة تسمى بـــ"هن" تقسم مياهها مناوبة بالأيام والليالي ومسمية في ذلك بأسماء قبائلهم، كل نوبة باسم قبيلة من باب تسمية الشيء بما يؤول إليه، فيقال فيها أتعتمان، والصالح، وأيتوسف، وأتمحمد، إلى آخر قبائلهم. وللخماس[5] نصيب من الماء، وهو لا يرقد ولا ينام في ريح ولا مطر ولا برد، وإلاّ أعطى لصاحب الجنان نوبته[6].

---

[1]-Gilbert Grand Guillaume, Op.Cit, P: 123.
[2]-Jacob Oliel, Op.Cit, P: 44.
[3]-J.Despois, R.Raynal, Op.Cit, P: 452.

[4]– فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 40.
[5]– محمد الطيب، المصدر السابق، ص: 16.
[6]– **الخماس:** يطلق هذا الاسم على من يعمل عند صاحب الأرض نظير سدس المحصول وليس الخمس، وكان هذا النظام ساريا في توات وذلك أثناء القرن 13هـ/19م وبداية القرن 14هـ/20م.
Selka, OP.Cit, P: 523.

وجرت العادة بتوات أنّ أهلها كانوا يسلفون الماء، فيسلف بعضهم بعضا لمدة يوم كامل وليلة، على أن يعطيه الآخر ما أخذ منه بعد أربعة أو خمسة أيام، أو ما عسى أن يقع الاتفاق عليه. وجاء في إحدى النوازل "عن أهل قرية لهم عين مأمونة يقتسمون الماء على دول معلومة بينهم، فجرت عاداتهم بالسلف فيه بعضهم من البعض، وأخذ أحدهم ماء صاحبه يوما كاملا أو طول اللّيل على أن يعطيه مثل ما يأخذ منه بعد أربعة أيام أو خمسة...". وسُئل الشيخ الفقيه القاضي سيدي محمد بن عبد الرحمن البلبالي عن هذه المسألة فأجاب بجواز السلف في الماء[1].

ومن العادات والتقاليد التي ورثها التواتيون عن أجدادهم وآبائهم فرض الضرائب على أصحاب مياه الفقاقير دون غيرهم من أصحاب البساتين والجنان، وهي عادة قديمة ظلت تتبع حتى القرن الثالث عشر الهجري أي التاسع عشر الميلادي. وسُئل في هذه المسألة الشيخ القاضي محمد بن عبد الرحمن بن عمر[2] فأجاب بأنّ هذه العادة موروثة واتبعها القوم وأنّها ليست متماشية مع واقع الحال[3]. وقرر سلطان المغرب سنة 1173هـ/1759م بأن تجبى الضرائب من أصحاب البساتين والجنان وليس من أصحاب المياه، وحددت نسبة الزكاة بعشر المحصول من التّمر أو الشّعير، وأما جني المحصول فكان يتم تحت رعاية ومراقبة الأشراف، وإذا لم يبلغ نصاب الزكاة فلا يؤخذ من صاحبها شيء[4]. وكانت تنجم العديد من المنازعات والخصومات حول مسألة تقسيم المياه، وكان القاضي هو الّذي يقوم بحل تلك المشاكل، لأنّها من ضمن اختصاصاته ومسؤولياته، ويساعده في فض تلك النزاعات القائمة كيال الماء[5].

---

[1]- البلبالي، المصدر السابق، البيوع، القرض، و: 206- 208.

[2]- **محمد بن عبد الرحمن بن عمر(ت 1233هـ/1817م.)**: أقام مقام والده عبد الرحمن في التدريس والفتوى، تخرج على يده الفحول. كان يسكن بأولاد علي بتيمي، أصيب بالعمى في آخر عمره، وكان أحد تلاميذه يكتب عنه، وهو الشيخ السيد المحفوظ من قصر أولاد أوشن. جمع نوازل عديدة لا يكاد يستغني عنها، تصدّر الفتوى في الصّحراء. توفي يوم الثلاثاء عند الزوال لليلتين الأخيرتين من صفر عام 1233هـ/1817م، ودفن بأولاد علي بجوار مقام الولي الصالح مولاي محمد الشريف. عبد العزيز سيدي عمر، المصدر السابق، ص: 46.

[3]- Martin, Quatre Siècles, P: 96.

[4]- Martin, Les Oasis Sahariennes, P: 299.

[5]-L.Herbeaut, Op.Cit, P: 572.

وبإلغاء نظام الرق بالصّحراء وتحرر العبيد وهجرة معظمهم نحو الشمال للبحث عن العمل، توقف عمل حفر الفقارات بالإقليم التواتي، وكما مر معنا فإنّ فئة الأشراف والأحرار يحتقرون العمل ولا يزاولونه، ومعظم الفقارات القديمة انسدت بتراكم الرمال عليها، وذلك راجع لعدم صيانتها وتنظيفها فأصبحت مواتا.

ب- عادات التعليم:

تعد الأوقاف المورد الرئيسي للتعليم بإقليم توات، وفي عصر ساد فيه الجهل والخرافة كان الناس يميلون بأوقافهم وأفعالهم الخيرية للزاوية أكثر من المسجد والمدرسة، وينقسم التعليم الدّيني بتوات إلى مرحلتين:

أ- المرحلة الأولى: وتتمثل في مرحلة الالتحاق بالكتاب.

ب- المرحلة الثانية: ويكون الالتحاق فيها بالمسجد أو الزاوية.

فأمّا مرحلة الكتاب أو الكتاتيب فتدعى في عرف التواتيين بـــ"أقربيش"[1]، وهو مصطلح زناتي الأصل، ويعرف في بعض المناطق التواتية بـــ"المحّضرة"، وفي أماكن أخرى بـــ"الجامع". وبالكتاب يتلقى الصبي دروسه الأولى وتربيته الأساسية على يد شيخه. وكان يجلس مؤدب الصبيان أو الشيخ في صدر الكتاب متربعا على الحصير والصبية من حوله في نصف دائرة، وإن كثر عددهم تتعدّد الدائرة، وبيد كل واحد منهم لوح ومداد الكتابة، وتتمثل في القلم المصنوع من القصب، وهناك المحبرة وتدعى محليا بـــ"الدواة"، وهي عبارة عن قارورة صغيرة يوضع فيها السمق، يضاف له العلك والسكر حتى يسود، واللوح الخشبي الأملس يطلى بمادة بيضاء تدعى محليا بـــ"الصمصال"، وكان يجلب من منطقة بودة[2].

وكان الصبي يدخل الكتاب عند بلوغه سن الرابعة، فيرتدي أحسن الملابس، ويوضع له الكحل في عينيه والطيب على جسده، ويقام له حفلا يحضر فيه أهله التّمر والحليب، والخبز الرقيق المحلى والمأدوم بالسمن، ويدعى لتلك المائدة رجال الحي وفي مقدمتهم تلاميذ المدرسة القرآنية. ويخطّ له شيخه الآيات الأخيرة من

---

[1]- **أقربيش**: هي غرفة بجانب المسجد يتعلم فيها الصبيان القرآن الكريم، ومبادئ اللّغة العربيّة والدّين. الصديق حاج أحمد، المرجع السابق، ص: 45.

[2]- المرجع نفسه، ص: 46.

سورة الإسراء، ثم يكتب الحروف العربية – أ، ب، ت...– على لوحه؛ ثم يتناول الحاضرون اللوحة ليكتب كل واحد منهم حرفا من الحروف الهجائية تبركا بهم[1].

والعادة المعروفة بتوات أنّ الصبي يدخله وليه الكتاب وهو صغير في أول تمييزه، ويتركه بيد المعلم الّذي يجبره على التعلم بالسجن والضرب حتى يختم القرآن الكريم[2]، وأول ما يبدأ به الطفل في الكتاب هو تعلم الحروف الهجائية، ثم ينتقل إلى حفظ القرآن الكريم ابتداء من سورة الفاتحة ثم المعوذتين، وهكذا يتدرج عبر سوره إلى أن يختمه، والذكي من الصبيان من يختمه دون سن العاشرة، بحيث يخبرنا الشيخ القاضي محمد عبد الرحمن البلبالي عن نفسه أنّه أتم حفظه في سن السابعة أو أقل من ذلك على يد شيخه عبد الله ابن إبراهيم[3].

ومن العوائد الموجودة في الكتاتيب التواتية الإملاء والتكرار، فالإملاء يسمى محليا بـــ"الفتوى" وهو أن يجلس الصبي بالقرب من شيخه ويملي عليه الثمن أو الربع، وأما التكرار فهو حفظ الصبي لحزب أو حزبين[4] أو أكثر لما مر عليه من القرآن الكريم. ويجمع المعلم في كل يوم بعد صلاة المغرب والانتهاء من قراءة الحزب اليومي طلبته في حلقة ويقرأ لهم الخمس الأخيرة من القرآن، ثم يقرأ لهم بعض المتون الفقهية[5]. ويحظى الصبية بعطلة تبدأ من يوم الأربعاء ضحى وتنتهي يوم الجمعة مساء، و يستفيدون في الأعياد الدّينية من عطلة تدوم أسبوعين، أسبوع قبل العيد وأسبوع بعده، كما يمنحون عطلة أسبوع بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، ويستفيدون أيضا من عدم القراءة ليلا يوم الأحد من كل أسبوع[6].

وعندما يتم الصبي حفظ القرآن الكريم يقام له حفل تكريمي يسمى محليا بـــ"السلوك"، فيدعى إليه أهل القرية ورجال الفتوى وأئمة المساجد؛ ويزين الشيخ لوح الطفل بآيات قرآنية، وتطلى يديه ورجليه بالحناء، ويلبس لباسا جديدا، ثم يجلس

---

[1]– محمد باي بلعالم، الرّحلة العلية، ج: 1، ص: 263.
[2]– البلبالي، المصدر السابق، باب الحبس وسائر العطايا، و: 521.
[3]– المصدر نفسه، و: 2.
[4]– الصديق حاج أحمد، المرجع السابق، ص: 47.
[5]– محمد باي، الرّحلة العلية، ج: 1، ص: 266.
[6]– فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 86.

في مكان عال ويأتي المهنئون لتهنئته. ويخصص الآباء لأولادهم الناجحين الحبوب وبعض القواريط من مياه الفقارة[1]، تشجيعا لهم على ما بدلوه من جهد ومثابرة في دراستهم، كما يقدم الأهل والأقارب الهبات والعطايا المختلفة، فتفيد نازلة: "أنّ امرأة وهبت ابن أخيها نخلة يوم ختمه لسورة البقرة"[2].

ويقوم بمهمة التدريس إمام المسجد، الّذي يستأجره أهل القرية لتدريس وتعليم صبيناهم مقابل حصة من التّمر والحبوب سنويا، وحصة من نوى التّمر لإطعام دابته، ويعطى له ذلك من أوقاف المسجد أو الزاوية[3]، كما يساهم أولياء الصبية وأقاربهم بقسط وافر في أجرة المعلم، فجاء في إحدى النوازل: "أنّ إماما تعاقد مع أهل بلد أن يصلي بهم على أن يأخذ من مالهم غلة وقف المسجد من تّمر وزرع". "وإمام آخر استأجره أهل قرية بأحباس مسجدهم على أن يصلى بهم ويقرئ صبيانهم، وسموا له عند العقد نهاية كراء الأحباس والزرع ونهاية ما يقطع منها من الثمن"[4].

ويدرس شيخ الكتاب الذكور وزوجته الإناث، وكان هذا النظام معمول به في سائر مقاطعات توات، وإذا لم تكن زوجته متعلمة ومتفقهة في علوم الدّين تقوم إحدى فتيات الكتاب النجيبات بتعليم زميلاتها. وكان يتم فصل الذكور عن الإناث بعد أداء فريضة الصيام[5]. والتعليم متاح أمام أفراد الطبقات الثلاث دون طبقة العبيد[6]، فهي محرومة من هذا الحق.

***- مرحلة الالتحاق بالمسجد أو الزاوية:**

يلتحق الطلاب بالمسجد أو الزاوية بعد إتمام مرحلة الكتاب لمواصلة تعليمهم الثانوي على يد الشيوخ الّذين يقومون باختيارهم، ومعظم الطلبة يتوجهون صوب الزوايا لتكملة الدراسة، فالزاوية لعبت دورا فعالا في التعليم وإعانة الضعفاء من

1- الصديق حاج أحمد، المرجع السابق، ص: 46.
2- البلبالي، المصدر السابق، و: 482.
3- المصدر نفسه، باب الإجارة والأكرية، و: 439.
4- المصدر نفسه، و: 440.
5- أحمد الحمدي، المرجع السابق، ص: 72.
6- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 86.

الفقراء والمعوزين. واشتهرت بعض الزوايا على مستوى منطقة توات بدورها الرائد في التعليم والأعمال الخيرية، نذكر منها: زاوية تنلان وزاوية كنته وزاوية الرّكان وزاوية سيدي البكري.

أ- **زاوية تنلان:** أسسها سيدي أحمد بن يوسف التنلاني[1] سنة 1058هـ/ 1648م وسماها "رزق الله الواسع لعباده النافع"، واشتهرت هذه الزاوية، فقصدها الطلبة والضيوف من جميع النواحي البعيدة والقريبة. وبعد وفاة الشيخ سّيدي أحمد بن يوسف برز بتنلان العالم سيدي عمر بن عبد القادر التنلاني الّذي رحل إلى فاس ليتتلمذ على يد أعلام المغرب الأقصى أمثال الشيخ سيدي محمد بن زكري الفاسي وغيرهم من العلماء. كما سطع نجم الشيخ محمد بن عبد الرحمن التنلاني بعد قرنين من وفاة سّيد أحمد بن يوسف، وأنشأ الشيخ سيدي عمر بن عبد الرحمن التنلاني زاويته بقصر مهدية وحبسها على ابن السبيل، وتولى الشيخ الفاضل الفتوى والقضاء بعد وفاة الشيخ عبد الحق بن عبد الكريم البكري[2].

ب- **زاوية كنته:** أسسها سيدي أحمد بن محمد الرّكادي[3] عام 1055هـ/ 1645م. وكان أصله من أدغاغ، ورد على توات على عهد السلطان مولاي محمد بن الشريف[4]، واشتهرت الزاوية الّتي برز بها علماء أجلاء أمثال الشيخ سيدي علي بن أحمد الرّكاد[5]، والشيخ سيدي المختار الكنتي الكبير، وابنه سيدي محمد بن مختار.

1- **أحمد بن يوسف التنلاني (1002-1078هـ/1593-1667م)**: ولد سنة 1002هـ/1593م بأولاد أنقال ونشأ بها، ثم انتقل لتنلان عام 1058هـ/1648م وأسس زاويته، ثم قام بحفر الفقاقير وتعمير البساتين وجعل كل ذلك لوجه الله تعالى. وكان الشيخ عالما بالحديث وله أشعار جيّدة، أخذ العلم عن العلامة الشيخ سيدي عبد الكريم بن محمد فتحا بن أبي محمد التمنطيطي. توفي بتنلان عام 1078هـ/1667م عن عمر يناهز 76 سنة ودفن بها. عبد العزيز سيدي عمر، المصدر السابق، ص ص: 45- 46.

2- الصديق حاج أحمد، المرجع السابق، ص: 90.

3- **أحمد بن محمد الرّكادي:** ولد عام 968هـ/1560م بوادي نون ونشأ به وتربى، درس الفقه والعلوم الشّرعية، ثم انتقل إلى توات واستقر بها وكان ذلك في سنة 1055هـ/1645م، أنشأ بها زاويته، ونزل بها الشرفاء الّذين استقروا بها. توفي سنة1062هـ/1651م، وخلّف ابنه سّيدي علي على الرئاسة الدينية للزاوية. الصديق حاج أحمد، المرجع السابق، ص: 119. بول مارتي، المرجع السابق، ص: 142.
Martin, Quatre Siècles, P: 52.

4- الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية، ص: 112.

5- **علي بن أحمد الرّكاد:** لم نجد له ترجمة وافية ماعدا تاريخ ميلاده ووفاته، ولد عام 1008هـ/1599م، وتوفي عام 1120هـ/1708م. الصديق حاج احمد، المرجع السابق، ص: 120.

ج- زاوية الرّكان: أسسها الشيخ عبد الله بن علي الرّكاني خلال القرن الحادي عشر الهجري أي السابع عشر الميلادي الّذي نزل عند الشيخ عبد الكريم المغيلي سيد قصر بوعلي، فأحسن استقباله ومنحه عدّة بساتين، وكان المغيلي يرفض مبدأ عودته إلى الرّكان. وسميت الزاوية الّتي أنشاها عبد الله بـــ"أنتهت"، حيث تنتهي توات بزاوية الرّكان أو الرّكاني[1]، وما زالت تحمل هذا الاسم إلى حد الساعة.

د- زاوية سيدي البكري: أسسها الشيخ سيدي البكري بن عبد الكريم سنة 1009هـــ/1689م. وكان للزاوية علاقات مع بلاد السودان، وسطع نجمها ونبغ منها علماء أجلاء ساهموا في تنمية الحركة العلمية والثقافية بإقليم توات. ومن بين العلماء البكراويين الّذين ذاع صيتهم الشيخ سيدي الحسن بن سعيد البكري، الّذي كان قطبا من أقطاب البكراويين، والشيخ سيدي البكري بن عبد الرحمن بن الطيب التينلاني[2]. وتقوم الزوايا بإطعام الضيوف والزائرين على اختلاف أغراضهم، والإصلاح بين المتنازعين، ومساعدة الفقراء والضعفاء والمساكين من إيواءهم ومواساتهم، وكان أرباب الزوايا محل احترام وثقة الناس[3].

ويوم التحاق الطالب بالمدرسة الفقهية يقام له حفل يدعى له إخوانه، وبعد اختيار الطلبة للشيوخ يجلسون لأخذ العلم، ويتم الدرس في المسجد أو في صحن الزاوية، ويكون الطلبة على هيئة دائرة وشيخهم يتوسطهم. وتبدأ الدراسة من صبح كل يوم حتى منتصف النهار، أما الفترة المسائية فتبدأ بعد صلاة العصر وتستمر حتى وقت صلاة المغرب ما عدا يوم الجمعة فهو يوم عطلة، كذلك في الأعياد والمواسم الدّينية[4].

ويعيد الطالب في هذه المرحلة من التعليم حفظ القرآن الكريم، ثم يدرس قواعد اللّغة والنحو والصرف والبيان والعروض والمنطق، والعلوم الدّينية من الحديث والتّفسير والفقه على مذهب الإمام مالك. ويدرسون أيضا الفرائض والحساب

---

[1]- Martin, Quatre Siècles, P: 20.

[2]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 108.

[3]- محمد باي بلعالم، الرّحلة العلية، ج:1، ص: 321.

[4]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 86.

والتصوف[1]. ومن المتون المدروسة في قواعد اللّغة النحو والصرف الأجرومية وملحة الإعراب والألفية. ومن متون التوحيد السنوسية والجوهرة والأوجلي. ومن متون الفقه ابن عاشر والأخضري والرسالة ومختصر خليل[2]. ويعتبر ابن عاشر والأوجلي والعبقري وملحة الإعراب من أهم وأبرز المتون الّتي يعتمد عليها المشايخ في تدريس طلابهم، وكانوا ينقلونهم من الأسهل إلى الأصعب سواء في الفقه أو العقيدة أو التفسير أو النحو، فبعد أن يستوعب الطالب ابن عاشر ينتقل به شيخه إلى رسالة ابن زيد القيرواني، فمختصر خليل، وفي النحو من ابن جروم إلى ابن مالك، فلامية الأفعال[3].

ويوم ابتداء صحيح البخاري يقام حفل كبير ومأدبة فاخرة، يحضرها رجال الدّين، وعند الشروع يجتمع الطلبة في حلقة المجلس ومن وراءهم المدعوون، ثم يبدأ الشيخ بدعاء الافتتاح، وفي يوم الاختتام يقام حفل أكبر من حفل الابتداء[4]. وعندما يبلغ المتعلم درجة عالية من التعليم ينتقل إلى الزاوية الأم لكي يأخذ علم التصوف والإجازات العلمية من كبار الشيوخ والعلماء[5]. واشتهرت بتوات عدة مراكز تعليمية منها: مركز تمنطيط وملوكة وكوسام وزاوية سيدي البكري وزاوية كنتة ومركز بودة وسالي وأنزجمير وتنلان وبني تامر، وسطع بهذه المراكز علماء أجلاء.

وبنجاح الطالب في دراسته يقام له حفل تكريمي تقرأ فيه بردة المديح، ويرتدي المتخرج في هذا اليوم أفخر الثياب وأجملها، ثم يجلس في مكان عال ويأتي المهنئون لتهنئته، وبعد انتهاء الحفل يودعه زملاءه وشيخه ليعود إلى بلده وأهله[6].

---

[1]- عبد العزيز سيدي عمر، المصدر السابق، ص: 10.
[2]- المصدر نفسه، ص: 10.
[3]- الصديق حاج أحمد، المرجع السابق، ص: 48.
[4]- محمد باي، الرّحلة، ج: 1، ص: 272.
[5]- المرجع نفسه، ص: 274.
[6]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 87.

ج- إكرام الضيف:

ورث أهل توات عن أجدادهم إكرام الضيف، فبعد التعرف على الغرباء والأجانب الوافدين على البلدة من قبل الوقاف يصطحبون مباشرة إلى دار الضيافة، وهناك يتلقون كل الخدمات الضرورية، ثم يتم اختيار الأسرة التي عليها دور تقديم الطعام للضيف مدة ثلاثة أيام[1]. ويتوجب على الأسرة المضيفة معرفة الطبقة التي ينتمي إليها الضيف حتى تقدم له الضيافة اللائقة بمكانته الاجتماعية، فقد يكون الضيف شريفا أو حرا، حرثانيا أو عبدا، من داخل توات أو خارجها، وبذلك تختلف مراسم الضيافة حسب قدر الشخص، وتتناوب الأسر الغنية والميسورة الحال في تقديم الطعام والشراب للضيوف[2].

ويستطيع المسافر الذي نفذت مئونته أثناء السفر أن يدخل قصور توات ليتزود بالمؤونة وكل ما يحتاجه لمتابعة سفره، وعليه يستطيع المسافر الذي نفذ ما عنده أن يواصل رحلته مارا بقصور توات من أدناها إلى أقصاها دون أن يسأل شيئا[3]. والقصر الذي لا تتواجد به زاوية يقسم أهله إلى سبعة أفواج ويقوم كل فوج بتقديم الضيافة، وإذا وجدت الزاوية فعلى أهل القصر تقديم الأحباس أو الأوقاف، وهي مساعدات مالية أو عينية، وتتولى الزاوية بذلك مهمة الضيافة والإنفاق[4].

ولعبت الأحباس دورا فعالا في توفير الرعاية الاجتماعية للفقراء واليتامى والمرضى، والتخفيف من معاناتهم وتيسير سبل العيش والحياة الكريمة للأفراد، وتحقيق مبدأ التكافل الاجتماعي الذي نادى به الإسلام، بحيث كانت الزاوية مأوى للعديد من المسافرين والمحتاجين والمعوزين. وعرف أهل توات بالصلاح والتقوى وحسن معاملة الأجانب والغرباء ومسالمة الجيران، وهذا ما جعلهم عرضة للنهب والسلب والغارات المتكررة من قبل القبائل المجاورة التي تعتمد على الغارات في العيش. وكل الرحالة الذين زاروا توات لمسوا من أهلها الطيبة والمسالمة، فالألماني

---

[1]-فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 36.

[2]- Selka, Op.Cit, P: 552.

[3]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 37.

[4]- Selka, Op.Cit, P: 553.

"جيرهار رولف" الّذي زار الإقليم في القرن الثالث عشر الهجري أي التاسع عشر الميلادي أشاد بالمعاملة الحسنة الّتي لقيها من السكان، والّذين أظهروا له الكثير من الود والمجاملة، والشيء نفسه ذكره "ديبورتر" في تقريره الّذي بيّن فيه أخلاق وطباع التواتيين، فقال: بأنّهم مسالمين مع الجيران، طيبوا القلب، كرماء مع الغرباء والأجانب[1].

إنّ كرم التواتيين نابع من تدينهم وتخلقهم، فالجماعة التواتية هي جماعة موحدة في العادات والتقاليد، ذات قيم اجتماعية وخلقية ثابتة، وكلها قيم نابعة من أصول إسلامية صافية، نظرا لوجود الإقليم التواتي في قلب الصّحراء.

د- الوفاة والجنائز:

من عادات سكان توات في الوفاة أنّهم كانوا يوصون قبل حدوث الوفاة بعشاء القبر[2]، فبموت الموصي تقام ليلة وفاته مأدبة عشاء طلبا للبركة والرحمة على روحه. وإذا حفر القبر يترك فيه المعول إلى أن يوضع فيه الميت حتى لا تسكنه الجن؛ حسب زعمهم الفاسد. ومن عزى ميتا لا يدخل دارا فيها مولود جديد حتى لا يصاب بالدمامل المعروفة بالنار الفارسية[3].

وتتلقى المتوفي عنها زوجها التّعازي من جميع سكان القصور. ومن العادات والتّقاليد المتصلة بالجنائز أن تأخذ الأرملة قطعة من النقد وتقوم بعضّها كلما تقدم أحد لتعزيتها، ويكرر المعزّى الظاهرة نفسها ثلاث مرات. وبعد مرور أربعة أيام من تاريخ الوفاة تضع الأرملة على رأسها قطعة من كفن زوجها سرا ولا يمكنها أن تتكلم أو ترى أحدا خاصة في وقت صلاة العصر والمغرب، وتستمر على هذا الوضع مدة أربعة أشهر وعشرة أيام، وبانتهاء فترة العدّة يمكنها أن تغتسل، وتغّر ملابسها وتتعطر وتتزين، كما يمكنها أن تضحك لكن بصوت خافت[4]. ويجتمع النساء لدى خروج المعتدة من عدتها إلى مكان معين خارج البلدة وهناك تلقي ثيابها

---

[1]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 37.

[2]- البلبالي، المصدر السابق، مسائل الأوصيا والوصايا، و: 57.

[3]- محمد باي بلعالم، الرّحلة العلية، ج: 2، ص: 287- 288.

[4]-Selka, Op.Cit, P: 552.

وترتدي ثيابا جديدة، ثم تعود لبلدها. ويزعم أنّ من رآها من الرجال حالة خروجها من بيتها قبل غروب الشمس يصاب بمصيبة، فإن كانت امرأة متزوجة فقدت زوجها، وما إلى ذلك من الخرافات[1].

وتؤخذ الأرملة يوم إتمام العدّة إلى مكان يسمى بـــ"حفرة الحزن" لتقوم بدفن قطعة الكفن التي كانت تضعها على رأسها، وتسبقها إلى ذلك المكان امرأة حاملة قدرا تقوم بالدق عليه قائلة: "أهربوا المرأة قد أتمّت عدّتها، فابتعدوا عن الطّريق وتجنبوا النظر إليها حتى لا يلحقكم الأذى أو تصيبوا بمكروه". وفي آخر اليوم ترجع المرأة إلى القصر وتعود إلى حياتها العادية[2].

هـــ- القسم:

كان في إقليم توات إذا وقعت منازعة أو خصومة بين شخصين اثنين وجب على كل منهما أن يوقعا القسم، فمن ادعى على شخص أنّه سرق ماله أو ماءه أو أغراضه طلب منه أن يحلف كأن يقول: "احلف بأنّك أخذت كذا مني، وبأنّك ستغرمها لي"، أو يقول: "احلف لي". فيقول المدعى عليه: "احلف أنت أنّي سرقتها، فأغرم قيمتها"[3]. ويكون القسم على المنبر بين المصحف الشريف، كما يتم عند بعض الناس على الأضرحة المشهورة بالإقليم كضريح محمد عزيز بتيمي. ومن عادات الناس في الحلف المشي إلى الضريح، هذا إذا كان موضع الضريح قريب، فإن كان بعيدا فلا ضرورة لذلك[4]. وتعتبر أم الولد في اليمين كالحرة وهي كالرجل في الخروج إلى الضريح[5].

---

[1]- محمد باي بلعالم، الرّحلة العلية، ج: 2، ص: 287.

[2]-Selka, Op.Cit, P: 552.

[3]- البلبالي، المصدر السابق، باب الدعاوي والإيمان، و و: 694- 695.

[4]- المصدر نفسه، باب الوكالة، و: 342.

[5]- المصدر نفسه، باب الدعاوي والإيمان، و: 696.

و- عادات بعض النسوة المحتاجات:

إنّ من عادات بعض النسوة اللاتي يشتكين من الفقر والحاجة الذهاب إلى قصر مندرس لا أثر له سوى اسمه ويعرف بالصفاة وكان يسمى قديما بـــ"أغلاد"، وهو الذي ذكره ابن خلدون، فيأوين إليه ويباشرن في البكاء والشكاية من الفاقة علهن يجدن لقيطا من ذهب، فيذهبن به إلى المدينة ويبعنه بمتاع يتقوتن به. ويذكر محمد الطيب أنّ هذه العادة من خواص مدينة تمنطيط وغرائبها[1].

ز- زيارة الأولياء الصالحين:

الزيارة هي موعد سنوي حسب التقويم القمري والشّمسي والمواسم الفلاحية، إذ يراعى في موعدها زمن الحصاد وتوفر الغلة، وتقترن الزيارة بذكرى وفاة عالم أو ولي صالح، وتعد الزيارة اليوم تظاهرة ثقافية واجتماعية شاملة. والزيارة هي أيام عادية لا تمنع فيها أشياء وتباح أخرى، كما تشكل فرصة للقاء والتعارف وصلة الرحم والتضامن. واشتهرت العديد من الأضرحة بالإقليم، فكانت مقصد الزوار من القريب والبعيد. وكانت تزار الأضرحة لأغراض مختلفة منها لطلب البركة والتضرع والتذلل إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء، ومنها لطلب الشفاء من مرض ما، وما إلى ذلك من المشاكل والصعوبات التي يواجهها الإنسان في حياته اليومية، فهو يتضرع إلى الولي ليقوم بحل مشاكله وتيسير حاله[2].

والظاهر أنّ الناس أصبحوا يقدسون الأولياء أصحاب الكرامات، فأصبحت الزوايا هي ملاذ الجميع، واقتصر دور المساجد على الصلاة فقط بعدما كان مؤسسة دينية وثقافية واقتصادية واجتماعية وسياسية. وفي زمن سادت فيه الخرافات والأساطير والجهل أصبح الناس يتوجهون إلى الزوايا والأضرحة لتقديم الصدقات والعطايا وإقامة الوعدة على شرف الولي الصالح، بعدما كانت الزوايا في الماضي تلعب دورا كبيرا في تنمية الحركة العلمية والثقافية ومساعدة المحتاجين من الفقراء والمساكين وتقديم الضيافة للمسافرين والغرباء.

---

[1]- محمد الطيب، المصدر السابق، ص: 15.

[2]- محمد باي بلعالم، الرّحلة العلية، ج: 1، ص: 330.

ومن الأضرحة المعروفة والمشهورة ضريح القاضي سيدي سالم الموجود بمقبرة المسلمين بتمنطيط، يقصده الزوار لطلب البركة[1]، وضريح مولاي سليمان بن علي المعروف بسلطان تيمي تشد الرحال لزيارته من مختلف أقاليم توات، كذلك الشيخ مولاي عبد الله الرّكاني فضريحه مشهور ويزار لطلب البركة. ومن أعلام القرن العاشر الشيخ سيدي الحاج بلقاسم[2] المعروف بشيخ ركب الحجيج وتخصص زيارته للاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وهو احتفال منصوص عليه في أحباس الزاوية يرثها الأبناء عن الآباء والأجداد كوعد سنوي لا يجب تجاوزه، وفيها ترفع جميع ألوية الأولياء الصالحين الّذين شاركوا في الحفل التأسيسي لهذه الزيارة، ولموسم سيدي بلقاسم شهرة كبيرة. وكان يحضى شيخ الطّريقة القادرية[3] دفين بغداد مولاي عبد القادر الجيلاني[4] باحترام جميع سكان توات، ولا يكاد يخلو قصر من مريديه، وتقام له سنويا زيارات يختم فيها القرآن الكريم ويتم فيها تذاكر مآثر هذا الولي الصالح. وانتشرت بالإقليم الطرق الصوفية الّتي التف حولها الأهالي، ونذكر منها الطريقة التيجانية والطيبية والبكائية والسنوسية والكرزازية[5].

ومن عادات أهل توات تشييد الصروح والقبب وشّد الرحال إليها، وتجمع فيها الوعدات، وترتكب فيها المناكر، وتعبد فيها الأوثان، ويطوف الناس حول الأضرحة بالأدعية والنذور. وحوّل الكثير من الجهلة الهدف من الزيارة بدل التفكير في الآخرة إلى التقرب إلى الأولياء. ومن العادات أيضا دق الطبول والمزامير على الأضرحة،

1- محمد الطيب، المصدر السابق، ص:21.

2- **سيدي الحاج بلقاسم:** هو السيد الحاج أبو القاسم من آل سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولد ونشأ وتوفي بزاوية المشهورة بـ"زاوية سيدي الحاج أبي القاسم"، دائرة تيميمون. ولم تحدد المصادر التاريخية تاريخ ولادته ووفاته، وما نعلمه أنّه من أعلام القرن 10هـ/16م، كان عالما وعابدا، له مسائل مفيدة وأشعار كثيرة، واشتهرت زاويته التي كانت عامرة بالضيوف والطلبة. عبد العزيز سيدي عمر، المصدر السابق، ص: 57.

3- **الطريقة القادرية:** تنسب هذه الطريقة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني دفين بغداد. وللطريقة فروع في الجزائر، وأول من أسس فرعا للقادرية الشيخ مصطفى بن المختار الغريسي سنة 1200هـ/1785م. إلا أنّ فروع الطريقة كانت موجودة من قبل في مختلف مدن الجزائر مثل تلمسان وقسنطينة، ومن فرق القادرية البكائية والسنوسية. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي. لبنان: دار الغرب الإسلامي، ط1: 1998م، ج: 4، ص ص: 42- 43.

4- **عبد القادر الجيلاني:** هو محي الدين أبو محمد عبد القادر الجيلاني أبو صلاح موسى الحساني المتوفى سنة 561هـ/1165م في بغداد، ويعتبر عند المتصوفة سلطان الأولياء، نسبت إليه عدّة كرامات وخوارق، له مؤلفات كثيرة نذكر منها على سبيل المثال: "لطائف الأنوار". أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص: 42.

5- محمد باي بلعالم، الرّحلة العلية، ج: 1، ص: 332.

ويجتمع لذلك الناس من رجال ونساء ملتحمين، ومنها أيضا الذبح على القبر وتقديم الهدايا له. ومن عاداتهم أيضا التجمع في الزيارة للصلاة جماعة والدعاء والذكر وإلقاء الدروس والمحاضرات[1].

ويقدم الزائر للزاوية حق الزيارة وتكون مالية أو عينية من مواد غذائية وحيوانات وملابس، وكان للزاويا بمنطقة توات أحباسها الخاصة بها من أراضي زراعية التي تحرث وتزرع وتحصد ثمارها على يد السكان. وهناك مناسبات أخرى يجمع فيها المال كالوعدة أو الصدقة، وقد أورد لنا سلكه في مقاله أنّه ظهرت بإقليم توات فئة استغلالية تقوم بابتزاز الناس مستغلّة في ذلك سذاجتهم وطيبتهم، فيطلبون من الأهالي ضرورة تقديم الصدقة للأولياء حتى يرضى الله عنهم، ويعتمدون في إقناعهم على أسلوب الحيلة والمكر والخداع، فمثلا لو جف المحصول أو تلف يدّعون بأنّ الله غاضب عليهم وأنّه عاقبهم كونهم لم يقدموا الصدقات والزكوات للزاوية، ولكي تستوثق حيلهم يقولون بأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قد أملى عليهم وصيات، وأنّهم مرسلون من قبل مرابطين توفوا منذ قرون بعيدة[2].

وجملة ما كان يطلبه هؤلاء الاستغلالون من أهل توات إبريق شاي والشاي والزبدة والسكر وشاة (الجدي) وقطعة قماش، كما كانوا يشترطون على الناس ألاّ تكون هذه المواد العينية مستعملة من قبل وإلاّ شنوا غضبهم على صاحبها مدّعين عدم رضا المرابط عنه. والظاهر أنّه ليس كل التواتيين جهلة وسذجا، فقد كان من بينهم الواعي والمثقف والمدرك لحقيقة أولئك المكرة الاستغلاليين، مثل فئة العلماء[3].

---

[1]- محمد باي بلعالم، المرجع السابق، ج: 2، ص ص: 587- 589.

[2]- Selka, Op.Cit, P: 531.

[3]- Ibid, P: 531.

2- الاحتفال بالأعياد الدّينية:

اهتم أهل توات بالاحتفال بالأعياد الدّينية كعيد الفطر وعيد الأضحى ويوم عاشوراء والمولد النبوي الشريف. وكانوا يحتفلون بهذه المناسبات السعيدة بتقديم الصدقات، وإنهاء الخصومات والنزاعات بين الأفراد والقبائل.

أ- الاحتفال بالعيدين:

بدخول شهر رمضان الكريم الّذي يعد من أعظم شهور السنة الهجرية يحرص التواتيون على إقامة كل الصلوات في أوقاتها. وبعد الإفطار يتوجه المصلون إلى المسجد لإقامة صلاة التراويح، وكان الرجال يصلون داخل المسجد، في حين كانت النساء تصلين خارجه، وكانوا يحضرون دروس الوعظ والإرشاد[1]. وكان يمر البراح بالقصور في وقت السحور وهو يضرب على دفه لإيقاظ السكان، وكان له مقابل ذلك حصة من التّمر يأخذها بعد خروج شهر رمضان. وكان الأهالي يقضون وقت القيلولة داخل الفقارة لبرودة الطقس داخلها[2]، ويكون في أيام الصيف الحارة، حيث كانت تصل درجة الحرارة إلى 50 درجة مئوية.

وكان الناس يحيون ليلة القدر المعظمة بالمساجد إلى غاية صلاة الفجر من اليوم التالي[3]، ويتم خلال هذا الشهر المبارك قراءة صحيح البخاري، وكان أهل المغرب يهتمون برواية الإمام البخاري، و هي المفضلة على غيرها من الروايات (صحيح مسلم، والسنن الأربعة...). وأول من قرأ البخاري في رمضان بتمنطيط هو سيدي ميمون عمر بن محمد الباز المتوفّى سنة 901هـ/1495م، كما أنّه كان أول من أدخل مختصر خليل إلى توات[4].

وعند الإعلان بدخول العيد بعد رؤية الهلال وانتهاء شهر رمضان المبارك، كان الأهالي يتهيئون لاستقبال هذا اليوم السعيد، وذلك بارتداء ثياب جديدة صبيحة

---

[1]- محمد باي بلعالم، التعريف ببعض الجوانب من منطقة توات، ص: 58.
[2]- أحمد الحمدي، محمد بن عبد الكريم المغيلي، ص: 49.
[3]- محمد باي بلعالم، التعريف ببعض الجوانب من منطقة توات، ص: 58.
[4]- الصديق حاج أحمد، المرجع السابق، ص: 53.

التسامح والتصالح ما بين سكان المنطقة خاصة بين الّذين كانت بينهم خصومات ومنازعات[1]. وفي عيد الأضحى كانت تقام صلاة العيد، ثم يتوجه المصلون إلى بيوتهم بعد المصافحة والتسامح لذبح أضحية العيد، وكان يقدّم جزء منها للفقراء والمساكين والمحتاجين، واللحم لا يتناوله إلاّ الأغنياء، في حين كان الفقراء يتناولونه مرة كل شهر، كما كان عليهم انتظار حلول المناسبات الدّينية[2].

ب- الاحتفال بيوم عاشوراء:

أثناء هذا اليوم كانت تزار المقابر، وتقسّم الصدقات والزكوات على الفقراء والمحتاجين، وقد أخبرنا محمد الطيب على طريقة احتفال أهل مدينة تمنطيط بهذه المناسبة فذكر: "ولهم في البلد موسم عظيم يوم عاشوراء، تجتمع له الركبان من نحو فراسخ ويزيد، ولا ينبغي عدم حضوره لكل سعيد، يبيتون فيه كل ليلهم على ذكره بالحلقة والهيللة، وربما انجذب فيه من حضرته عناية الله، وهو موسم الحواج والنتاج، تحضره الأفاضل الأبرار من كل الجيران، فيعودونه بالخير واللّطف، ويفترقون على بركة وغنيمة"[3]. وهذا الاحتفال خاص بمدينة تمنطيط دون غيرها من البقاع الأخرى من إقليم توات. ويقصد محمد الطيب بـــ"ولهم في البلد موسم عظيم يوم عاشوراء" المرابطون أولاد الولي الصالح سيدي عمرو من أهل وزان، وكانوا يقيمون بالقرب من أرض أغلاد[4]، ومن خلال ما ذكره ابن بابا حيدة يتبيّن أنّ يوم عاشوراء كان يحتفل به بالحلقة والهيللة، كما يجتمع له الناس للاحتفال به، وينبغي على الجميع الحضور.

ج- الاحتفال بالمولد النبوي الشريف:

كان الأهالي أثناء هذا اليوم المبارك يجتمعون بالمسجد لإنشاد الأناشيد والقصائد الّتي تشيد بخصال النّبي-صلى الله عليه وسلم-، من بداية شهر ربيع الأول لغاية اليوم الثاني عشر منه، وفي بعض الجهات من المنطقة يحيون اللّيلة

---

[1]- أحمد الحمدي، محمد بن عبد الكريم، ص: 49.
[2]- محمد باي بلعالم، التعريف ببعض الجوانب من منطقة توات، ص: 58.
[3]- محمد الطيب، المصدر السابق، ص: 20.
[4]- المصدر نفسه، ص: 19.

حتى طلوع الشمس، ويحتفل في اليوم السابع بختمه، وتوزع الصدقات على الفقراء والمعوزين[1].

وكانت تقام خلال الأعياد الدّينية، وموسم الحج، والمولد النبوي الشريف لعبة البارود وسط الأهازيج الشعبية، فكل تواتي كان حريصا على أن يمتلك بندقية لكي يشارك في هذه اللعبة، كما يجتمع رجال البلدة في وسط ساحة القصر وهم يرتدون لباسا أبيضا جميلا، وعندما يكتمل العدد يقومون بتشكيل دائرة تتوسطها الفرقة الموسيقية، وعلى صوت الأهازيج كان يتغنى الجميع بمصاحبة إيقاع مألوف، يصدر من الطبل والمزمار والدّفوف، ويدور الجميع مضيّقين قطر الحلقة، وهم يحملون في أيديهم بنادقهم وقد جعلوا فوهاتها ناحية الأرض، ثم تأتي الإشارة من الوجهتين لتنطلق بذلك الأعيرة النارية دفعة واحدة، وبعد ذلك تتسع الدائرة مرة أخرى[2]، ويستمر الحفل على هذا المنوال إلى وقت متأخر من الليل. ومن بين الرقصات الشعبية المعروفة بين أوساط المجتمع التواتي رقصة "يشو" و"أهليل"[3] و"الحضرة" و"قرقابو" و"بوهاروس"[4]، وغيرها من الرقصات الشعبية الّتي كانت متداولة خاصة أثناء المناسبات والمواسم السعيدة.

III- المبحث الثالث: المأكل والملبس والمسكن

لكل مجتمع نمط وأسلوب خاص في العيش، وذلك تماشيا مع حضارته وثقافته وعاداته وتقاليده، فأفراد المجتمع التواتي على غرار سكان الجزائر اختصوا بمميزات ومظاهر اجتماعية انفردوا بها دون غيرهم من المجتمعات. ومن بين هذه المظاهر الّتي برزت بصورة خاصة نذكر طريقة اللباس، ونوعية الطعام المتناول

---

[1]- أحمد الحمدي، المرجع السابق، ص:49. محمد باي بلعالم، المرجع السابق، ص ص: 58- 59.

[2]- كانت تقام لعبة البارود في مواسم أخرى كالاحتفال بالزواج أو الختان. فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 39.

[3]- **أهليل:** انفردت به منطقة توات، وهو طابع فلكلوري إيقاعي موسيقي، يقصد به إقامة الليل، يجتمع في تأديته الرجال والنساء على شكل حلقة، ينشد فيه المديح الدّيني والأشعار من مدح وغزل وهجاء. الصديق حاج أحمد، المرجع السابق، ص: 59.

[4]- عاشور سرقمة، المرجع السابق، ص: 2.

بين مختلف طبقات المجتمع التواتي، وطبيعة ونوع السكن الّذي كان يقيم به الأهالي، مع مراعاة الظروف وطبيعة المنطقة الّتي تواجد بها السكان.

1- المأكل:

يعتبر الطّعام مظهرا من مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وكان معتمد التواتيين في غذائهم وشرابهم على منتجاتهم المحلية من التّمر والشّعير والقمح والخضروات والألبان. ويغطي التّمر والشّعير معظم الاستهلاك اليومي، وهما أساس الوجبات الغذائية اليومية بالنسبة لعامة الناس.

وتعد الزراعة المورد الأساسي في عيش السكان، فإنتاج التّمور والحبوب من قمح وشّعير مع مقادير مختلفة من الخضر والفواكه كان كافيا لتغطية الحاجات الغذائية، ويصدّر فائض التّمر إلى مدن الشمال وبلاد السودان خلال السنوات الّتي يكون فيها المحصول جيّدا. أما شراب التواتيين فهو ألبان حيواناتهم، والّتي كان يصنع منها الزبدة والأجبان، ويعد اللّبن المخثّر من الوجبات الغذائية الرئيسية الّتي لا يستغني عنها، ومن جلود المواشي كانت تصنع الغرارات لتخزين الزبدة، وأما التّمر المعد للاستهلاك اليومي كان يخزن في خوابي من فخار، وهو نمط عيش سكان ما يسمى بجريد النّخيل على طول جنوب إفريقيا الشمالية[1]، كما كان التّمر وقِرَب الماء زاد الفرد التواتي أثناء سفره.

أ- طعام القبائل البدوية:

يعتمد البدو في تأمين غذائهم على تربية المواشي، ورّعي الحيوانات كان مرتبطا بالنشاط الزراعي وبوفرة المياه، وبما أنّ الإقليم ذا مناخ صّحراوي جاف تندر فيه المياه وذلك لقلّة تساقط الأمطار، فقد أدى هذا إلى عدم توفر مراعي جيّدة وصالحة، وهذا لا يعني انعدام وجودها فقد توفّرت بعضها على ضفاف وادي مسعود أين كانت تنمو بعض الحشائش والشجيرات. ويعتبر إقليم تدكلت من بين

[1]- أحمد مزيان، المرجع السابق، ص: 96.

المناطق الصالحة للرّعي، به مراع جيّدة أطلق عليها اسم الغابة[1]، وعلى العموم كانت تربية المواشي تعتمد في الأساس على ما كانت تنتجه البساتين من علف كالبرسيم وما يقدم لها من نوى التّمر. والحياة الرّعوية لا توفر للبدو الرّحل ما كانوا يحتاجون إليه من متطلّبات يومية، فهم لا يستطيعون تربية نسبة كبيرة من المواشي نظرا لقلّة تساقط الأمطار وبالتالي قلّة المراعي، لذا كانوا يجنحون إلى تربية نسبة قليلة من الجمال والأغنام والماعز المعروفة عندهم باسم الدّمان[2].

ويستهلك الرّحل يوميا اللحوم والألبان، وكانوا يضطرون إلى ذبح الجمال الكبيرة في السن من أجل توفير اللحم، وتتميز لحومها بالصلابة، أما شرابهم فيتمثل في ألبان حيواناتهم التي كانت تخزّن في الغرارات[3]، وإلى جانب اللحوم والألبان كانوا يستهلكون التّمور على اختلاف أنواعها، بالإضافة إلى القمح والشّعير وبعض ضروب الخضر والفواكه. وإذا لم يتوفر لذا الرّحل ما يمكن ذبحه من المواشي لتوفير الغذاء، يلجئون إلى أكل الجراد وجلود الحيوانات. وتميزت توات بكثرة الجراد، والشائع عن سكان الواحات أنّهم يستهلكونه ويخزنونه كما يخزن التّمر، وبيّن ابن بطوطة أثناء رحلته عند مروره بمنطقة توات كيفية تخزينه ووقت الخروج لصيده، فقال :"إنّ أكل أهل بودا التّمر والجراد وهو كثير عندهم، يختزنونه كما يختزن التّمر ويقتاتون به، ويخرجون إلى صيده قبل طلوع الشمس فإنّه لا يطير إذاك لأجل البرد"[4]. وأمّا جلود الحيوانات فكانت تقطع إلى قطع وتطهى ثم يتم استهلاكها، وكذلك جمار النخل أو الدوم فإنّها تطحن ليقتات منها[5].

ونظرا لنقص الثروة الحيوانية لدى الرّحل، عمدوا إلى استيرادها لسد النقص والعجز الموجود، وكان يؤتى بالخراف الحية ومنتجات الألبان من الزبدة والجبن من

---

[1]- Bajoli, La Question Saharienne, Oasis De l'Oeud Massaoud, Gourara- Touat-Tidikelt, Bulletin De La Société De Géographique D'Oran, 1891, P: 158.

[2]-Selka, Op.Cit, P: 550.

[3]- **الغراراة:** تصنع من اللّيف ومن الوبر، وهي كيس كبير. محمد بلعالم، الرّحلة العلية، ج: 2، ص: 347.

[4]- ابن بطوطة، المصدر السابق، ج: 2، ص: 802.

[5]-Martin, Les Oasis Sahariennes, P: 355.

تجار الشمال، واللّحوم المجففة من بلاد السودان[1]. وانتشرت تربية الدواجن بمنطقة توات، والّتي تميّزت بصغر حجمها[2].

والظاهر أنّ تأثير القحوط والمجاعات الّتي مر بها الإقليم خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين أي الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين جعل حياة الضيق والشدة حليفة البدو الرّحل، مما جعل العديد منهم يهاجر من الإقليم بحثا عن مكان آخر للعيش. وإثر المجاعات المتكررة قلّت المؤونة والزاد، إلا أنّ سكان توات تميزوا بالقناعة راضين بما منحهم الله من رزق، وهذا لم يمنع الرجل التواتي من أن يتخلى عن خيمته وباديته ويلجأ إلى بلاد السودان للعمل في التجارة[3].

ب- طعام الحضر:

كان الغذاء الرئيسي لأهل الحضر هو التّمر، وتعد التّمور التواتية من أجود الأنواع لذلك كان يشتد الطلب عليها من الخارج، وبلغ عدد النخيل على مستوى منطقة توات خلال القرن الثالث عشر الهجري أي التاسع عشر الميلادي حوالي ثمانية ملايين نخلة[4]، تنتج مختلف الأنواع، وهي كثيرة وتعرف بأسماء مختلفة. وتصنف التّمور التواتية حسب قيمتها الغذائية والتجارية. وكان الأغنياء وأصحاب البساتين والجنان يستهلكون التّمور الجيّدة ذات النوعية الأولى والجودة العالية. ويمكن تصنيفها كالآتي:

1- تين نقور: من الحجم الصغير، حلو المذاق ويتميز برائحة طيبة.

2- تينحود: وهو من الحجم الكبير، حلو المذاق.

3-حرثان: من الحجم الكبير، يمتاز بمذاق حلو.

4- تلمسو: يعرف عند عرب الشمال باسم حميرة، يمتاز بتوسط حجمه، وجمال لونه الأحمر العنبري.

5- لدكلي: يتميز بطعمه اللّذيذ.

---

[1]-J. Despois, Op.Cit, P: 452.

[2]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 59.

[3]-Martin, Les Oasis Saharienne, P: 356.

[4]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 57.

6- أما النوع السادس فيدعى تكربوش.

وتعتبر هذه الأنواع من التمور المطلوبة ليقدمها الأغنياء لضيوفهم[1].

أما النوع الثاني من التمور التي كانت تنتجها معظم النخيل، وكان استهلاكها كبيرا عند عامة الناس فهي كالتالي:

1- تلمسو: أو حميرة.

2- تين نصار: وهو أصغر حجما من تلمسو، يمتاز بلون عنبري فاتح.

3- تقزا: تمتاز بلونها الأصفر.

4- تين ملح.

5- تزرزي.

6- لدحم[2].

وأنواع التّمور كثيرة لا نستطيع أن نذكر جميع أسمائها، فمنها الشيخ محمد وفقوس وعروسة وشركة وبغل وبلال عيسى وبن شركي وبن طالب وبوعريف وبو جلطة وبوكزين وتين جوهر وتفريش وخلط...[3]. والحسف لا يعد نوعا من التّمور بل هو اسم يطلق على كل الفواكه المجففة قبل نضوجها، وتقدم كعلف للحيوانات.

وثاني غذاء رئيسي يتناوله التواتيون الشّعير، فهو يتلاءم مع البيئة الصّحراوية إذ لا يتطلب كغيره من الحبوب كثيرا من الماء[4]، ويأتي الشّعير في المرتبة الثانية بعد التّمر، ويقدم كعلف للماشية. وتزرع الحبوب من القمح والشّعير في جميع مقاطعات توات، ففي فصل الشتاء يزرع القمح والشّعير، أما في فصل الصيف فيزرع الدخن أو الذرة البيضاء، وقليل من الذرة.

ويتناول سكان توات يوميا وجبتين أساسيتين، الأولى وجبة الفطور، وكان يقدم فيها التّمر مع اللّبن المخثر، وبعض الفلفل الجاف، وتعد هذه الوجبة من الوجبات الغذائية الرئيسية. وفي وجبة العشاء يتناول التواتيون الكسكس والفطائر

1- Martin, Les Oasis Saharienne, P: 298.
2- Ibid, P: 298.

3- ينظر: باقي أسماء أنواع التمور التواتية : Ibid,P : 299.
4- أحمد مزيان، المرجع السابق، ص: 164.

المصنوعة من الشّعير أو القمح[1] هذا إذا كان الموسم فصل شتاء، فإذا كان فصل صيف فتصنع الفطائر أو الخبز من الدخن. وتعتبر هاتان الوجبتان طعام غالبية سكان توات. وأما شرابهم فهو الشاي الّذي يفضلونه عن باقي الأشربة، فهم يشربونه أربع مرات في اليوم، في الصباح الباكر، وبعد الغذاء، وفي المساء، وبعد وجبة العشاء[2]، والأغنياء والميسورون هم فقط من يتناوله يوميا[3]. ويتعاطى سكان توات مع فنجان الشاي مساء الشّمة و الكيف[4] (المخدرات)، ولم تقتصر هذه العادات على الرجال فقط بل تعدتها إلى النساء أيضا[5].

وإلى جانب التّمر والقمح والشّعير يستهلك التواتيون الخضر والفواكه الّتي تزرع في الحقول والبساتين مع أنّ عائد الإنتاج لم يكن مجزيا أمام المجهودات المبذولة من قبل السكان، إلاّ أنّه كان يفي بحاجاتهم الضرورية. وأهم الخضر المستهلكة القرع واللّفت والجزر والجلبان والبصل والكثير من الفلفل الأخضر والفول والحمص والعدس والكرنب والقرنبيط[6].

أما الفواكه فكان التّمر[7] يقوم مقام الفاكهة الرئيسية. ومن بين الفواكه المغروسة بالإقليم العنب والرّمان والبطيخ والتين[8]، ويحضى أصحاب البساتين والجنان بتناول مختلف الفاكهة ويكتفي الفقراء بالتّمر فقط.

ومن بين المأكولات المشهورة بتوات "أسفوف"، وهو عبارة عن تمر يدق ويضاف إليه الزبدة والكليلة (وهو حليب مجفف). والمردوف وهو عبارة عن خبز به عقاقير وتوابل وثوم، أما المردود فهو مثل الكسكس إلاّ أنّه غليظ الحب. ومن الوجبات الرفيعة الطنجية، ويتم تحضيرها بواسطة اللّحم والخضر، وتوضع في

1- Martin, Les Oasis Sahariennes, P: 351

2- أحمد الحمدي، محمد بن عبد الكريم المغيلي، ص: 48.

3-Martin, Op.Cit, P: 351.

4- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 35.

5- أحمد الحمدي، المرجع السابق، ص: 115.

6- Selka, Op.Cit, P: 550.

7- جمار النخل كالفواكه في كونه يتفكه به، وما يعصر منه بمنزلة العسل. البلبالي، المصدر السابق، البيوع وما شاكلها من اقالة وحوالة وتصيير وفساد وعيب، و: 164.

8- Selka, Op.Cit, P: 550.

مشعل من الخشب وتصب على كسرة القمح، وتصنع في المناسبات الفلاحية كيوم فاتح أكتوبر[1].

وعرف عن سكان توات أنّهم كانوا يعيشون ويقتاتون من المحصول قبل موسم حصاده بشهرين، وكانوا يأكلون أوراق الحبوب الخضراء بعد أن تطهى في الماء مع القليل من الملح[2]. ونظرا لنقص الثروة الحيوانية فإنّ اللحم[3] لا يستهلك إلا في المناسبات كحفلات الزفاف وازدياد المولود والأعياد الدّينية والضيافة، باستثناء الأغنياء فهم يتناولونه باستمرار، وينتظر الفقراء حلول المناسبات الدّينية كعيد الأضحى، بحيث يوزع الأغنياء اللحم على المحتاجين والفقراء، كما يوزعون التّمر على الأسر الفقيرة عندما ينتهي مخزونهم من التّمر قبل حلول موسم جمع التّمور. وكان هذا التكافل الاجتماعي بين أهل البلدة وسائر المقاطعات التواتية، فتمون الواحدة الأخرى في حالة العجز ونقص الإنتاج[4].

ويتناول التواتيون وجباتهم الغذائية في "الجلاس" المصنوع من الطين، والماء في "الجداح"[5] الّذي يقوم بتبريده، وتعتبر مياه توات نقية صالحة للشرب. وكانت الوضعية الاجتماعية والاقتصادية للأهالي جد صعبة فأغلبية السكان كانوا فقراء، لا يوفر لهم المدخول حاجياتهم الضرورية من المأكول والمشروب، لهذا اضطر العديد من سكان المنطقة للهجرة نحو مدن الشمال للبحث عن وسائل العيش. فبمقاطعة سالي لم يبق من فئة الحراثين سوى 230 شخصا وحوالي 70 شخصا من العبيد ووصلت نسبة الهجرة إلى 33%[6].

وحتى العائلات الغنية ذات الثروة والمال أصبحت وضعيتها جد مزرية بسبب تأثير القحوط والمجاعات والأوبئة التي عصفت بالإقليم خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجري أي الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين. وتحدث الأوبئة

---

[1]- محمد باي بلعالم، الرحلة العلية، ج: 2، ص ص: 349- 350.

[2]-Martin, les Oasis Sahariennes, P: 351.

[3]- تستهلك بتوات اللحوم المملحة والمجففة في الشمس (اللحم اليابس).

[4]-Martin, Ibid P: 306.

[5]-Selka, Op.Cit, P: 549.

[6]-Martin, Les Oasis Sahariennes, P: 131.

نتيجة الجراثيم التي كان يجلبها الحجاج العائدين من مكة، وغالبا ما كانت تتسبب في هلاك السكان، لذا كان لابد من مراقبة جميع الحجاج الوافدين إلى توات والحاملين للفيروس حتى يتم تدارك الخطر[1]. وشهد إقليم توات أمراضا وأوبئة عديدة كانت تحل من حين لآخر بسبب انعدام المراقبة ونقص العناية، وكانت الأمراض تنتشر بسرعة فائقة لتشمل جميع الواحات. وحسب ما رواه شاهد عيان من قصر أولاد أوشن "أنّ القصر عرف ثلاثة أوبئة خطيرة فتكت بالعديد من السكان"، كما حل سنة 1303هـ/1885م بأودرار بتنركوك وباء إسمه "التوهام"(Tehem) قضى على حوالي ستة عشر منزلا[2]. وفي نهاية شتاء 1322-1323هـ/1904-1905م قضى مرض الإفلونزا على أربعة وستون شخصا بتسفاوت بتيمي- حوالي 20 % من السكان-. وفي السنة الموالية شهري مارس وأفريل حدث وباء قاتل يدعى التهاب السحايا(Méningite Cérébrospinal) قضى على حوالي مئتين شخص بشروين وتسفاوت بالقورارة، وتوفي حوالي 66 % من الأهالي[3].

وأورد مارتان في كتابه الواحات الصّحراوية بعض الأمثلة على الأسر المالكة لعدد كبير من النخيل أصبح مردود نخلها لا يفي بحاجياتها، فأحد الأشخاص التواتيين المالك لتسعون نخلة، وكانت عائلته تضم ستة أفراد، الزوجة وأربعة أطفال وعبد واحد، انتاج التّمر يكفيه مدة ستة أشهر، ومحصول الحبوب لمدة ثلاثة أشهر، وثلاثة أشهر الباقية من السنة يضطر صاحب الجنان لتوفير المأكل إلى شراء حمل من التّمر والشاي والسكر، ويدفع الضرائب كما كان عليه أن يؤمن علف الحيوانات. والمثال الثاني عن شخص تواتي مالك لأربعين نخلة، وكانت عائلته تضم ثلاثة عشر فردا، وإنتاج التّمور يكفيه لمدة شهرين ونصف، وإنتاج الحبوب لمدة ثلاثة أشهر، وكان عليه أن يدفع الضرائب[4].

1- Martin, Les Oasis Sahariennes, P: 363.
2- Ibid, P: 363.
3- Ibid, P: 364.
4- Ibid, P: 232.

2- الملبس:

كانت تلبي المنتوجات الصوفية والقطنية المحلية الحاجات الضرورية للسكان، ويعتبر اللباس الّذي كان يرتديه أهل توات بسيطا جدا مثل بساطة المأكل والمشرب. واشتهر الإقليم بصناعة البرانس والحياك ذات المتانة والجودة العالية.

وكان الرجل التواتي يلبس بدلة تمثلت في سروال وقميص طويل، مصنوعين من القطن، أما الأغنياء وميسوري الحالة فكانوا يضعون برنوسا ليقيهم قساوة البرد، في حين كان الفقراء يرتدون قميصا من القطن فقط[1]. وكان لون اللّباس أبيضا، وهو اللون الّذي يفضله أهل الواحات الصّحراوية، لأنّه يعكس أشعة الشمس ويجلب البرودة والانتعاش للجسم، بخلاف التوارق سكان الهوقار الّذين كانوا يلبسون ألبسة زرقاء قاتمة.

ويضع الأغنياء على رؤوسهم "شاشية" أو "قبعة"، والبعض الآخر من السكان يضعون ستارا أو خمارا مفتوحا، ومنهم من كان يلف رأسه مثل التوارق، ولا يضع الفقراء على رؤوسهم أي شيء فتبقى بذلك عارية مكشوفة. وما كان يلبس في الأرجل النعال والبلاغي، وتشترك النساء مع الرجال في لبس هذه الأخيرة. والظاهر أنّ معظم التواتيين كانوا لا يلبسون شيئا في أرجلهم، فكانوا حفاة[2]، ينتقلون بين القصور والبساتين حفاة القدمين خاصة في فصل الصيف.

وتضع المرأة فوق اللباس الإزار الّذي تلفه على كامل جسدها، ويجب أن يكون فضفاضا حتى لا يبدي عورتها وزينتها، ومنهن من تضعن الحايك المصنوع من الصوف. وكانت المرأة بإقليم توات تباشر يوميا غزل ونسج الصوف الّذي تصنع منه مختلف الألبسة والأبسطة والأغطية، فكانت بذلك توفر مستلزمات بيتها الضرورية. ويستورد أهل توات قماش أسود لامع يسمى "الساي"، وهو جد مطلوب

---

[1]- Martin, Les Oasis, P: 352.
[2]- Ibid, P: 352.

من قبل النساء اللاتي يستعملنه كخمار، وسعره جد مرتفع ومع ذلك كانت النسوة تتهافتن عليه وتشترينه، ويقتصر شراؤه فقط على الأغنياء والوجيهات[1].

ومن خلال دراسة طعام ولباس سكان توات تبيّن لنا أنّ المستوى المعيشي للتواتيين يتميز بالبساطة، ولا يظهر الفرق في المأكل والملبس بين الأغنياء والفقراء إلاّ في المناسبات كالأعياد والزفاف والضيافة، وهي ظاهرة تشترك فيها جميع المجتمعات الصّحراوية الخاضعة لنفس التأثيرات المناخية والأمنية، وهي لا تسمح في الأحوال العادية إلاّ بتأمين عيش الكفاف لمعظم سكان الواحات.

3- المسكن:

ينقسم سكان إقليم توات إلى البدو الرّحل الّذين يسكنون بالخيم، ويعتمدون على حياة الرّعي في تأمين معاشهم، وإلى الحضر وهم المستقرون بالمدن والقرى والضياع، ويقيمون بالقصور والقصبات، ويعيشون على الزراعة والصناعة والتجارة.

أ- سكن البدو:

تقلص عدد البدو الرّحل بتوات خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين بسبب تأثير القحوط والمجاعات[2]. ويسكن البدو بالخيم، وتدهور المستوى المعيشي للرّحل جراء ندرة التساقط وقلة المراعي الصالحة للرّعي جعل حياتهم صعبة وقاسية، فتخلى العديد منهم عن حياة الرّعي واتجهوا صوب المدن والقرى للبحث عن فرص أخرى للعيش، ولجأ بعضهم إلى بيع خيامهم والاتجاه بجمالهم نحو بلاد السودان للعمل في التجارة[3].

وكان الإقليم التواتي إقليما مناسبا لنزول القبائل البربرية والعربية الرّعوية، والّتي تعتمد في معاشها على رعي المواشي من الجمال والأغنام والأبقار والماعز. وأدى الجفاف والقحط إلى القضاء على معظم هذه الثروة الحيوانية، فكان الجوع

---

[1] -Selka, Op.Cit, P: 548.
[2]- Bagoli, La question Saharienne, P: 157.
[3]- Martin, Les Oasis Sahariennes, P: 356.

حليف هذه القبائل، مما تسبب في الهجرة المستمرة والتخلي عن حياة البدو واتخاذ حياة الحضر الّتي أصبحت تحقق نوعا ما حياة الكفاف والأمن.

ب- سكن الحضر:

شكل الحضر غالبية سكان الإقليم التواتي، وباستقرار القبائل الزناتية بالإقليم أسسوا القصور وحفروا الفقارات بعد جفاف واد قير. وقد وصف ابن خلدون قصور وطن توات حيث يقول: "اختطوا في تلك المواطن القصور والأطم، واتخذوا بها الجنات من النخيل والأعناب وسائر الفواكه، فمنها على ثلاث مراحل قبلة سجلماسة وتسمى وطن توات، وفيه قصور متعددة تناهز المئتين"[1].

وخلال الهجرات العربية للإقليم أسست عدة قصور، لأنّ القديمة لم تعد تستوعب كثرة المتوافدين عليها، وسميت القصور المؤسسة باسم القبيلة النازلة بها، أو باسم المؤسس، مثل قصر بني ملوك وأولاد بوحفص وأولاد بويحي. والقصر الصّحراوي عبارة عن مجموعة من القصبات[2] مربعة أو مستطيلة الشكل مع أبراج ركنية تصلها أسوار محاطة بخندق خارجي، إلاّ أنّ بعض القصبات والقصور ينطبق شكلها الهندسي مع إطار المكان الّذي أقيمت فيه[3].

والعائلات الّتي لها مكانة محترمة تسكن بالقصبة، فالقصبة تعبر عن مركز اقتصادي واجتماعي لسكانها. وهناك تداخل كبير في عناصر السكان، ويعبر هذا التداخل عن التمازج التام، بحيث لا يمكن أن نعتبر العناصر الّتي تنطق البربرية بأنّها بربرية والعكس. وتستخدم العربية في اللقاءات العامة، أما الأسواق فتختلط فيها اللّهجات، وكثير من الأسر الشريفة أخذت تستعمل البربرية إلى جانب العربية[4]. وإذا كان السكان من أصل بربري فان القصر يختلط فيه السكان من جميع

1- ابن خلدون، المصدر السابق، ج: 7، ص: 68.

2- **القصبة:** هي عبارة عن سور عال في مستوى طبقتين أو ثلاث، وقد تكون مرتبطة بالقصر أو بدونه لأنّ كل عائلة لها مكانة اجتماعية واقتصادية محترمة تستطيع أن تحصل على قصبة أو تبنيها. وكل القصبات لها أسماء خاصة حيث تحمل اسم صاحبها، وكذلك القصور. ينظر: أحمد العماري، المرجع السابق، ص: 18. أحمد مزيان، المرجع السابق، ص: 265.

3- الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية، ص: 166.

4- أحمد العماري، المرجع السابق، ص: 16.

المستويات الاجتماعية العليا منها والدنيا، ومن جميع العناصر من حراثين وعبيد. وتبقى القصبة غير مسكونة وإنّما تخصص لتخزين المواد الغذائية الخاصة بسكان القصر، ويُلجأ إلى القصبة في حالة ضرورة الدفاع ضد أي هجوم، فهي عبارة عن حي مشترك[1].

أما بالنسبة للسكان العرب فان الأمر يختلف عن ذلك، بحيث تكون القصبة ملك عائلة خاصة، أو عائلات من الطبقة العليا. والقصر هو الّذي يسكن فيه بقية السكان من الطبقة الوسطى والدنيا من مختلف العناصر. ويكون القصر ملتصقا بالقصبة، ويحتوي على مساكن الأشخاص العوام من مزارعين وحرفيين وحراثين وعبيد[2].

وتعد القصبة حصنا منيعا ضد الأعداء، ذات أبراج وشرفات الّتي من خلالها يستطيع الأهالي الدفاع عن أنفسهم ببنادقهم، أو عن طريق رمي الحجارة من خلالها[3]. والعديد من القصبات خربت إثر الغارات العديدة الّتي تعرض لها الإقليم، وبقيت آثارها فقط، مثل قصبة سيدي محمد في ركّان.

وقصور توات حمراء اللّون تضم مابين مائة إلى ثلاثة مائة ساكن[4]. وتبنى البيوت التواتية من الطوب الأحمر المصنوع من الطين، وسقفها من جذوع النخل وسعفه، أما الأبواب فمن أخشاب النخل. ويتميّز البيت التواتي بصغر حجمه، مظلم ذو أبواب غير محكمة الإغلاق، ويتكون من عدّة غرف، منها غرفة النوم وغرفة الاستقبال والرحبة، وهي غرفة غير مظلّلة ومنها سلم يقود للسطح، ورحبة الغبار(بيت الماعز)، وبيت مخصص لتخزين الزاد والمؤونة والمطبخ بنفس الطهي فيه فوق الرّماد، ويخرج الدخان الذي يكتسح الغرفة عبر عمود يصعد إلى

---

[1] - Martin, Quatre Siècles, P : 3.

[2]- أحمد العماري، المرجع السابق، ص: 17.

[3]- محمد باي بلعالم، الرّحلة العلية، ج: 1، ص: 7.

[4] -J. Despois, R. Raynal, Op.Cit, P: 453.

السطح[1]. وغالبية دورات المياه تقام فوق المنازل وفي أسفلها جذانات لتجميع الفضلات[2].

وطريقة تخطيط المدن كلها ذات طابع واحد، فالساحة الواسعة تتوسط البلدة، ولا تخلو من مسجد أو زاوية، وتقسم من الداخل إلى أحياء سكنية، يخصص كل حي لنزول أفراد القبيلة. وتحيط بالبلدة بساتين النخيل التي تخفف من شدة الرياح، هذا إلى جانب ظلالها. وبالبلدة سور خارجي يحيط بها، وهو مربع الشكل، مقام على أضلاعه الأربعة أبراج للمراقبة والحراسة، وهي تغلق ليلا وتفتح صباحا. والأبراج جهاز دفاعي يحمي البلدة من أي هجوم أو غارة[3].

ولا يمكث التواتيون في فصل الصّيف ببيوتهم لارتفاع درجة الحرارة، فيقضون معظم أوقاتهم في البساتين والجنان، أو فوق أسطح المنازل، ومنهم من يحبذ البقاء في الأزقة المضللة[4].

---

[1] -Martin, Les Oasis Saharienne, P: 353.

2- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 41.

[3]- المرجع نفسه، ص: 42.

[4] -Martin, Op.Cit, P: 353.

الخاتمة

يتميز إقليم توات بالاستقلالية والحرية التامة في إتخاد القرارات وتنفيذها، مع تقديم الولاء والعشور والإتاوات السنوية للسلاطين المغاربة. والواقع أنّه كان تابعا إداريا للمخزن، وباحتلال فرنسا لتوات سنة 1318هـ/1898م انقطعت هذه التبعية بموجب أنّ الصّحراء جزء لا يتجزأ من التراب الجزائري.

ويتألف سكان توات من قبائل متعددة من بربر وعرب ويهود وزنوج، نزحوا لها من الشمال والشرق والغرب ومن إفريقيا السوداء. وأول من انتقل إلى الواحات القبائل البربرية من الزناتة، ثم كان قدوم العرب بعد السنوات الأولى التي أعقبت الفتح الاسلامي، وباستقرار القبائل تشكل المجتمع التواتي، والذي يتميز بالتجانس والتوحد في العادات والتقاليد والأعراف بالرغم من أنّه يقوم على الطبقية.

وبرز الحراثون بالإقليم وزادت أعدادهم بعد ما كانوا يشكلون فئة قليلة، وامتاز هؤلاء بحبهم للعمل والمواظبة عليه، واستخدموا للإشراف على جميع الأعمال والأشغال. وكان وضعهم الاجتماعي والاقتصادي جد مزر، فوضعيتهم أشبه بوضعية العبيد، إلاّ أنّ الحرثاني أرفع شأنا من العبد، ووجود هذا الأخيرارتبط ارتباطا وثيقا بالخدمة، لذلك كانوا عرضة للأمراض التي كانت تفتك بهم، فأسيادهم لم يكونوا يهتموا بهم، ممّا جعلهم يهربون كلما سمحت لهم الفرصة بذلك.

واندمج اليهود بعد اعتناقهم الإسلام مع السكان الأصليين للمنطقة، وأصبحوا يعرفون بالمهاجرية أو المهاجرة. ولقد مارسوا حرفا مختلفة، ومن أهم الحرف التي اشتهروا بها صياغة الذهب والفضة، فتفننوا في صناعة الأساور والقلائد والخلائل، وغيرها من المجوهرات التي كانت تتجمل بها المرأة التواتية.

ونال الأشراف العلويين والأدارسة ثقة الأهالي وكسبوا محبتهم، فخصوا باحترام وتقدير كبير، وجعلوا في المراتب الأولى بعد فئة رؤساء القبائل والمقاطعات، ونالوا العطايا الوفيرة من قبل حكام المغرب وذلك لشرف نسبهم وعلو مقامهم، وهم معفيين من دفع الضرائب السنوية.

وبرز في الإقليم الفقهاء والعلماء الذين نبغوا في شتى العلوم، وخلفوا كتبا قيّمة مجملها في علم الفقه، كما اهتم العلماء التواتيون بعلم التاريخ فكتبوا في تاريخ

بلادهـــم وفـــي مناقـــبها. وحوت المكتبات على العديد من المخطوطات، خاصة منها خزانة زاوية ملوكة، التّي تعد من بين أغنى مكتبات المغرب.

ويمتاز إقليم توات بموقع إستراتيجي حساس، جعله محطة تجارية هامة، يغدو فـــيه الـــتجار قاصـــدين بلاد السودان الغربي ومدن الشمال الإفريقي. وكانت القوافل الـــتجارية تذهـــب مـــن المغـــرب إلى السودان، حاملة معها المواد من زيت وحبوب وملابس قطنية لتقايضها هناك بالعاج والذهب وريش النعام.

وشـــهد الإقليم صراعا مريرا بين مختلف القبائل التواتية، وأدى هذا الصراع إلـــى انقســـام الـــبلد الواحد إلى قسمين متناحرين، وهما قسم قبائل ياحمد وقسم قبائل ســـفيان. وأسفرت الحرب بين الطرفين إلى تخريب قصور ومرافق توات. كما عرف الإقلـــيم غارات متكررة من قبل الرّحل من العرب والبربر، الّذين عاثوا فسادا وخرابا فـــي الأرض، خاصة قبائل دوي منيع وبني محمد ومكيدن والشعانبة و الغنانمة وآيت عطا.

ولـــم يعمـــل المخزن على ردع هذه القبائل، بل كان يكتفي بإرسال الرسائل لأعـــيان توات يدعوهم من خلالها إلى التكتل لمواجهة الأخطار الخارجية، والواقع أنّ تلـــك القـــبائل لم تكن تكن الولاء والطاعة لحكام المغرب، كما أنّ التواتيين لم يعملوا على تأسيس جيش قوي يعتمد عليه في تدارك الأخطار الّتي تتربص بإقليمهم.

وتمـــيزت الأسرة التواتية بالتماسك والترابط، وشغلت المرأة الشريفة والحرة مكانـــة راقـــية ومـــرموقة، وحضـــيت بكثير من الاحترام والتقدير. واشتغلت المرأة البســـيطة بغزل ونسج الصوف والقطن، ومارست بعض الحرف اليدوية في منزلها. وكانت الحياة الأسرية مبنية على الوفاق والود، وغالبا ما كان يسمع بطلاق في قصر مـــا، وهـــذا لا ينفـــي وجـــود بعض الخلافات بين الأزواج، والّتي كانت تنتهي غالبا بالطلاق.

وتسقى بساتين وجنانات توات بمياه الفقارات الّتي أحدثها الأهالي، واستمرت الأجـــيال تحـــافظ عليها، فبفضلها انبعثت الحياة بتوات، وللفقارة قوانين وتقسم مياهها حسب ما جرت عليه العادات والتقاليد.

واشـــتهر أهـــل الواحـــات بإكرام الضيف وحسن الاستقبال، وتختلف مراسم الضيافة حسب مكانة الضيف الاجتماعية والاقتصادية، وكانت الأسر المضيفة تتناوب في تقديم الضيافة.

وانتشـــرت الـــزوايا فـــي كل مكان بتوات، فتواجد في كل قصر زاوية أو ضـــريح لأحـــد الأولياء الصالحين، وجمعت الزاوية بين التعليم وتقديم المساعدات الخـــيرية للمحتاجيـــن والمعوزين. وبالرغم من دور الزوايا الإجابي إلاّ أنّه برزت ظاهرة خطيرة بتوات تمثلت في تقديس الأولياء، وتقديم الهبات والعطايا والصدقات، وإقامـــة الاحـــتفالات الســـنوية علـــى شـــرف الولـــي، فانتشر بعض الاستغلاليين والانتهازييـــن الّذين كانوا يبتزون الناس ويستغلونهم، معتمدين في ذلك على أسلوب المكر والخداع، لهذا اجتهد العلماء على محاربتهم والحد من هذه الظاهرة السلبية.

وانتشـــرت الطرق الصوفية بالواحات ومنها البكائية بكنتة، والّتي جدّدها في أواخـــر القـــرن الثامـــن عشر وبداية التاسع عشر ميلاديين "سيدي المختار الكبير"، وأصـــبحت تعـــرف بـــ"المختارية" نسبة إليه، وكانت بين البكائية والأجانب علاقات حسنة، كما عرفت الطيبية انتشارا واسعا، كذلك التيجانية والقادرية والشيخية.

ويولـــي التواتـــيون اهـــتماما كبيرا بالاحتفالات الدّينية، خاصة يوم عاشوراء والمولـــد النّـــبوي الشّـــريف الّـــذي كـــان يحتفل به بالتهليل والتكبير، وتقدم في هذه الإحتفالات الأطعمة والأشربة من التّمر والحليب.

وتمـــيز المســـتوى المعيشي للسكان بالبساطة، والتواتيون أهل قناعة يعتمدون على ما توفره لهم بيئتهم الصّحراوية القاسية، وتعدّ كل من التّمور والحبوب والحليب أســـاس الوجـــبات الغذائية اليومية. وعرف الإقليم خلال القرن التاسع عشر الميلادي كـــوارث ومآسي عديدة تسبب في إحداثها الجراد الّذي كان يكتسح الواحات من حين لآخر فيقضي على الرطب واليابس.

الملاحق



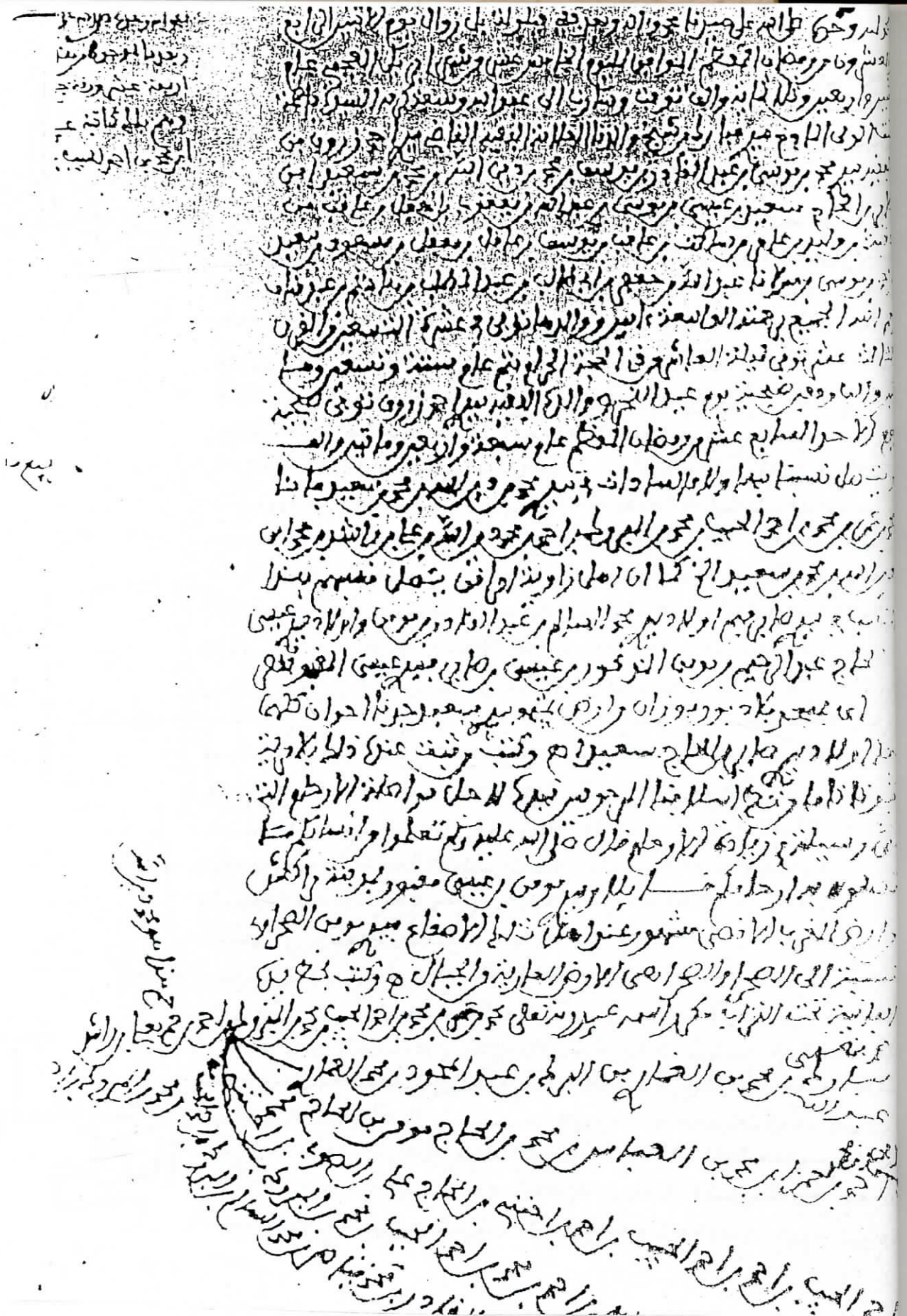
الملحق رقم:1.

الورقة الأولى من مخطوط الغنية للبلبالي.

بعض مسايل المجموع المذكور منقولا بعينه بابه كما ان ترتيب التراجم مرتب على غير ترتيب مختصر خليل وكذا بعض ابوابه كالنذور في مسعر وتعرفوا على ان بيض هو مبيضته وكذا من الخطبة والتحريم بالجامعين خاليا ومن الترتيب للمسايل بدء ما ليس بكل مسئلة سالبا وكذا من الخ هو سلكهم وخاض معهم في مسايل جمع احمد الحبيب انجم الدر العلم الظاهر والباطن ابو فرنصيب ابن محمد بن عبد الله بن ابراهيم البلبالي لازال فضل الله عليه متواليا تنبيا النسخ واستجمع على اخر جم ومسودته وترتيبه على اسلوبه المختصر الخليل ليسهل لفظه ودرهما مراما كنوا فصين الباع وليس له اعشاء بالنظر والاطلاع بعد ان استنار الله تبارك وتعالى واستعانه على الترجيح لذلك واه بجمعه من الزلل والخطا وسلوكه لتلك المسالك راجيا من الله الثواب والاصابة في القول والعمل لصواب الصواب انه على كل شيء قدير وبالاجابة جدير وهو حسبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تراجم المشتملة على مسايل جامع في القول والاعتقاد ، ونبذ من مهمات الحكايات . مسايل الطهارة والصلاة وسائر العبادات . الزكوة والصيام . الايمان بالله وبالطلاق وغيره والنذور . النكاح وتوابعه . الطلاق والخلع وما يتعلق به . اللعان والظهار والمفقود . العتق والمغفقات . الحضانة . البيوع وما شاكلها من الاجارة والحوالة والتصيير وبيعه وعيبه . بيع الوصول . والتعريض . القرض والسلم . الرهن والصلح والضمان والاقرار . الحجر . الوكالة . الشركة والقسمة والتوليج . والعارية . والارفاق والبضايع . الوكالة . الاقرار والتنازع . الغصب وسائر العدوان . الاستحقاق . الشفعة . القسمة . القراض والمساقاة والمزارعة . والاجارة والاكرية وما اشبهها . الجعالة . معاون الارض وما جعل على ارباب الحبس وسائر العطايا . الغصاة والشهود . الدعاوي والايمان والحيازات . الجراية والوداع وما يتبعها . والمروة والسرقة والزنا . العتق والوصايا والاوصياء والمواريث والفرايض . هذا ما تيسر وسعت به القريحة والحال والله المعين والمستعان والغفران والعفو رسيما مع شطر البال وتراكم الخواطر والاهوال وما ينبغي كتبه زيادة في شرح شيخنا الاكبر وخالنا الاشهر ما كان به خال السيد المجدوب شيخ العالم العامل الولي الزاهد الفاضح سيدي محمد بن محمد بن عبد الله الوغاني رحمه الله ونضر وجهه الله بمنه ورعى بحرس رعايته محبنا سيدي المجدوب الى سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ويجوز بالحمد لله على فضله ونعمه بان ابن اخيك صار عالما يغلبك ولم الى واخرك وكذا التدريس وخليل والتدريس لا يقربهما الا العلماء الكبراء وقل لام يا سعادتك وبابهم عنك قل لها ولوك اضحى مرخيار علماء تراث مرشك جلياة لم باي وفتة شاء مرخليل او من التدريس فمن شاء وليبقى غيظا ومرشاء وليجعل الله بعد ذلك امرا والاسلام وكتبه فتاها ابن الحاج عبد الرحمن عيسى

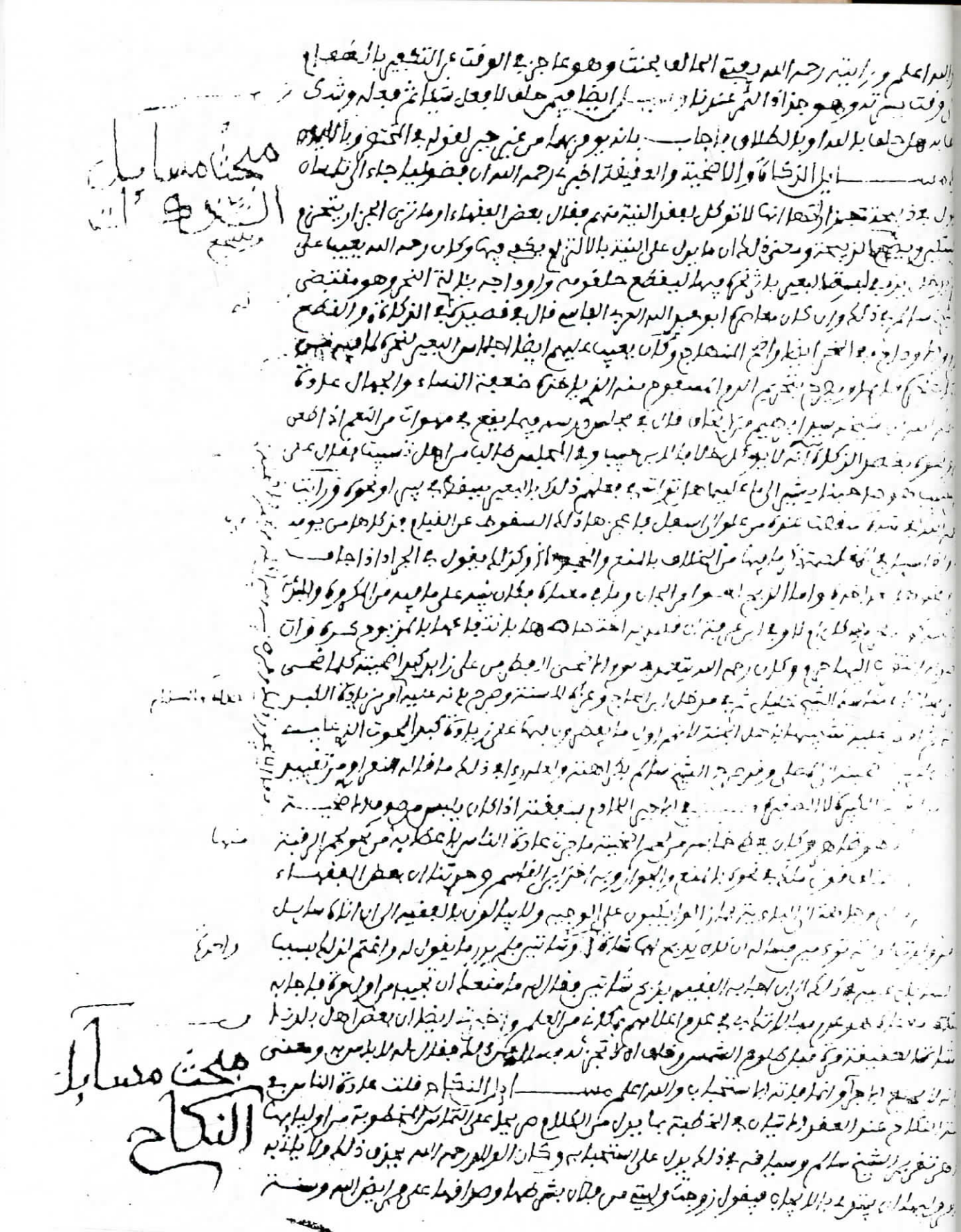
الملحق رقم: 2.

الورقة الخامسة من مخطوط الغنية للإطلاع على الأبواب التي ضمها المخطوط.



الملحق رقم: 3.

الورقة الأولى من مخطوط نوازل الزجلاوي.



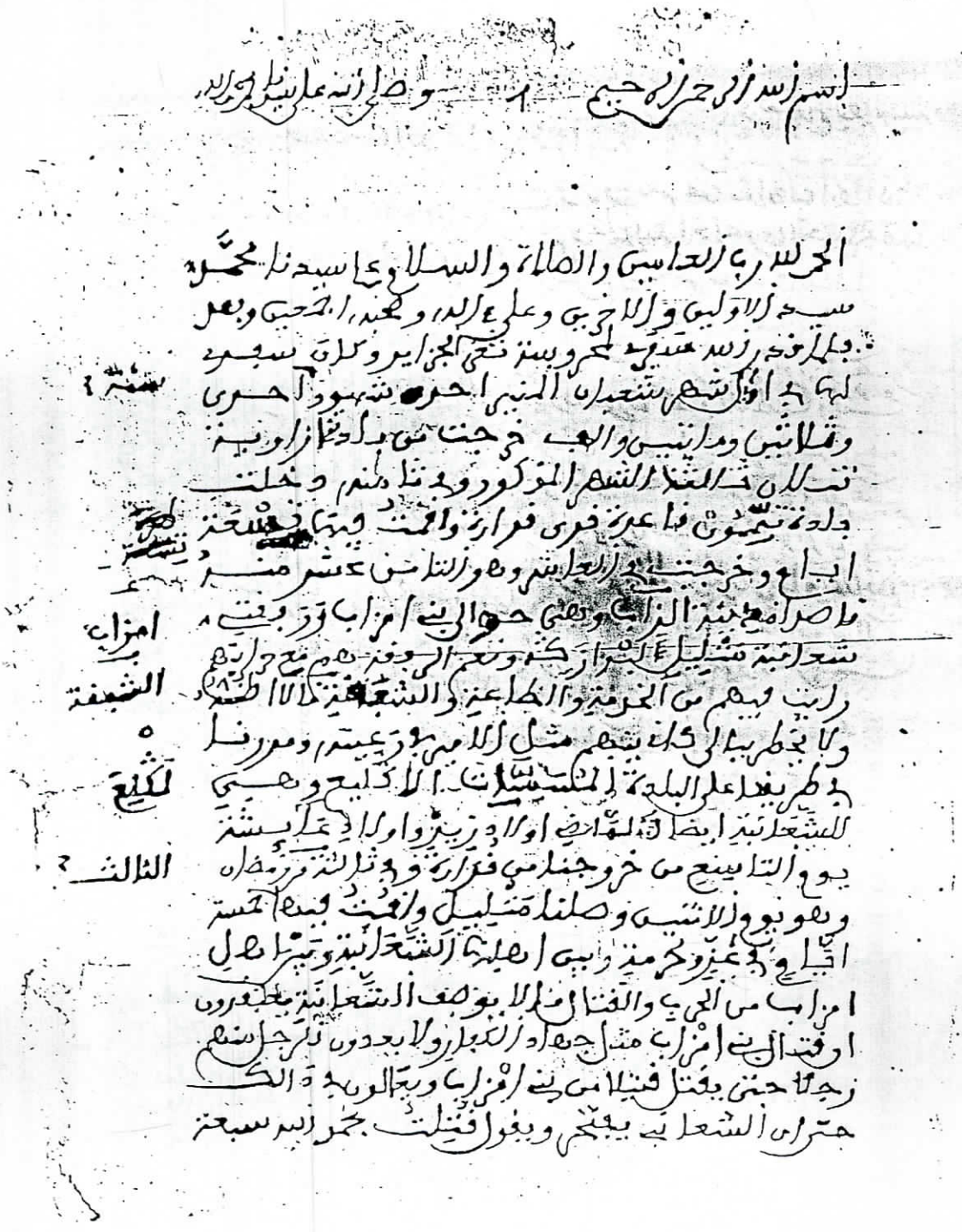
الملحق رقم:4.

الورقة رقم: 13 من مخطوط نوازل الزجلاوي.



الملحق رقم: 5.

الورقة الأخيرة من مخطوط نوازل الزجلاوي.



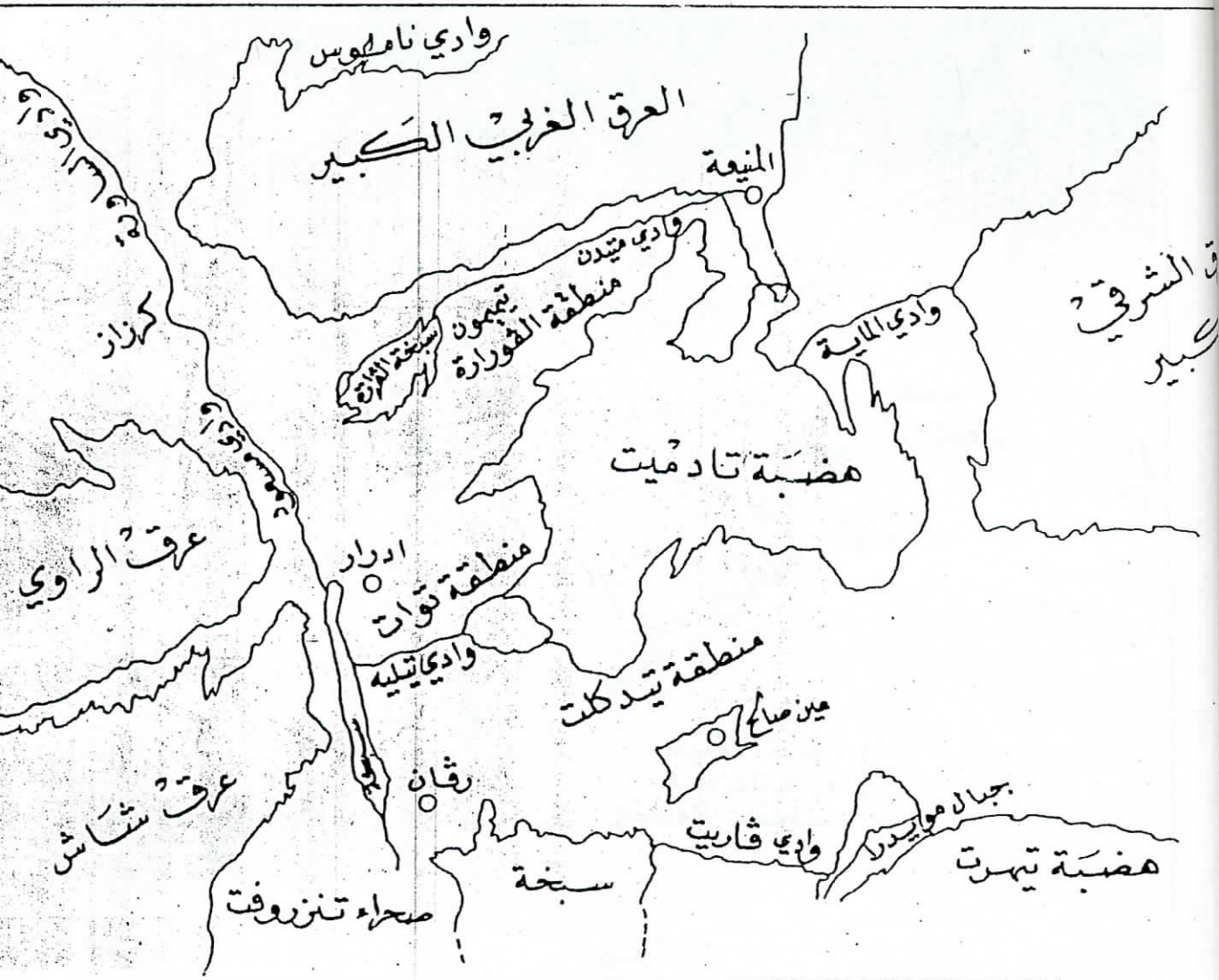
الملحق رقم: 6.

الورقة الأولى من مخطوط الرّحلة للتنلاني.



ملحق رقم: 7.

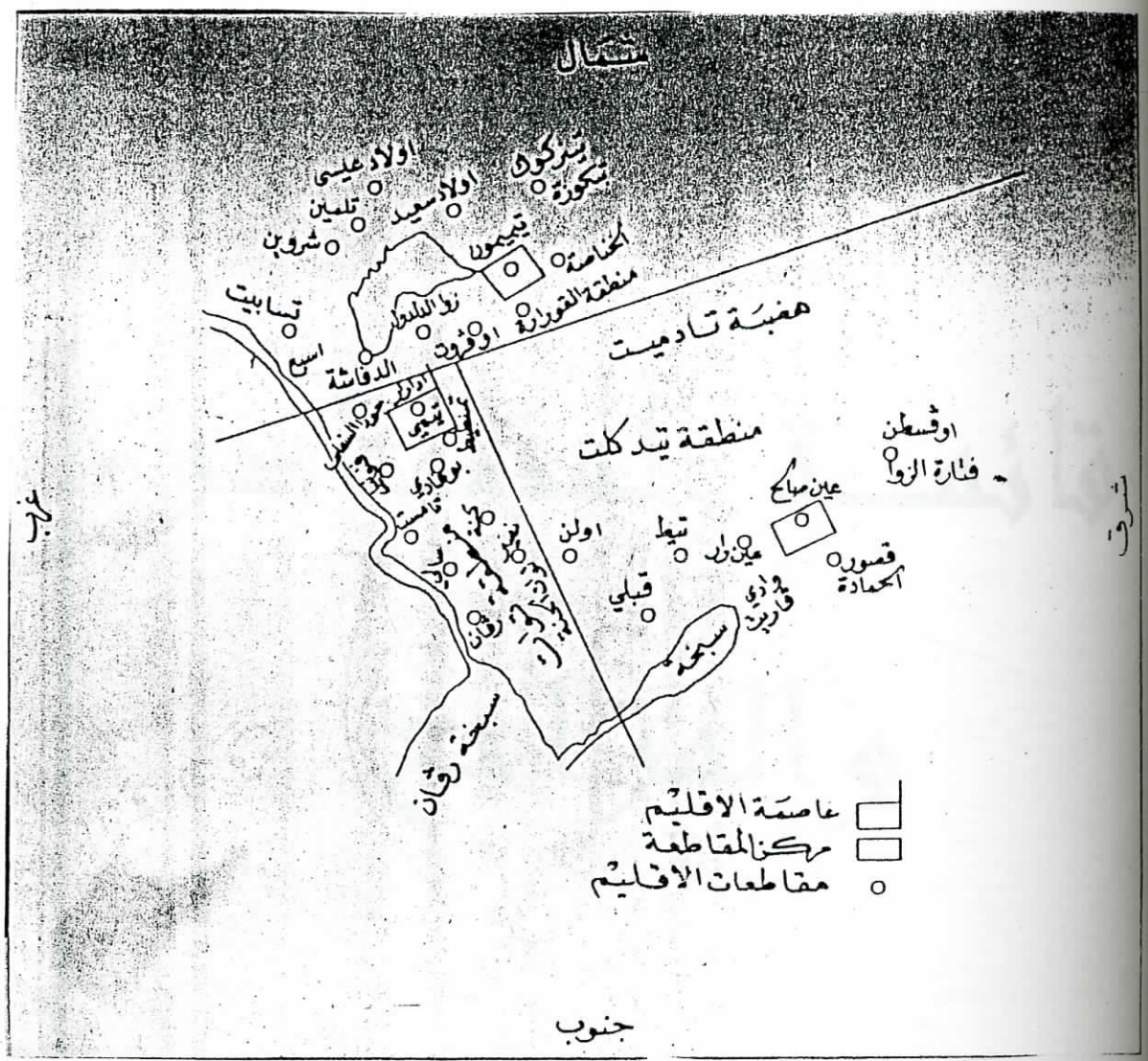
الورقة الأخيرة من مخطوط الرّحلة للتنلاني.



الملحق رقم: 8.

خريطة تمثل الحدود الجغرافية لإقليم توات.

المرجع المستعمل: فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين 18- 19م.



الملحق رقم: 9.

خريطة عامة لأقاليم توات الثلاثة(توات، والقورارة ، وتدكلت).

المرجع المستعمل: فرج مجمود فرج، إقليم توات خلال القرنين 18- 19م.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

1- المصادر المخطوطة:

1- **البلبالي** أبو عبد الله سيدي محمد عبد الرحمن(ت:1244هـ/1828م)، غنية المقتصد السائل فيما وقع في توات من القضايا والمسائل. نسخة مصورة بمخبر المخطوطات بكلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية بجامعة وهران.757 ورقة.

2- **التمبكتي** أحمد بابا(ت:1036هـ/1626م)، الكشف والبيان لحكم مجلوب السودان. نسخة مصورة بمكتبة الأستاذ أحمد الحمدي. 4 ورقات.

3- **الزجلاوي** محمد بن العالم(ت:1212هـ/1797م)، نوازل الزجلاوي. نسخة مصورة بمخبر المخطوطات بكلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية بجامعة وهران. 32 ورقة.

4- **عبد الرحمن ابن إدريس** التواتي التنلاني، رحلة من الجزائر إلى توات، نسخة مصورة بخزانة كوسام بمنطقة تيمي بإقليم توات. 6 ورقات.

2- المصادر المطبوعة:

5- **ابن الأحمر** إسماعيل(ت:807هـ/1404م)، روضة النسرين في دولة بني مرين. الرباط: المغرب. نشر عبد الوهاب بن منصور. 98 ص.

6- **الإدريسي** أبو عبد الله بن محمد الحسيني(ت:560هـ/1166م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2001م، مج: 1، 290 ص.

7- **ابن بطوطة** أبو عبد الله محمد بن إبراهيم(ت: 778هـ/1377م)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. تحقيق وتعليق علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، ط: 4، 1405هـ/1985م، ج: 2. 832 ص.

8- **البكري** أبو عبد الله بن عبد العزيز أبو عبيد الله(ت: 487هـ/857م)، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب. جزء من كتاب المسالك والممالك بغداد: مكتبة المثنى، 1857م. 213 ص.

9- **أبو داود** سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي(ت:202-275هـ)، سنن أبي داود. علق حواشيه وضبطه محمد محي الدين عبد الحميد. بيروت: دار إحياء الثراث العربي، 1408هـ/1985م، ج: 2، 334 ص.

10- **الونشريسي** أحمد بن يحي(ت:914هـ/1508م)، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب. خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي. دار الغرب الإسلامي، ط: 4، 1405هـ/1985م.ج: 4. 547 ص.

11- **الوزان** الحسن بن محمد المعروف بليون الإفريقي(ت:944هـ/1537م)، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط: 2، 1983م، ج: 2. 339 ص.

12- **الزركلي** خير الدين، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. بيروت: دار العلم للملايين، ط: 5، 1980م، مج: 6. 335 ص.

13- **ابن أبي الزرع** علي الفاسي(ت:741هـ/1340م)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1973م.

14- **الحموي** ياقوت شهاب الدين أبي عبد الله(ت:626هـ/1128م)، معجم البلدان. بيروت: دار صادر للطباعة والنشر،1979م، ج: 4. 501 ص.

15- **الحميري** محمد بن عبد المنعم، الرّوض المعطار في خبر الأقطار. تحقيق إحسان عباس. مكتبة لبنان، 1975م. 745 ص.

16- **يحي بن خلدون** أبو زكرياء(ت:780هـ/1378م)، بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد. تقديم وتحقيق عبد الحميد حاجيات الجزائر: المكتبة الوطنية، 1400هـ/1980م، ج: 1. 325 ص.

17- **ابن ماجه** أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني(207-275هـ/822-888م)، سنن ابن ماجه. مصر: دار الكتاب المصري، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ج: 2. 1567 ص.

18- **المغيلي** محمد بن عبد الكريم(ت:909هـ/1503م)، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي. تقديم وتحقيق عبد القادر زبايدية. الجزائر: المكتبة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974م. 67 ص.

19- **ابن مريم** أبو عبيد الله محمد بن محمد (ت:1014هـ/1605م)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. مراجعة محمد بن أبي شنب، الجزائر. طبع في المطبعة الثعالبية لصاحبها أحمد بن مراد التركي، 1326هـ/1908. 315 ص.

20- **محمد الطيب** بن عبد الرحيم المعروف بابن بابا حيدة(عاش في القرن الثاني عشر الهجري أي التاسع عشر الميلادي)، القول البسيط في أخبار تمنطيط. تحقيق فرج محمود فرج. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1977م. 33 ص.

21- **الناصري** أحمد بن خالد(ت:1315هـ/1897م)، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري. الدار البيضاء: المغرب. دار الكتاب، 1956م. ج: 2، 3، 5،7، 8، 9، 251 ص، 251 ص، 223 ص، 206 ص، 239 ص.

22- **ابن العربي** الإمام الحافظ المالكي، عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي. بيروت: دار الباز للطباعة والنشر، دار الكتب العلمية، باب النكاح، ج: 4.

23- **العبدري** محمد بن البلنسي، الرحلة المغربية. تحقيق أحمد بن حدو، الجزائر: نشر كلية الآداب الجزائرية. 352 ص.

24- **عبد العزيز** سيدي عمر(عاش خلال القرن العشرين)، قطف الزهرات من أخبار علماء توات. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985م. 69 ص.

25- **العياشي** أبو سالم(ت:109هـ/1679م)، ماء الموائد. الرباط: مطبوعات دار الغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1985م، ج: 1. 456 ص.

26- **العمري** ابن الفضل الله شهاب الدين أبو العباس أحمد، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، قبائل العرب في القرنين(7- 8هـ/13- 14م). دراسة وتحقيق دورو تياكرا فولسكي. المركز الإسلامي للبحوث، ط:1، 1975م. 280 ص.

27- **أبو الفوز البغدادي** محمد أمين السويدي، سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب. بيروت: دار الكتب العلمية، 1409هـ/1989م. 467 ص.

28- **ابن فرحون** إبراهيم بن نور الدين(ت:799هـ/1396م)، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب. تحقيق مأمون بن محي الدين الجنّان. بيروت: دار الكتب العلمية، ط:1، 1996م. 503 ص.

29- **الرّصاع** أبو عبد الله محمد الأنصاري، فهرست الرصّاع. تحقيق وتعليق محمد العنابي، تونس: المكتبة العتيقة، 1976م.261 ص.

30- **تقييد** ما اشتمل عليه إقليم توات من الإيالة السعيدة من القصور ووثائق أخرى. تحقيق عبد الوهاب بن منصور. الرباط: المطبعة الملكية 1962م. 77ص.

31- **التنسي** محمد بن عبد الله(ت: 889هـ/1493م)، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان. تحقيق وتعليق محمود بوعياد. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985م، ج:1. 356 ص.

32- **التمبكتي** أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج. تقديم عبد الحميد عبد الله الهدامة. طرابلس: منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ج: 2. 658 ص.

33- **الثميني** ضياء الدين عبد العزيز(ت:1223هـ/1808)، شرح كتاب النيل وشفاء العليل، محمد بن يوسف أطفيش. بيروت: دار الفتح، ط: 2، 1972م.

34- **ابن خلدون** عبد الرحمن بن محمد(ت:808هـ/1405م)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. منشورات محمد علي بيضون. بيروت: دار الكتب العلمية، ط:1، 1992م. ج: 6 ،7، 560 ص، 648 ص.

3- المراجـــــع:

35- **أحمد مزيان**، فجيج مساهمة في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال القرن 19م. 1988م. 592 ص.

36- **أحمد أبّا الصّافي الجعفري**، رجال في الذّاكرة محمد بن أب المزمري (ت: 1160هـ/1747م) حياته وآثاره.الجزائر: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر،ط:1، 1425م. 398 ص.

37- **أحمد العماري**، توات في مشروع التوسع الفرنسي بالمغرب من حوالي 1850 إلى 1902م. المغرب: كلية الآداب بفاس. 129 ص.

38- **بول مارتي**، كنته الشّرقيون. تعريب وتعليق محمد محمود ولد ودّادي، دمشق: مطبعة زيد بن ثابت. 256 ص.

39- **جوان جوزيف**، الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء. ترجمة مختار السويفي. بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط: 1، 1404هـ/1984م. 163 ص.

40- **حسن أحمد محمود**، قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى. بيروت: دار الكتاب الحديث، ط: 2، 1969م. 450 ص.

41- **السّيد عبد العزيز سالم**، تاريخ المغرب الكبير، دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية. بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1981م، ج: 2. 969 ص.

42- **الطيب عبد الرحيم الفلاتي**، الفلاتة في إفريقيا ومساهمتهم الإسلامية والتنموية في السودان. بيروت: دار الكتاب الحديث، ط:1، 1415هـ/1994م. 357 ص.

43- **يحي بوعزيز**، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة. بيروت: دار الغرب الإسلامي ط:1، 1995م، ج:2. 270 ص.

44- **محمد سليمان الطيب**، موسوعة القبائل العربية. بحوث ميدانية وتاريخية. لبنان: دار الفكر العربي ط: 2، 1996م، مج: 1، ج: 1، 2. 1063 ص، 707 ص.

45- **مولاي بلحميسي**، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979م، 206 ص.

46- **مصطفى أبو ضيف**، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين. الدار البيضاء: مطبعة دار النشر المغربي، ط:1، 1982م. 380 ص.

47- **محمد أبو زهرة**، محاضرات في عقد الزواج وآثاره. القاهرة: دار الفكر العربي، 1971م. 336 ص.

48- **محمد باي بلعالم**، الرّحلة العليّة إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات. الجزائر: دار الهومة،2005م. ج: 1، 2، 440 ص، 655 ص.

49- **ناصر الدين سعيدوني**، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م. 335 ص.

50- **أبو القاسم سعد الله**، تاريخ الجزائر الثقافي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط:1، 1998م، ج: 4. 541 ص.

51- أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986م، ج: 2. 396 ص.

52- **عبد الرحمن بن محمد الجيلالي**، تاريخ الجزائر العام. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط:7، 1415هـ/1994م، ج:1. 340 ص.

53- **عبد الحميد الإسماعيلي العلوي**، التاريخ الأريج لمدينة فجيج. وجدة: مطبعة دار النشر الشرقية. 296 ص.

54- **عبد الفتاح القاصح**، واحات الجريد دراسة في الجغرافية الزراعية. تونس: منشورات كلية الآداب، 1991م، مج: 2. 252 ص.

55- **عصام محمد شبارو**، القضاء والقضاة في الإسلام. بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1983م. 394 ص.

56- **عمر رضا كحالة**، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة. بيروت: دار العلم للملايين، 1388هـ/1968م ج: 3. 1287 ص.

57- **فوزي سعد الله**، يهود الجزائر هؤلاء المجهولون. الجزائر: شركة دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع. 263 ص.

58- **فرج محمود فرج**، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية والمؤسسة الوطنية للكتاب،1977م. 153 ص.

59- **الصديق حاج أحمد**، التاريخ الثقافي لإقليم توات من القرن 11-14هـ/17-20م. ط:1. 2003م.

4- الـــــــدوريات:

60- **البكري بكري**، تمنطيط رمز تاريخ وعنوان حضارة. مجلة الحضارة الإسلامية، عدد: 1، 1413هـ/1993م. 60- 68 ص ص.

61- **لقبال موسى**، البتر والبرانس المظهر الاجتماعي لسكان بلاد المغرب قبل الإسلام. مجلة الأصالة، سنة: 4، عدد: 24، 1975م. 159- 166 ص ص.

62- **المهدي البوعبدلي**، أضواء على مدينة تمنطيط ودور الإمام المغيلي بها في قضية يهود توات، مجلة الثقافة، سنة: 16، عدد: 94، 1986م. 83- 95 ص ص.

63- **محمد باي بلعالم**، التعريف ببعض الجوانب من منطقة توات الجزائرية وحضارتها. أعمال الملتقى الأول للتعريف بمنطقة أدرار، أدرار 13-14 شعبان 1405هـ/3-4 ماي 1985م. 41- 59 ص ص.

64- **أحمد الحمدي**، تحديد وضعية عبيد توات من خلال الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان لأحمد بابا التمبكتي. أعمال الملتقى المغاربي الثاني للمخطوطات، 29-30 نوفمبر 2004م، جامعة منتوري قسنطينة.

5- الـــــموسوعات والأعاجم:

65- **الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية**، صفر 1396هـ/ فبراير 1976م، الرباط، المغرب، 1396هـ/1976م. 219 ص.

66- **إيفر، البربر. دائرة المعارف الإسلامية**. ترجمة إبراهيم زكي خورشيد، أحمد الشنتاوي وآخرون. القاهرة: كتاب الشعب، مج: 6، ص ص:567- 589.

67- **الموسوعة العربية العالمية**، السعودية: موسوعة أعمال لموسوعة النشر والتوزيع، ط:2، 1999م، ج: 7، 22، 406 ص. 482 ص.

68- **بطرس البستاني**، دائرة المعارف. لبنان: دار المعرفة، ج:6. 477 ص.

69- **الزبيدي** محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس. بيروت: منشورات مكتبة الحياة، ط:1، 1306هـ. مج: 1.

6- الرسائل الجامعة:

70- **أحمد الحمدي**، محمد بن عبد الكريم المغيلي رائد الحركة الفكرية بتوات، عصره وآثاره (870- 909هـ/1465- 1503م). وهران: كلية العلوم الإسلامية والحضارة الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، 1990- 2000م. 240 ص.

7- مواقع الأنترنيت:

71- **عاشور سرقمة**، التراث الشعبي بمنطقة توات.

www.Rezgar.com

8- المراجع باللّغة الفرنسية:

72- A. G. P. Martin, A La Frontière Des Maroc, Les Oasis Sahariennes. Alger : Edition De L'Imprémerie Algérienne, 1908. 406 pages.

73- Quatre Siècles D'Histoire Marocaine. France, Paris : Librairie Félix Alcan, 1923. 591 p.

74- J. Dèspois R. Raynal, Géographie De L'Afrique Du Nord Ouest. Paris : Payot, 1967.

75- Jacob Oleil, Les Juif Au Sahara, Le Touat Au Moyen Age. Paris : CNRS Edition, 1994. 168 P.

76- Jean Jacque Premas, Structure Agraire Et De Colonisation Des Oasis De L'Oued Rhir. Alger : L'harmattan Office Des Publication Universitaire, Paris : Edition Librairie ISBN, 1979. 372 P.

77- R. Pottier, Histoire Du Sahara. Paris : Nouvelle Edition Latine, 1947. 334 P.

9- الدوريات باللّغة الفرنسية:

78- Abdeljalil El Tamimi, Le Beylik De Constantine Et Hadj Ahmed Bey. Publication De La Revue D'Histoire Maghrébine, Volume: 1, 1978.

79- Berger Levrault, La Conférence D'Algersira. Paris : 1906. 130-139 PP.

80- Le Chatelier, Les Medagnat. Revue Africaine, N: 30, 1985. Alger : Office Des Publications Universitaire. 403- 418 PP.

81- Charles Féraud, Les Harar Seigneur Des Hnancha. Revue Africaine, N: 18, 1863. 321- 396 PP.

82- Gilbert Grand Guillaume, De La Coutume A La Loi Droit De L'Eau Et Statut Des Communautés Local Dans Le Touat Précolonial (Enjeu Saharienne Table Ronde Du Cresm) Nov. 1981, Par: Pierre Robert Baduel. 119-132 P.

83- Jean. Marisot, L'Aures Au La Mythe De La Montagne Rebelle. Paris : Edition L'harmattan, 1992. 273 P.

84 L. Herbeau, Les Foggara Du Touat. Bulletin De La Société De Géographie D'Alger Et De L'Afrique Du Nord, 4 éme Trimestre, 1934, N: 140. 561-573 PP.

85- L. Rouire, Le Sud Ouest Oranais Et Le Touat. Revue De La Société De Géographie D'Oran, 1891. 333-368 PP.

86- L. Boualga, Abdelkrim El Meghili. Bulletin De La Société De Géographie Et D'Archéologie D'Oran : 1980. 1-11 PP.

87-M.Bellaire, Le Touat et le Chorfas D'Oauazzane., Paris: Librairie Orientaliste Paul Genthnner, T : XVIII, 1982, 147-151 PP.

88- P. Devor, Le Touat Etude Géographie Et Médical. Archive De L'institut Pasteur, T: XXV, N: 3- 4, Sep- Dec, 1947.

89- Selka. Abderrahmane, Notice Sur Le Touat. Bulletin De La Société De Géographie D'Alger Et De L'Afrique Du Nord, 3éme Trimestre, 1922. 522-555 PP.

90- C. Bajolie, La Question Saharienne Oasis De L'Oeud Massaoud, Gourara, Touat, Tidikelt. Bulletin De La Société De Géographie, D'Oran, 1891. 150-160¨PP.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

المقدمة ..... أ

المدخل 2

الفصل الأول: البنية الاجتماعية لإقليم توات

I – المبحث الأول: عناصر السكان 23

1- البربر 23

أ- الزناتيون 23

ب- اللمتونيون 28

2- العرب 30

3- العبيد 49

4- الحراثون 51

5- اليهود 53

II-المبحث الثاني: الطبقات الاجتماعية 56

1- فئة الخاصة 56

أ- رؤساء القبائل والمقاطعات 57

ب- الأشراف والمرابطون 60

ج- القضاة 64

د- العلماء 67
هـ- التجار 69
2- فئة العامة 72
أ- أصحاب الماشية 72
ب- المزارعون 73
ج- الحرفيون 79
د- العبيد 81
III-المبحث الثالث: العلاقات الاجتماعية 83
1- العلاقات الداخلية للقبائل التواتية 83
2- العلاقات الخارجية 92

الفصل الثاني: مظاهر الحياة بالاجتماعية بإقليم توات

I – المبحث الأول: الأسرة التواتية 104
1- المرأة التواتية 104
2- الزواج 110
3- الطلاق 119
II-المبحث الثاني: عادات وتقاليد واحتفالات سكان توات 124
1- العادات والتقاليد 124
أ- العادات المتعلقة بالفقاقير 124
ب- عادات التعليم 130
ج- إكرام الضيف 136

د- الوفاة والجنائز 137
هـ- القسم 138
و- عادات بعض النسوة المحتاجات 139
ز- زيارة الأولياء الصالحين 139
2- الاحتفال بالأعياد الدّينية 142
أ- الاحتفال بالعيدين 142
ب- يوم عاشوراء 143
ج- المولد النبوي الشّريف 144
III-المبحث الثالث: المأكل والملبس والمسكن 144
1- المأكل 145
2- الملبس 152
3- المسكن 153
الخاتمة 158
الملاحق 162
قائمة المصادر والمراجع 172
فهرس الموضوعات 183